في قلبي حبٌ دفين

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

❖ **الكتاب: في قلبي حب دفين**

❖ **المؤلف: ريحان الجزائري**

❖ **نوع العمل: رواية**

❖ **الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م - القاهرة**

❖ **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

❖ **رقم الإيداع : 2019 / 17452**

❖ **الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6754- 44-7**

❖ الغلاف:

❖ تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببلومانيا

❖ المدير العام: جمال سليمان

❖ العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة

عنوان (2): 38 شارع عمر المختار – الأميرية – القاهرة

❖ تليفاكس: 0020226061014

❖ محمول: 00201208868826 – 00201065534541 – 00201210826415

❖ صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/

❖ الموقع الإلكتروني: www.bbibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

في قلبي حب دفين

رواية

ريحان الجزائري

www.bbibliomania.com

2019

إهـــداء

ولأن قلبي ليس بمقبرة

إهداء إلى قلبي وإلى كل من سكن قلبي وبقي في داخله حيا.

فصل الشتاء
القبلة

لك الحرية المطلقة في رسم لوحة أحلامك، لكن حقيقة واقعك لن يكتبها إلا قدرك، وقدر الفتاة العشرينية مريم أن تتزوج بالإكراه مع الشاب منذر المعدم ماديا ومعنويا الذي لا أصل ولا أهل ولا مأوى له، وقد كان للفتاة ظلمة حياتها بعدما رسمت أحلاما وردية وسرعان ما تشوهت كل لوحاتها وتلاشت جميع أحلامها وأصبحت سرابا و أوهاما، فصارت تكابد ليل نهار في سجنها المؤبد وذنبها الوحيد أنها ابنة عائلة تسودها النزعة الفرعونية فبدل أن يكون الأب مصدر الأمان و الحنان والاطمئنان يصبح جبروتا على أم أولاده وبناته فيعطي للذكر كل الأهمية و الحرية ويسلط على الأنثى قيودا حديدية والأمر من هذا وذاك أن البيت الذي نسجت فيه أحلام الطفولة أصبح قبرها ولا غير نسيج العنكبوت كفنا لها بعد أن مات أبوها وزوجته وسكنا تحت التراب وسكنت هي القصور التي بنيت فوق سراب، ولم يكن لها أحد سوى أخ وحيد يعيش في المهجر منذ نعومة أظافره كيف لا وهو الذكر وليس الذكر كالأنثى.

كان أخا لها من أبيها فقدوم مريم إلى الحياة كان ثمنه حياة أمها التي ماتت وهي تضعها، لتجد مريم نفسها في حضن زوجة أبيها الذي كان حضن النعيم في وجود أبيها وتنبت في غيابه أشواك الجحيم، أشواك تغرزها فيها بلا شفقة ولا رحمة وكأن عليها ثأرا وهي تأخذ به إلى آخر نفس فيها، ولم تنسه حتى بعدما رزقت بابنها أحمد الذي كان بالنسبة لها الدعامة الرئيسية لدكتاتوريتها وجبروتها على مريم التي لم تسلم من شرورها حتى بعد زواجها الذي كان في شهوره الأولى سعادة بالغة لينقلب زوجها رأسا على عقب وتحول في لحظة من الزوج الحنون إلى العدو اللدود، فأصبحت المسكينة مريم تتجرع العلقم وليس لها للروح بلسم وقد أصبح زوجها منذر لا يترك للتنكيل طريقة إلا وجربها عليها فهو السجان الذي ليس عليه سلطان، وصار يضربها لأتفه الأسباب أو بلا أي سبب على مرأى أبناءها إلى درجة أن الوضع صار بالنسبة له مألوفا وكأنه يعزف معزوفة صاخبة وما صرخات الأم وأولادها إلا

أصوات تزيد موسيقاه صخابة، أما بالنسبة لمريم فقد كان ألمها يتزايد يوما بعد يوم وليس هناك بصيص للأمل بغد أفضل مع أنها كانت تعامله أنبل معاملة ولا تقصر في حقه وهو أحقر وأنذل البشر.

واستمرت حياة مريم على هذا الوضع المزري لسنوات قاربت عشر سنوات رزقت فيها بياسمين بعد محمد الابن الأكبر الذي كان يبلغ آنذاك التسع سنوات وبعد آدم الذي لم يكن يتجاوز حينها الخمس سنوات مع أن أمهم مريم لم تكن تعتبرهم أرزاقا، وقد خدجت ياسمين في أواخر فصل الربيع قبل أيام من الموعد المحدد من طرف قابلتها، فأتت إلى الحياة بشوق مغترب يحترق شوقا لحضن وطنه وأمه وهو يجري لاهثا ليلحق على موعد الطائرة في آخر لحظة، فكانت للياسمين عبق عطره و عذوبة شكله و نقاء بياضه وهي لا تدري أن فترة إزهاره الطويلة محدودة وما انتهت وجدت نفسها تصارع في مستنقع متعفن، وكأن الربيع كان يستعجل قدومها ويغريها بنفحاته ليتباهى بها بين الورود فقط، فصارت للربيع ياسمينته الوحيدة والفريدة مع أنه كان يخونها ويهجرها ولا يطل عليها إلا مرة في السنة تتمنى في كل فراق أن تشد معه الرحال ولكنه كان كالبدو الرحل يرحل بدون موعد ومع بزوغ الفجر تدرك رحيله دون خبر أو حتى وداع.

على حين غرة عاد أحمد إلى أرض الوطن بعد أن قرر الزواج و الاستقرار في بيت والديه مع أخته، ففرحت مريم كثيرا بعودته و لكنها نسيت أنه قد نسي وجودها تماما، فتزوج أحمد في عرس فاخر وجعل من الطابق العلوي جنة المأوى لأسرته بينما ظل الطابق السفلي الجحيم الأبدي لأخته الأسيرة وأبناءها، وقد كان أحمد في منأى عن كل هذا وذاك ولم يكن ينزل من عرشه إلا عابر سبيل ولا سبيل للاطمئنان عن الأحوال ولو مجاملة بسؤال وقد اعتاد الجفاء ليس لأن الغربة سرقته بل لأن القسوة توارثته، وكأن الرحمة قد استلت من قلبه لحظة خروجه من رحم أمه القاسية.

بعد مرور حولين كاملين على زواج أحمد الأخ المزعوم حان وقت ولادة زوجته أو بالأحرى ملكة عرشه وللصدفة تزامن موعد ولادتها مع ولادة مريم لابنها الرابع الذي لم يكن يحسب له أي حساب، فحملت زوجة أخيها على جناح السرعة إلى عيادة خاصة أين وضعت مولودها الأول أو بالأحرى ولي العهد الذي أسماه والده محمد الأمين ، وقد اختار له هذا الاسم وكأنه لايعلم بأن ابن أخته يحمل اسم محمد أيضا متظاهرا بأنه لا يزال متمسكا بالعادات والتقاليد التي اعتادت على إثرها الأسر تسمية أول مولود يزدان به عش الزوجية بهذا الاسم على اسم المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم فهم هكذا يهتمون بالمسميات أكثر من أي شيء آخر، فالاقتداء بسنة الرسول محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم أولى من تسمية الأبناء باسمه وحتى وصيته الأخيرة رفقا بالقوارير لم ترفق بحال مريم عند أخيها وتركها تصرخ ألما وسط أطفالها الصغار الذين أذهلتهم حالتها المأساوية وقد جاءها المخاض وهي تتمزق ألما أمام أعينهم، وهي التي كانت كلما رزقت بواحد منهم تتمنت لو أنها تستطيع ابتلاعه لحظة ولادته أو أنها مستعدة لحمله في أحشائها طول العمر رحمة بوليدها من والده، و لكن الوليد الأخير لقي رفضا شديدا من مريم إلى درجة أنها حاولت إجهاضه بشتى الطرق لكن شاء الله أن يأتي إلى الحياة وصادف ذلك اليوم أن الأب الظالم لم يكن موجودا في البيت فقد تعودت مريم منذ زواجها به على غيابه لأيام عديدة دون مبرر.

اشتد على مريم ألم المخاض ولم يبق معها سوى ياسمين ذات السنتين أما آدم و محمد فقد هرولا إلى الشارع يطلبان المساعدة وقبل أن يحضرا خطر في بال مريم جارتهم العجوز التي طالما كانت لها الصدر الحنون والقلب الدافئ فالتحفت وخرجت قاصدة كوخ العجوز وهي التي يستحيل خروجها من البيت بأمر من زوجها الذي تركها تموت، وراحت تستند على الجدران وابنتها ياسمين تتشبث بلحافها والولد الرابع يكاد يولد على قارعة الطريق وما

إن فتحت ابنة الخالة أم الخير الباب حتى فزعت من رؤية مريم والسواد يعتم وجهها الأبيض الحزين والعرق يتصبب منه مطرا غزيرا والدموع تنهمر من عينيها وديانا جارية على وجنتيها المحمرتين من ارتفاع درجة حرارتها.

أوصدت الخالة أم الخير الباب بعد أن طلبت من ابنتها احضار بعض المستلزمات وظل الباب مغلقا لأكثر من ساعة بين الآهات والصرخات، وياسمين شاخصة مقرفصة على أعتاب الباب قبل أن تنتفض فجأة بمحمد وآدم يدلفان عليها وأنفاسهما تكاد تنقطع من أثر الجري والبحث، فانضما إلى ياسمين وظل محمد يمشي في قلق ذهابا وإيابا أما آدم فقرفص إلى جانب أخته ليمسح دموعها.

هدأت صرخات أمهم بعد أن انزلقت من بين صرخاتها صرخة المولود الجديد، ليسود بعدها صمت رهيب وبمجرد أن فتحت العجوز أم الخير الغرفة حتى تدافع آدم ومحمد نحو أمهما، وقد كانت ركبهم قبل فتح الباب لا تكاد تحملهما وها هي الآن وكأنها دقت بمطرقة، لتصاب بالفشل من جديد بعد أن رأوا أمهم أشبه بنعش ليس له أمل في العيش وقد سرق منها الموت كل ألوان الحياة، فارتمى محمد على جسدها يهزها بشدة ويصرخ مناديا إياها بأعلى صوته وسيل دمعه يكاد يغرقها وأمسك آدم بيدها وأخذ يقبلها تارة ويحضنها تارة أخرى لعله يدفؤها فتدب فيها الحياة من جديد وهو يذرف عليها الدمع الحارق من حمر مدامعه علها تلسع جسدها وتوقد روحها، أما ياسمين فقد ظلت واقفة مستندة على الحائط تشد بقبضتيها الصغيرتين على عينيها الكبيرتين وشفتاها بين ارتعاش وتقوس.

لم تتحمل العجوز هول المشهد فأمسكت إناء من الماء البارد وأفرغته على أمهم دفعة واحدة فانتفضت مريم شاهقة وعيناها جاحظتان وكأن السماء أمطرت أملا من غيمة تأن ألما فتوهجت وجوههم كالبدر و تلألأت الدموع في مآقيهم كالنجوم، فتحولت الغرفة من

مجلس عزاء إلى مرج فواح يحط فيه النحل على الوردة الأم وهم ينثرون عليها القبل وكأنهم يمتصون من عليها الشقاء والعناء حتى أزهرت كحديقة غناء.

. ولادة رحاب .

كان قدوم رحاب إلى كوخ الظلام وأمين إلى قصر الأحلام من شأنه أن يضفي على الظلام بصيص الأحلام، فقد كانت السيدة كوثر زوجة أحمد نهر من الحنان لطالما سد أحمد مجراه لكنها كانت طول فترة نفاسها وعطلة أمومتها تتسلل خلسة بين أنيابه البارزة في وجه أخته لتشق على مريم التي أثارت شفقتها محاولة في كل مرة أن تداوي الشقوق التي خلفها الجفاف في الشغاف وكذا في الشرايين والعروق.

كان لمريم في قلب كوثر حب روحي، فكانت روحها تعانق روح مريم منذ زواجها بأحمد رغم الحواجز والجدران التي بناها هذا الأخير، مع العلم أنها كانت بين الحين والآخر تحاول أن توخز ضميره بإبرة شفقة أو رحمة ليصل رحمه ولكنه كان ينتفض معرضا عنها دون أن تنال منه مبتغاها، وكانت هذه النقطة نقطة الاختلاف الوحيدة بينهما، فقد كانت الملكة التي تأبى أن يجوع شعبها وكان أحمد لكل طلباتها ينفذ دون أي اعتراض باستثناء ما يخص علاقته بمريم فالنقاش في هذا الموضوع خط أحمر، لكن مع تأزم وضع مريم المعيشي وغياب زوجها صارت كوثر تجتاح منطقة أحمد عنوة ومستعدة لإطفاء النيران المتأججة في قلبه ولو لسعتها أو أحرقتها مع أنها واثقة بأنها في منأى عنها.

بعد حوالي أكثر من شهر ونصف عاد منذر إلى بيته بعد طول غياب، فتضاربت مشاعر مريم وأولادها عند رؤيته بين خوف ورعب فقد كانوا مستعدين للموت جوعا على الموت تعذيبا ومع أن منذر دخل مباشرة إلى غرفته ودون أن ينطق بكلمة تبعته مريم بصينية أكل مما كانت تبترضه من هنا وهناك ومما كانت تتصدق به كوثر عليها في كل صباح بعد ذهاب أحمد إلى شركته، فوضعت الأكل أمامه ويداها ترتعشان وقلبها يكاد أن يتوقف من شدة الخفقان ولم يلبث أن استقامت مريم في وقفتها حتى انحنى على المائدة ساند ذراعه الأيسر على ركبته

اليسرى وقد شمر على اليد اليمنى وأخذ يأكل بشراهة حتى ابتسرت رجله من وطأة ذراعه دون حتى أن يسأل عن الأحوال أو عن مصدر الأكل الذي يملأ به بطنه ولا حتى عن بطنها التي اختفت أو أنه لم يلحظ ذلك أصلا.

كان منذر في كل يوم يمر غائبا كان فيه أو حاضرا يثبت أنه أبعد منه إلى الإنسانية وليس له هدف إلا إشباع غرائزه الحيوانية، وبعد التهامه لكل ما في الصحون استلقى مباشرة ونام وكأنه عائد من حرب وقد نال منه التعب والسهر والجوع ما لم ينل منه في ساحة المعركة، وقبل خروج مريم من الغرفة وبيدها صينية الأواني الفارغة كان شخيره قد عم أرجاء الغرفة كشاة ذبحت لتوها، فخرجت مريم وأوصدت الباب خلفها ونبهت صغارها بالتزام الصمت مع أنها ولو لم تنبههم لما كانوا ليصدروا صوتا، فنظراته وحدها كانت كفيلة بأن تلجم أفواههم الصغيرة وتقيد مشاغباتهم الطفولية البريئة التي أغتيلت قبل أن تولد.

في صباح اليوم التالي وبعدما لمست مريم في منذر الراحة من مشقته حاولت استرساله بالكلام وقالت سائلة إياه بعفوية : ـ أكنت عند أهلك؟؟؟

الأهل الذي منذ ارتباطها به لا تعرف عنهم وجود أو عدم، وكانت كلما فتحت موضوعهم كشر في وجهها كأسد جائع يشتد شراسة في كل مرة، ولم تلبث أن ختمت سؤالها حتى صوب نحوها لكمة وهو يذكرها بأنه قد نهاها عن السؤال عنهم عدة مرات، ولو لم يكن فظا غليظ القلب لاختصر كل تلك المرات في الآية الكريمة :

" يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم "

لتسقط مريم بعدها كخرقة قماش بالية مخضبة بالدماء، وسط صراخ أطفالها وما إن جفلت أرضا حتى علت صرخات أطفالها، وما إن سمعت كوثر الصراخ حتى همت مسرعة إلى الأسفل، ولم تكد رجلاها أن تطآ أرضية الطابق السفلي حتى أمسكها أحمد من يدها وهو

يجرها إلى الأعلى، فاستسلمت للبكاء وهي تكاد أن تقبل رجليه متوسلة إياه أن ينقذ مريم من بين مخالب الوحش ولكن دموعها لم تشفع لها ولأخته.

****

انتهت عطلة الأمومة وقررت كوثر العودة إلى عملها ولم يكن قرارها بالقرار السهل خصوصا بعد أن ازدان عرشها بمحمد الأمين فبعدما ألبسها أحمد ثوب الملكة ووضعها على عرشه يأتي أمين فيكون على رأسها التاج المرصع باللؤلؤ والمرجان، ولم تكن تأمن عليه أي مخلوق غير أمها، ولكن تعذر ذلك لبعد المسافة فكانت مريم الأخت الأقرب ولكن أحمد بطبيعة الحال اعترض بشدة ولكن تمسك كوثر برأيها جعله يرضخ هذه المرة، وفي الصباح الباكر سلمت كوثر ابنها أمين إلى مريم مع كل ما قد يحتاجه إضافة إلى الحاجات التي اعتادت على تقديمها بين الحين والآخر، وانصرفت إلى عملها وتركت لمريم حملا ثقيلا، وما إن حملت مريم أمين بين يديها حتى علا صوت بكائه موقظا الكل من نومهم عدا منذر الذي كان يغط في نوم عميق فصوت بكاء أمين لم يكن شيئا يذكر أمام صوت شخيره، أما الأولاد فقد كانوا يستيقظون الواحد تلو الآخر بعد أن تيقنوا أنه لن يتوقف وليس هناك بد من غفوة أخرى، وكانت ياسمين آخر المستيقظين بعدما تقلبت في فراشها كالفراشة العالقة بين خيوط العنكبوت، وكلما ترنحت أكثر كلما قل أمل نجاتها وبعد صراعها الطويل أعلنت ياسمين الفشل وقامت في كسل ومن عينها يتسرب لون العسل وهي تتثائب في ثقل، فمشت بخطوات ملتوية تتبع الصوت الذي كلما اقتربت أكثر علا أكثر.

وصلت إلى غرفة الضيوف ومن هناك كان الصوت وبقدر كبر الغرفة كان صدى صوته أكبر، فوقفت على مشارفها وقد كانت تعج بالحقائب والحاجيات بقيت ياسمين تنظر إلى الرضيع الذي يبكي بين يدي أمها وإخوتها ملتفون حوله وأصواتهم مختلطة بأصوات بكائه، في بادىء الأمر ظنت أنه رحاب ولكن لا الصوت كان صوت رحاب ولا الشكل كان

شكل رحاب، وما إن وقعت نظراتها على أمين حتى رفعت كلتا يديها تفرك عينيها كأنها في حلم أو كأنها لا تصدق ما رأت في النظرة الأولى وهي تجحظهما في الثانية ثم رسمت على محياها ابتسامة عريضة مابين وجنتين محمرتين كحبات الفراولة الصغيرة وتلألأت عيناها الكبيرة ثم هرولت مسرعة كطفلة مدللة ضيعت دميتها و للتو وجدتها مع العلم أن ياسمين ترى أمين لأول مرة والكل كذلك لكن ردة فعلها كانت مختلفة تماما عن الكل.

فوقفت على أصابع قدميها تحاول الوصول إليه وهي تنادي : ـ ماما أريد تقبيله...

لم ترد أمها عليها وتجاهلتها وهي تحاول إسكاته بأي طريقة، وبعدما زادت ياسمين في إلحاحها وهي تمسك أمها من ثوبها ردت عليها بنبرة جافة مشحونة بنظرة حادة : ـ بالله عليك يا ياسمين كيف تقبلينه وهو في هذه الحالة؟؟؟

وأضافت صارخة : ـ أصمتي حالا وإلا...

فأفلتت ياسمين ثوب أمها وجثت على ركبتيها وبدأ نهر دموعها بالسيلان فهذه هي ياسمين منذ ولادتها دمعتها بين الرمش والرمش تنتظر الخدش وهي في لمعان دائم وتأهب تام، وبعد سكوت أمين عم الصمت أجواء الغرفة إلا من شهقة ياسمين المختنقة، فخفضت مريم بصرها فوجدت ياسمين تغرق في بحر من الدمع تصارع أمواج دموعها بيديها الصغيرتين تمسح دمعة فتذرف العين الثانية أخرى، فجعل منظرها مريم تبتسم وهي تهز برأسها يمينا وشمالا، ثم انحنت نحوها ودعتها لتقبيله، لم تصدق ياسمين ما سمعته ولكنها لم تتوانى لحظة واحدة وقبلته وامتزجت دموعها في لحظة جمعت بين حرارة القبلة وبين برودة الدمعة على خديها البريئتين.

لم تكتف ياسمين بهذا القدر بل طلبت من أمها أن تحمله ومريم تعلم أنها إن رفضت ماذا سيحصل، فوضعته في حجرها الصغير وإن كان لا يسع أمين الذي غطاها لكنه لم يغط الابتسامة الرائعة التي رسمت على وجهها الملائكي وما زادها روعة بريق الدموع المتلألئة في

عينيها كالنجوم، ومريم تمسك بأمين وهو في حضن ياسمين التي ما كانت لتفلته ولو أفلتته مريم الشاردة فقد سرح تفكيرها وهي تتسائل : ـ كيف لياسمين التي لم تقترب من رحاب منذ ولدت أن تكون بهذا اللطف والحب والحنان مع الأطفال، ألأن رحاب هي أختها التي أخذت مكانها في نظرها وكلما حاولت الاقتراب منها منعتها غيرتها الجامحة.

. القبلة .

كانت ياسمين تكبر رحاب وأمين بسنتين لكن تعلقها بأمين كان يكبر يوما بعد يوم فقد كانت تشارك أمها في كل شيء يخصه وكل ما تفعله للصغير أمين، و إن التفتت أمها إلى أختها رحاب التي كانت تهملها اغتنمت ياسمين الفرصة بالاقتراب منه أكثر ومداعبته دونما ملل أو كلل.

في بداية الأمر ارتاحت مريم للوضع الراهن فلطالما كانت ابنتها منطوية على نفسها على عكس أبنائها و أبناء جيلها نتيجة للوضع الأسري المتفكك والعنف الذي بأواصره متمسك.

ازداد تعلق ياسمين بأمين وأصبح حلقة اهتمامها الوحيدة التي لا تخرج منها لا طوعا ولا كرها، وهذا ما أثار قلق مريم التي أصبحت تحاول إبعادها عنه بشتى الطرق لكنها لم تفلح في ذلك وحتى عندما كانت تأتي أمه لأخذه في المساء لا تصعد به السلالم إلا وقد أنزلت من مقلتيها غزير الدموع كأنها تجهل موعد لقياه الذي كان صباح اليوم التالي أو أنها ظنت أن الصبح ببعيد، الصبح الذي أصبحت ياسمين تتفتح فيه أول ما ترسل الشمس أشعتها بلا الكسل أو الملل الذي اعتادته في الأيام الخوالي كيف لا وهي على موعد مع لقاء الغالي الذي ملأ القلب الخالي.

على عكس مريم التي كانت تعتبر أمين حملا ثقيلا خصوصا وأنه لم يتعود عليها ولولا وجود ياسمين ورحاب لظل يبكي طول النهار، وهذا ما لم تتحمله أعصابها فكانت مجبرة على امتصاص قلقها وترك ياسمين لحراسته هو وأختها رحاب، لتتفرغ هي لأوامر منذر المجحفة وقد كان وجود أمين في كنفهم يثير قلقه هو الآخر لحد بعيد وهذا ما يجبر مريم على التغافل عنه عمدا لأنها كانت تخاف خوفا شديدا أن يؤذيه لهذا كانت تغلق الباب على الثلاثة

وتشق عليهم خلسة كلما سمحت لها الفرصة، ومع هذا فمنذر كان يجعلها غنيمة يفرغ فيها جل غضبه بحجة أنها لا تقوم بواجباتها في خدمته بأكمل وجه، وهو يخرج من البيت صباحا وقد يعود مساء أو بلا عودة إلا بعد يوم أو يومين أو حتى شهر أو شهرين وهذه المدة تجعل مريم المسكينة تستبشر بفترة هدنة تحظى بها هي وأولادها وإبن أخيها ببعض الأمان وإن كان صدى صراخه عالق في جدران البيت قبل أغشية مسامعهم.

كانت مريم بمجرد خروجه من المنزل تهم بكل ما أوتيت أو ما تبقى لها من قوة إلى عزل البيت وتغيير أماكن الأثاث كأنها ذلك يخفف عنها الألم ويوقف الدم النازف من جروحها رغم التعب الذي يعتلي وجهها والعرق الذي يتصبب على جبينها والدمع الذي يتسلل من مدامعها، أما إذا رآها أحد أبنائها تسرع يديها المتشققتين إلى مسحه عن خديها وهي ترسم على محياها ابتسامة خائنة سرعان ما تخونها وتغرقها في حمم دموعها المنصهرة وكأنها بركان خامد وثار فجأة، وأحيانا أخرى كانت تجبر الابتسامة على الوفاء والصمود وكأنها توحي بأنها معجبة بالديكور الجديد وهي تبتلع الجمرات فتحرق أحشائها إلى أن يحين الليل فتفترش الوجع وتلتحف بالدمع إلى أن يرتفع أذان الفجر فتنتفض من فراشها لتتوضأ وضوءا ربما يطفئ نار الغيظ المتقدة في قلبها ثم تهم في صلاتها بين يدي ربها في خشوع بين سجود وركوع وان كانت بالكاد تحفظ سورة الفاتحة وسورة المسد والمعوذات.

هكذا كانت المأساة اليومية لمريم مأساة جردتها يوما بعد يوم من إحساس الأمومة وإن كان هذا الأخير نهر خالد لا يجف أبدا إلا أن منذر سقاه السم أوعية فنخر كيانه حتى النخاع وبما أن ياسمين ورحاب كانتا آخر العنقود فلم تلحقا بحنان الأم المعهود وإن لحقت ياسمين بقطرات من حليب أمها الذي أكسبها بعض بياض الياسمين أما الرضيعة رحاب فلم ترضع إلا العجاف و الجفاف.

فكانت مريم بالنسبة لأولادها لوحة للأم المضحية التي ضحت بحياتها من أجل حياة أبنائها لتكون لوحة شاخصة لا تحرك للاحساس شعورا، فقد أصبحت آلة مبرمجة على الأعمال المنزلية اليومية بانضباط وإن أخلفت إحدى مهامها أو أحد واجباتها كسرت قطعا قطعا لتعيد فيما بعد جمع نفسها بنفسها لتعود أكثر نشاطا وحيوية من الأول بواجبات لا محدودة وحقوق معدومة.

لم يكن حس الأمومة وحده المسلوب فقد سلب الأطفال حس الطفولة وأصبح كل واحد منهم في متاهة كبيرة لا تستوعبها عقولهم الصغيرة، أما ياسمين فكانت متاهتها الوحيدة هي أمين فقد كان عالمها الذي ينبض حبا، فتحولت من طفلة صغيرة حلمها الكبير أن تكون لها دمية صغيرة إلى أم عظيمة همها الوحيد ابنها الذي تكبره بسنتين، كأن غريزة الأمومة فيها أقوى من أن تكتم لحين أوانها، أو أن قطرات الحليب التي رضعتها من ثدي أمها كانت كفيلة باشباع غريزتها ودفن غريزة أمها، أو أن حبها لأمين هو مجرد حب طفولي سيتلاشى مع تقدم العمر، أو هو بداية قصة حب كبيرة ستكبر بكبرهما.

****

كان الأطفال ينسون ألمهم مع غياب منذر المتكرر ويعيشون اليوم كأن أبوهم لن يعود في يوم من الأيام، فكانت ياسمين تظل طوال اليوم ملازمة لأمين وبجوارها رحاب ومريم منهمكة في أشغال اليومية وإن انتهت تستلمها الهموم وأخذت تنخر جسدها السموم، أما محمد وآدم فكانا بمجرد ما يعودان من المدرسة ينضمان إلى المائدة التي كانوا يجتمعون حولها وهم يشربون القهوة التي كانت بالنسبة لهم المعنى الحقيقي للمرارة والقسوة وكانت هي الشيء الوحيد الذي لا ينفذ في غياب أبيهم فقد كان مدمنا عليها بشكل رهيب وفنجان قهوته وسيجارته أقرب اثنين إليه ويستطيع الاستغناء عن الكل ولا يستغني عن أحدهما أو كلاهما، وكانت مريم تحاول أن تجعلها خفيفة لتخفف مرارتها على طفليها وكذا يسهل

تحليتها لسد رمقهم وهم يبللون قطع الخبز الجاف فيها وهما يستحليان مرارتها، فالمر ما مروا به وكل شيء عداه حلو ولا يحتاج إلى تحلية، وتكون القهوة فطورهم و غدائهم و كذا عشائهم.

أما ياسمين فكلما حاولت مريم إقناعها بشربها أبت وإن أجبرتها على ذلك شربتها وأفرغتها في حينها وهذا ما جعل بياضها معفى من سواد القهوة وإن كانت كل الموجود في المطبخ، وما إن ينتهي أخواها من تجرع قهوتهما يهرعا إلى اللعب مع جيرانهم في ساحة الحي كأنهما فقط في تلك اللحظات المعدودة يتذكران أنهما طفلان فيوقظا في أمهما بعضا من رفات أمومتها فتتجه إلى الشرفة ترقبهما فتظلم عيناها حسرة وتشرف على ذرف عبرة أو تسرق منها الحسرة ألف عبرة، ولا تشعر إلا بياسمين تناديهامن خلفها وهي تشدها من ثوبها أو تستيقظ على صوت بكاء أحد الطفلين في بعض الأحيان، وأحيانا كثيرة كان أطفالها يشتتون شرودها وهم يهرولون دون اتجاه ويصطدم الواحد منهما في الآخر فينسى الآخر نعله ويجري حافيا إلى الداخل، فتدرك حينها أن ناقوس الخطر قد دق وقد لمحوا طيف أباهم بين أشجار الصنوبر وما هي إلا دقائق معدودة حتى تراهم مصطفين ككتيبة جيش مدربة ولو أن أباهم في بعض الأحيان يكون مجرد طيف خيل إليهم فتتعالى أصواتهم فرحا وضحكا وتدب فيهم الحياة من جديد.

أما هذه المرة فهو ليس خيال وإنما حقيقة وقبل أن يصطفوا فتح الباب وكأنه اختزل تلك المسافة بخطوة واحدة ودخل عليهم وبيده غصن زيتون أخضر، فخطى الخطوة الأولى ووقف عند محمد معلنا بداية دورته التفتيشية المعتادة وأخذ يتفحصه من شعره إلى أخمص قدميه، وقد تبدأ الدورة من الشعر وتنتهي في الشعر المملوء بالتراب أحيانا فيقطع فحصه وقد وجد السبب الكافي لإبراحه ضربا وقبل أن يصل دور ياسمين التي تقف ما بين محمد وآدم باحثة عن الحماية منهما تكون قد تبولت من خوفها ويكون ذاك السبب الوجيه لضربها

وليس لها شفيع لا دموعها ولا بولها، ليصل بعدها دور آدم الذي انفطر قلبه على أخويه وهو ينتظر مصيره الذي لا يختلف عن مصيرهما، ولكنه يظل يقف كعماد صامد ويديه للخلف كأنه يخفي شيئا لكن قوامه يرتعش بمجرد أن يخطو أبوه الخطوة الأخيرة نحوه ويزداد ارتعاشا عندما يصفعه صوته صارخا : ـ أرني يديك بسرعة...

وقبل أن تبرز يداه من تحت كم قميصه تبرز أظافره الطويلة والتراب يقرفص تحتها، لكنه سرعان ما يتطاير ومنذر يضربه بغصن الزيتون حتى كادت أنفاسه أن تتقطع من الألم ولم يذرف دمعة من عينيه وظل يرمقه بنظرات عتاب وكأنه يقول له : ـ لا تسألني عن أظفاري كيف طالت بل أجبني أين كنت طول فترة نموها...

لكن عزاء آدم هذه المرة أنه نجا من الفلقة التي حرمته من المشي لأيام في الجولة التفتيشية السابقة وهو يتذكر النظرات التي توسل إليه بها وهو كالحمل الوديع الذي وقع عليه اختيار الراعي لذبحه وليس له في ذلك شفيع، حينما خفض أباه نظره مستكملا تفتيشه حتى لمح أصابع رجليه تتحركان وهما حافيتان بعدما نسي نعله عندما هرول إلى الداخل لأن أباه يمنعه من اللعب مع أبناء الحي كأنه يخفيهما عن كل البشر ليس خوفا عليهم وإنما خجلا بهم، وبدون أن يلفظ منذر كلمة واحدة تعالت صرخات آدم وهو يقول باكيا : ـ والله العظيم لن أكررها... والله العظيم لن أكررها...

ومنذر يضربه بضراوة، فلم تتحمل مريم الألم فهرعت تحاول إنقاذ رجلي صغيرها المتورمة من بين يدي أبيه القاسية، فنجحت في ذلك وأفلت آدم والتفت إليها يكمل ما بدأ به وهو يجلدها بوحشية، فكانت حياتها مع منذر روتين يخنق حبل الوتين حينا ويقطعه حينا آخر محاولا كسر المعتاد ومزج السواد بالأحمر الدموي.

أما كوثر فقد كانت تدفعها في كل مرة إلى رفع شكوى على زوجها وهي تتوعدها بأنها مجرد شهادة طبية واحدة منها كفيلة بأن تجعله يتعفن في السجن ولكن خوف مريم الشديد منه

كان يقف حائلا بينه وبين السجن فتكتفي كوثر بإخاطة جروحها وتضميدها وكثيرا ما كانت تجد مريم قد دكت في جروحها بليغة كانت أو سطحية القهوة المسحوقة لكن جروح روحها لا تخاط أبدا وتبقى تنزف حتى خروج روحها.

****

مرت أربع سنوات كما مرت الإثنى عشر سنة الخالية وكانت بداية الدراسة بالنسبة لياسمين ونهايتها بالنسبة لمحمد وكلاهما كان على مريم صعبا للغاية، فياسمين كانت معلقة بأمين تعلقا شديدا كتعلق زهر الياسمين بغصنه، وتعلق هو الآخر بها إلى درجة أن اسمها كان أول اسم ينطقه ولو كان بشكل خاطئ فدربته على النطق الأصح حتى صار ينطقه بشكل سلس مع تغيير السين ثاء "ياثمين" فكانت راضية به أيما رضا، وكأنها استغنت عن كل ما يربطها بعالم الياسمين مقابل أن تكون شيئا ثمينا في قلب أمين الذي شهدت تلعثماته وتعثراته وسقطاته التي أشك في أنه قد لامس الأرض في أي منها، وكأنها كانت تتنبأ سقوطه فتفرش له الأرض ياسمينا إلى أن أصبح رفيق خطواتها، رفقة استحال على ياسمين أن تودعها لأي سبب من الأسباب لهذا عملت مريم على تهيئتها لهذا اليوم لكن جميع محاولاتها باءت بالفشل وكلما فاتحتها بالموضوع تقوست شفتاها واغرورقت عيناها وتشرع في بكاء الفراق قبل موعده.

في صباح اليوم الموعود لم تنهض ياسمين من مكانها المعتاد وظلت تختبئ تحت فراشها كفراشة أتعب جناحاها مجموعة من الأطفال وهم يحاولون اصطيادها، فاختبأت بين الورود المتفتحة تنتظر انصرافهم لكنهم ظلوا يترصدونها، وهي تظن أن حيلتها ستمر مرور الكرام وهي ترفع الغطاء قليلا بين الفينة والفينة لتتفقد الوضع بطرف عينها، وما فتئت أن شعرت بزوال الخطر حتى أتت أمها توقظها باستعجال وهي ترفع الغطاء عنها لتفاجأ بواد من دموعها، فتجاهلتها وغسلت وجهها الذي لم يكن بحاجة إلى أن يغسل بالماء فقد غسلته

بالدمع، وشرعت في تبديل ملابسها وهي تخبرها بضرورة الدراسة وأنها مجرد ساعات قليلة وستعود إلى البيت، فسرقت ياسمين الخط منها قائلة بصوت مبلول : ـ وأميـــــــــن؟؟؟

فصرخت بها مريم وقد بدأت تفقد صبرها وربما صوابها أيضا : ـ ومابه أمين؟؟؟

ثم هدأت من روعها وأردفت : ـ عندما تعودين سيكون في انتظارك وعوضي ساعات غيابك، كما أن أمين سيكبر أيضا وسيلتحق بمقاعد الدراسة وماذا ستفعلين حينها؟؟؟

فلم ترد ياسمين إلا بدموعها المتكلمة وهي مستسلمة، وبينما كانت تهم بالخروج رفقة أخوها آدم التقت بالخالة كوثر نازلة وهي تمسك بأمين خوفا عليه أن يسقط على السلالم كالمعتاد، فتراجعت ياسمين وهمت إليه تعانقه بحرارة ودخلت موجة بكاء عنيفة، وهذا ما استدعى آدم إلى استعمال العنف معها ساحبا إياها من يدها وهو يهرول بها إلى المدرسة التي كانت تبعد عن البيت مسافة قرابة الربع ساعة أو أكثر مشيا على الأقدام وهذا ما جعلهم يتأخرون من اليوم الأول.

وبعد أن أخرجت مريم ابنتها ياسمين بصعوبة صعوبة خروج العروس من بيت أبيها، اتجهت نحو غرفة محمد الذي عزم على إنهاء مساره الدراسي الذي كان يوحي بنجاحه مستقبلا من خلال نتائجه الممتازة التي تخوله إلى ارتياد أهم وأكبر الجامعات، إلا أن محمد كان حازما منذ صغره وقد ورث هذا الطبع عن والده ولأنه كان من الذين يحتشون النصيحة فإن كل محاولاتها ومحاوراتها معه فشلت فشلا ذريعا قبل بدء النقاش فالأمر كان محسوما بالنسبة له وسيدخل عالم الشغل لتخفيف الحمل عليها.

أما ياسمين فأمرها لم يحسم بعد فبعدما وصلت إلى المدرسة أدخلها آدم إلى قسمها ولم يكد ينصرف إلى قسمه حتى انفجرت باكية كلغم فجر بعدها مجموعة من الألغام كانت تنتظر إشارة لتنفجر وكان كل الأطفال الباكون يبكون فراق أمهاتهم أما هي فكان بكاءها أشبه بفراق الأم لابنها.

مر الأسبوع الأول من الدراسة وياسمين على تلك الحالة ظنا منها أن تمسكها بموقفها سيغير الوضع ولكن أمين ظل أكبر عقبة أمامها لم تستطع خطواتها الصغيرة تعديها أو أنها لا تريد أن تتعداها، أما العقبة الثانية فياسمين لم تتعود الخروج من المنزل إلا أن وجود أخوها ساعدها على تخطي هاته العقبة، فقد كانت تخاف السواد الذي يتبعها كأنها لم تعتد في حياتها إلا على البياض بياض روحها وقلبها الذي إن غاب أخوها في إحدى الحصص الاستدراكية تسارعت نبضات قلبها فزادت من سرعتها لتلتفت فتجده ملتصقا بها ولو كانت نبضات قلبها خطوات لأوصلتها إلى منزلها قبل أن تحط قدمها الأيمن الذي كان يرتفع قبل أن يطأ الأيسر الأرض، و ظلها إن تحدث قال لها : ـ كيف لك يا ياسمين أن تخافي مني أتظنين أنني شبح وواقعك أب أسود القلب وليس بشبح بل واقع أسود.

أما العقبة الثالثة فهي جبل وكان محمد أول من رفع راية الاستسلام أمامه أما البقية فعالقون في السفح و الحجارة تتساقط عليهم من القمة وترجم عزيمتهم وهم يتوسلون الصفح، عقبة وإن صنفت بعقول الكبار مادية بحت فهي بعقول صغار مريم معنوية محض، ولم أقل صغار مريم ومنذر لأن صغار مريم أكبر نعمة على منذر أنكر قيمتها وهو أصغر من أن يتحمل مسؤوليتة لا معنويا ولا ماديا على الأقل في حماه و تحت سقف مبناه فكيف له أن تتعدى حمايته باب سكناه ضاربا مسؤوليته عرض الحائط متجاهلا حديث الرسول الذي كان وكأنه يحدثه : " إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته " وفي حديث آخر : " كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقيت ".

فكان الدخول المدرسي بالنسبة لأطفال مريم كدخول بحر هائج بالأمواج المتضاربة فلم يكونوا ككل أطفال حيهم أو مدرستهم الذين يحتفلون بالدخول المدرسي ويلبسون حللا جديدة ومآزر ملونة بالوردي والأزرق ومحافظ زينت بالرسومات الكرتونية التي تداعب مستقبلهم الزاهر وإن انتشر التلاميذ في الطرقات كالفراشات لن تجد لفراشات

مريم أثر وكأن أجنحتهم قد قصت ولو بحثت عنهم لوجدتهم وراء فتحة الباب ينظرون إلى أبناء حيهم و ينتظرون اختفائهم عن الأنظار ليخرجوا بعدهم، لكن إن اختبؤوا في البيت لا يمكنهم الاختباء في المدرسة لتنكشف كل أوراقهم لما تهم المعلمة أو المعلم بالمناداة لتعلن هزيمتهم بعد السؤال عن مهنة الآباء، وللعلم فقط هذا مجرد فحص روتيني تعطى به إشارة بدء السنة الدراسية ليكون للمدرسة و المدرسة والمدرس على حد سواء بنية تحية ودعامة قوية فتكون لمئزر التلميذ نجوما ترصع بدلته الرسمية بعيدا عن الضوابط المهنية خلافا لما تدعو له الإنسانية وتبقى ظاهرة تمس الأغلبية ولا يسلم منها إلا ضمير الأقلية، ليكون هذا أول اختبار يجتازه التلاميذ ومن ينجح تكون المقاعد الأولى من نصيبه ومن يخفق تكون له المقاعد الخلفية وليس المقعد الذي يشغله الصغير هو المشكل وإنما المشكل الكبير هو ضميرهم المقعد.

كانت هذه نقطة ضعف بالنسبة لأولاد مريم تضعف انطلاقاتهم في كل مرة أو بالأحرى تكبحها فقد كانوا يظلون بلا أدوات بلا محافظ أسابيع بعد بداية الدراسة إلى أن يتصدق عليهم المحسنون بعدما سمعوا أقسى العبارات الجارحة من مدرسيهم وصولا إلى مديرهم مرورا بزملائهم.

لكن ياسمين لم تتحمل تذمر معلمها وهي التي لم توجه نحوها نظرة جافة إلا وبللتها بمرطبات دموعها واتخذت أدواتها المدرسية حجة لعزوفها عن المدرسة، ولكن رغم كل هذا إلا أن فرحتها لم تكن تقل عن فرحة أخيها آدم وحتى فرحة أخيها محمد قبلا بالمحافظ والأدوات التي كانت لا توصف أبدا، وظلت غرفتهم طول اليوم مزينة بالألوان والرسومات البهية والرائحة الزكية التي كانت كفيلة بأن تحبب الدراسة إلى قلب ياسمين خصوصا وأنها كانت تعشق الرسم والألوان إلى حد يفوق الحسبان ويفك معصميها المكبلة خلف القضبان.

لم تستطع المحفظة المرمية جانبا أن تغري محمد فكانت كعروس تركها زوجها أو ترملت يوم زفافها، على عكس ياسمين التي تعودت على وسطها الجديد، وجعلت بينها وبين وسطها القديم الذي لا يبلى في قلبها ولو بعد ألف فصل همزة وصل، وما ساعدها على التأقلم في جو مدرستها هو ذكاؤها فرغم تأخرها في مواكبة زملائها إلا أنها استطاعت إثبات تفوقها بجدارة وبشهادة معلمها، وقد كانت حصة الرسم والأشغال اليدوية الأقرب إلى قلبها بحكم موهبتها الفطرية فكانت ترسم الفرح وتلونه بأناملها الذهبية مما يجعلها محل إشادة من معلمها المنبهر بلوحاتها التي تفوق عمرها بكثير، فتتورد وجنتاها خجلا لكن قلبها ينبض فرحا وفخرا ولو أن مصير رسوماتها كان محسوما ككل مرة بين أصابع أمين أو رحاب، فإن كان الفاعل أمين فليس لها إلا أن تبتلع دمعها الحزين، أما إن كان من فعل رحاب فأنها لا تكتفي بتبليل ما نجا من بين يدي أختها بل تذهب إلى أمها شاكية باكية بدمع ليس له قرين، فلا تلتفت لها مريم ولا ترد عليها لأن روحها تعبت من المشاكل إلى درجة لو أنها ردت لافتعلت مشاكل أكبر من المشكل الذي تشكيه الصغيرة.

كانت ياسمين تتفنن في كل مرة ولكن هذه المرة ليس بالقلم وإنما بالعجينة الملونة فصنعت بها دمية رائعة مزركشة بالألوان وبعدما تباهت بها أمام زميلتها ونالت إعجاب معلمها حملتها مسرعة وكأنها تخشى ذوبانها ولم تنتظر حتى أخوها آدم وهرولت إلى رحاب وأمين الذي انقض عليها وعجنها بين أصابع يديه ومن ثم التهمها ظنا منه أنها حلويات فلم تستطع ياسمين حبس دموعها التي فاضت حتى حجبت عن عيونها رؤية أمين الذي كانت عيناه الزرقاوان قد جاحظتا في احمرار شديد وفمه مملوء بألوان قوس قزح وسط تسايل اللعاب، وبعدما أوصدت العجينة حباله الصوتية ومجاريه التنفسية استطاع بصعوبة أن يسعل سعلة متحشرجة لسعت ياسمين لسعة جعلتها تقفز منتفضة نحوه لكنها لم تر فيه شيئا من أمين وحتى عندما نادته صارخة لم يرد عليها، فهرولت نحو أمها التي فزعت هي

الأخرى من هول منظره وقد اصطبغ جلده باللون الأزرق المائل إلى البنفسجي وسط جحوظ عينيه وزبد كثيف يخرج من فمه، فهمت نحوه تحاول إسعافه حتى دخلت معه في صراع والفشل يصم آذانها معلنا انتصاره بأشد صراخ، لكنها لم تستسلم إلى أن أخرجت العجينة من حلقه ليخر بعدها جثة هامدة بعدما كان يترنح وسط زبده كما يترنح الغريق وسط زبد البحر، فشخصت أبصارهن وسط خشوع ودموع، لكن مريم تماسكت واستجمعت قواها وهرعت تحضر الماء لعله يضخ إلى رئتيه الهواء، وما إن رشته برشة حتى خفقت عيناه برعشة، وما إن سقته برشفة حتى نبض قلبه برجفة، فدبت الحياة فيه من جديد وتلونت ملامحه وكتب له العمر المديد، وما إن اطمأنت مريم عن حاله حتى التفتت إلى ياسمين التي كانت لا تزال شاخصة إلا من دموعها، فحدجتها بنظرات مستعرة بنار وشرار وحتى دموعها لم تكن بالقدر الكافي لتطفئ نارها وتخمد شرارها بل زادتها اتقادا، فانهالت عليها ضربا بنعلها حتى خارت قواها أما قوى ياسمين فقد كانت خائرة قبل أن تلمسها أمها بضربة ولم تتركها إلا بعد أن استحالت إلى ورقة صفراء جرفتها أنهار دموعها.

انسحبت مريم من الغرفة لأنها لو ظلت بها لفجرتها غيظا، ومرت ساعات على الحادثة إلا أن ياسمين بقيت مصدومة وأصواتها مكتومة وحركتها مشلولة وحتى محاولات أمين ورحاب وحتى آدم الحثيثة بمداعبتها ومحاولة استنطاقها باءت بالفشل، حتى أنها تغيبت عن المدرسة في الفترة المسائية، وليومين على التوالي، وظلت بتلك الحالة إلى أن سألت عنها كوثر التي افتقدت وجودها، فأخبرتها مريم بالحادث الذي كاد أن يودي بحياة أمين لكنه قضى على علامات الحياة في ياسمين، فاندهشت كوثر لما أصاب أمين وحزنت لوضع ياسمين، فدخلت عليها لتجدها لا تمد لياسمين التي تعرفها بصلة فحاولت أن تحدثها بشتى الطرق لكنها لم تجب ولم تتجاوب معها أبدا ونظراتها ممتلئة حزنا وربما خوفا أيضا، واصلت الخالة كوثر لبضع دقائق إضافية ولما استيأست وهمت بالمغادرة رأت دموعا تتسلل وتضيء

المنارة كأنها سفينة ظنت الكل أنها غرقت إلى حين رؤية أضوائها لكن ياسمين كانت تشكي الظلام الذي بداخلها، فاستبشرت كوثر خيرا والتفتت إلى مريم الصامتة كصخرة كبيرة تئن في صمت وهي تتفتت إلى حصى صغيرة.

داومت كوثر على زيارة ياسمين كل مساء عندما تأتي لاصطحاب أمين إلا أن حالتها كانت تزداد تدهورا وسوءا يوما بعد يوم، فبعدما كانت تبكي في صمت صارت في الأيام الأخيرة تدخل في دوامة بكاء بين شهقات تكاد الواحدة منها تخطف الزفرة وتخنق عنها الهواء، وأصبحت حالتها ميؤوس منها تقشعر لبكاءها الأبدان أما مريم فكانت صرخاتها ونواحها وشهقاتها كخنجر يدس في قلبها ولا يتركه حتى ينزف.

تنحت كوثر جانبا وانفردت بمريم وأخذت تشرح لها الوضع وخطورته على الصغيرة واقترحت عليها أن تعرضها على طبيب نفسي وإلا سيزداد وضعها سوءا، فانهارت مريم باكية صارخة أنها السبب ولن تسامح نفسها ولو سامحتها ياسمين ورب ياسمين، وعند عودة منذر إلى البيت أنبأته بحالة ياسمين مع أنه لم يلحظ غيابها ولم يسأل عن حالها، ولكن ما فاجأ مريم ليس عدم سؤاله بل تفاجأت بجوابه الذي اكتفى بقوله ساخرا : ـ اتركيها تموت وإن ماتت فهناك أختها...

صعقت مريم بقوله كما صعقت بفعلها، فانعقد لسانها ولم تعقب بكلمة وهي تكلم نفسها : ـ إن لم تكن أبا لياسمين فكيف ستكون أبا لأختها؟؟؟

لم تنم مريم ليلتها وظلت تنتظر الصبح بفارغ الصبر لملاقاة كوثر التي أتت في الصباح الباكر بأمين كالعادة وعندما سألتها قائلة : ـ هل فكرت في الموضوع؟؟؟

طأطأت رأسها وغربان الحزن تحوم حوله فكررت كوثر سؤالها وأضافت : ـ أخبريني فأنا أختك... فأثرت هذه الكلمة في قلب مريم وبصوت خافت أعلمتها بموقف منذر الذي لم تعقب عليه كوثر واكتفت بالصمت لبرهة كأنها تفكر في حل ثم قالت : ـ كما قلت لك للتو

أنا أختك وياسمين بمكانة إبني أمين، فقط أعطني الضوء الأخضر وسأتكفل بحالها حتى ترجع إلى لونها الأبيض أو يرجع هو لياسمين...

ففرحت مريم وقالت في عدم تصديق: ـ أحقا... أتقصدين ما تقولين...

فردت كوثر مؤكدة : ـ بالتأكيد أختي، وسآخذها ابتداء من اليوم إن أردت...

فعانقتها وأغدقتها في عبارات الشكر والامتنان والعرفان.

****

وهكذا كانت وجهة كوثر إلى عيادة الطبيب النفسي الذي كان زميلا لها في أيام الدراسة وقد انقطعت صلتها به ولم تتذكره إلا وهي تبحث في ذاكرتها عن أسماء بعض الأطباء ممن تعرفهم محاولة تذكرهم، على عكس زميلها الطبيب الذي يبدو أنه لم ينسها يوما وهو ينتظر زيارتها في كل يوم وكأنه على موعد معها لكنه لم يشعر بأن هذا اليوم إلى هذا الحد قريب، فتفاجأ برؤيتها لكنه أجبر نفسه على معاملتها كأي مريضة أخرى وهي تحكي له وضع ياسمين التي كان ينظر إليها بين الفينة والفينة وكأنه في حالة عدم تصديق أو عدم تطابق الوجه الملائكي مع الوضع الجنائزي الذي تعيشه، وبعد انتهاء كوثر والإجابة عن كافة تساؤلاته طلب منها مقابلة أهلها، ففتح على كوثر بابا لم تكن تريد فتحه، فأخبرته أن أمها ممنوع عليها الخروج من البيت تحت أي ظرف من الظروف، وسردت له باختصار الوضع العائلي لأسرة ياسمين إن أمكننا أن نصفه بالعائلي.

هنا استخلص الطبيب أن حالة مريضته ليست وليدة اللحظة وإنما هي نتيجة ولادتها في أسرة مشاعرها بكماء وأحاسيسها صماء، وشعر بصعوبة الحالة فاقترح على كوثر أن تساعده بإحضار إبنها أمين كحل اضطراري ، فوافقت كوثر بدون تردد وختم الطبيب الجلسة الأولى وهو ينصح كوثر بإبعاد ياسمين عن بيتهم على الأقل في فترة علاجها لأن أي شيء

من شأنه أن يوقظ الألم المتكور داخلها فتحدث لها نوبة أشد من سابقتها، فلم يكن لكوثر رد إلا أن طأطأت رأسها و أمسكت بيد مريضتها وأرجعتها إلى البيت.

حضر أمين في الجلسة الثانية وكان الطبيب قد درس حالة ياسمين جيدا وحدد نقطة ضعفها وقوتها والتي كانت نقطة مشتركة في الحالتين وهي أمين، ومع بداية الحوار سألها عن اسم أمين فلم ترد واكتفت برمق أمين بنظرات وكأنها للتو تتعرف عليه، فكرر الطبيب سؤالها مرة واثنان وثلاثة وما إن توقف وقد استيأس من جوابها ومن نطقها، فالتفت إلى كوثر وقبل أن يصف لها حالتها حتى سمع لعثمة من ياسمين وهي تقول أول حرف من اسم أمين في جهد وعناء، فالتفت إليها ومن دهشته احتضنها بقوة فبكت ياسمين في حضنه ربما فرحة بنطقها أو قرحة من نار حرمان حضن أبيها، فسحبها من حضنه بلطف ومسح دموعها بحنان حتى شعرت منه الأمان، وراح يحاول استنطاقها باقي الاسم وهو وأمين يرددانه لكن ياسمين لم تسطع لفظ إلا الحرف الأول وبصعوبة، فاكتفى الدكتور بهذه النتيجة كنتيجة أولية وأعلن انتهاء الجلسة مع بعض التوصيات المتمركزة حول ضرورة مراعاة نفسيتها وأعطاها موعد بعد ثلاثة أيام.

ورغم أن ياسمين لم تنطق بعد إلا أن حالتها النفسية كانت في تحسن ملحوظ وبدأت تمارس حياتها شبه عادية مع بعض الانطواء أكثر مما كانت عليه سابقا إلا أن رجوع الابتسامة إلى وجهها كان أكبر انجاز في الوقت الراهن، ولما حان موعد الطبيب ارتأى أن يجعلها جلسة خاصة وأن يحاول استنطاقها بمحاورتها بوجود أمين طبعا ولو أنها لم تتكلم إلا أن الجلسة كانت بالياسمين عطرة.

فاستبشر الدكتور أمجد خيرا وشرح لكوثر وضعها وهو يؤكد لها ضرورة عدم تعرضها لأي صدمة لأن نتائجها ستكون وخيمة، كما طلب منها أن تزاول دراستها لعل جو المدرسة يساعد في نطقها.

في مساء ذلك اليوم ذهبت ياسمين إلى مدرستها مع أخيها وكان جدول التوقيت ينص على برمجة حصة الأشغال في الساعة الأخيرة، فطلب المعلم من طلابه إخراج أدوات الأشغال اليدوية بما فيها العجينة الاصطناعية ولو لم تكن مدرجة في برنامج اليوم لأدرجها ترحيبا بياسمين التي تعشقها، لكنها بمجرد أن لمحت العجينة حتى تعالت صرخاتها وهي تمسك بعينيها بكلتا يديها وكأنها جمعت من على طاولات زملائها وتشكلت أمامها شبحا ملونا، فدهش المعلم وفزع زملاؤها لحالها، وحاول معلمها أن يفهم ما خطبها لكنها لم تتجاوب معه على الإطلاق وظل صراخها يعم القسم فاضطر إلى حملها خارجا، فهدأت نوعا ما وظلت تبكي بلا صوت، فحاول المعلم أن يفهم ما بها من جديد لكنه لم يستطع كونها لم تنطق بأي كلمة مما استدعى تدخل إدارة المدرسة واستدعاء أخيها وكذا تسريحهما قبل الموعد المحدد مع تنبيهه بضرورة إبقائها في البيت حتى تتحسن حالتها.

وحال عودة كوثر انتبهت من وجه مريم الذي لا يفسر أن هناك أمرا يدعو للقلق فسألتها : ـ ما الخطب؟؟؟

فطأطأت مريم رأسها في حزن يختلجه الخجل وتمتمت هامسة : ـ ياسمين....

فقالت كوثر في ذعر: ـ ما بها ؟؟؟

فسردت عليها الذي حصل باختصار حسب ما أخبرها به آدم.

استيقظت كوثر باكرا وبعد خروج زوجها إلى عمله خرجت بعده مباشرة ليس للعمل إنما لاصطحاب ياسمين وما أجمله من صباح إذا ما الياسمين بعبيره لاح وما أتعسه من صباح إذا ما هجره بياضه بفلاح.

جلس الاثنتان في قاعة الانتظار ولم يكن الدكتور أمجد قد حضر بعد ولكن العيادة كانت مفتوحة والممرضة في استقبال المرضى، والجميلة الصغيرة ياسمين محط أنظارها وأنظار المرضى الذين حضروا في العشر دقائق الأخيرة تلك هي ربع ساعة كاملة حتى دخل

الدكتور أمجد بأناقته المعهودة فسرق الأنظار قبل أن يلقي السلام، لتلحقه الممرضة بقائمة أسماء المرضى حسب ترتيب حضورهم أولا بأول، وكان اسم ياسمين الأول في القائمة مما أثار دهشته فلم يكمل باقي الأسماء وطلب من الممرضة إدخال أول مريض على الفور.

طرقت كوثر الباب ودخلت وهي تمسك بيد ياسمين، ألقت السلام على الدكتور أمجد، فرد عليها وأردف متسائلا ومازحا : ـ خيرا إن شاء الله ما سر هذه الزيارة أم أن الأميرة ياسمين اشتاقت إلى طبيبها؟؟؟

فابتسمت كوثر ابتسامة رقيقة ولم تكد تكتمل حتى محتها ملامح ياسمين، فأخبرته بكل ما حدث فجلس على الكرسي المقابل لها بهدوء لكن داخله كان أشبه بانهيار وكأن كل ما بناه قد انهار فجأة، وشرع باستجوابها بلطف وحنان فلم ترد بكلمة ولا حرف ولم تحرك ساكنا، فتحرك هو وهم بمعاينتها فلم يجد ما يدعو للقلق في كل أعضائها إلا أن وضعها النفسي كان كل ما يثير القلق.

بعد ساعة تقريبا من الجلسة أعلن الدكتور استسلامه وهو يعلن نهاية الجلسة ولكن نهاية الجلسة لا يعني نهاية المعالجة، فسألته كوثر أن يطمئنها عن الوضع، فصارحها قائلا : ـ أعدك بأنني سأبذل قصارى جهدي لشفائها لكنني أصارحك أن الأمل بشفائها كليا قليل إلا إن الأمل بالله يبقى كبير.

تعجبت كوثر وفزعت من وضع ياسمين قائلة : ـ ألهذه الدرجة وضعها صعب، حقيقة لم أكن أظنه بهذه الصعوبة...

فرد الدكتور أمجد متأسفا : ـ للأسف هذا هو وضعها وللأسف الشديد فقد تخطى الصعوبة وبلغ الخطورة...

فتسللت شذرات الدمع من عيناها وقالت بنبرة ترتجف من الخوف : ـ ألن تتكلم من جديد؟؟؟ أرجوك لا تخفي عني شيئا...

فرد بهدوء : ـ لا أخفي عنك شيئا وإني لا أعلم الغيب وسأفعل المستحيل لشفائها وكل شيء بيد الله تعالى، فخرجت كوثر فاقدة الأمل وفي يدها ياسمين فاقدة كل شيء يربطها بالياسمين إلا إسمها وما بقي عالقا في أنفاسها من عطره.

أما الدكتور أمجد دخل منذ لحظة خروجها في سلسة أبحاث ومواصلات بين زملائه في المهنة داخل البلد وخارجه وكان يظل إلى ساعات متأخرة من الليل فموضوع ياسمين كان يثير فيه القلق حد الأرق.

وكأن مشكل ياسمين مشكل هين لينزل على عاتق المسكينة مريم مشكل محمد الذي عزم على إنهاء مشواره الدراسي وبداية مشواره المهني وكله بتلاء عله يرفع البلاء فيخف الابتلاء، لكن تطلعاته كانت خاطئة ففي بادئ الأمر لم يجد عملا وبعد محاولات كثيرة قبل صاحب سوق شعبي أن يشغله حمالا عنده رغم أن جسده الهزيل كان يحمل أحمالا ثقيلة من الأحزان، وقد مر عليه أسبوع كامل وهو في هذا العمل وقد نال منه التعب وليس له أب عليه يعتب، أما أمه فقد كانت تستاء لرؤيته كل مساء وليس بيدها إلا البكاء خفية كي لا يراها و هي تهم خلفه بحوض الماء الدافئ، فيضع فيه رجلاه المتورمتان، وتدهن يديه المتفخختان بزيت الزيتون، ونظراتهما لا تلتقيان من الحزن ومن ثمة تنتقل إلى تدليك ظهره وهو لا يزال واضعا رجليه في الماء وهناك تنهمر دموعها كمطر من السماء.

وهذا هو ألم محمد أكبرهم سنا ولكل من الألم نصيب، أما نصيب آدم لم يكن يقل عن نصيب أخيه مع أنه يصغره سنا، لكن الألم لا يفرق بين الصغير والكبير، ليجد آدم نفسه وحيدا بعد أن تركه محمد فصار يذهب بمفرده كل مساء بعدما يرمي محفظته ويحمل أكياسا فارغة تستعمل عادة لتعبئة الدقيق ليملئها بما يعجن منه وهو يصول ويجول بين عمارات المدينة القريبة والبعيدة يدق أبوابهم طلبا للخبز الجاف الذي إن لم يعطوه له كان مصيره حاويات القمامة عند الكثيرين، وقد كان البعض يعطونه سؤله إن وجد ولا يفتح له الباب

البعض ويطرده البعض الآخر شر طردة وقد يضربوه حتى، لكن آدم ورغم استصعاب الأمر عليه وخصوصا وأنه لا سند له غير كيسه التي كثيرا ما كان يخونها ويتركها ويلوذ بالفرار هربا من الوحوش البشرية ولما يعود إليها يجدها له وفيه ولم ينقص منها رغيف خبز واحد وقد صانت تعبه، فيحملها على ظهره ولا يعود بها إلا وقد امتلأت عن آخرها ليخونها مرة أخرى ويبيعها في آخر الأسبوع بأبخص الأثمان إلى أصحاب المواشي وفرحته لا تقدر بثمن، فيضع ما جنى في يد أمه وهو ينظر إلى عينها وينتظر أن ترسم على شفتاها ابتسامة فلا ترسم.

مع أن الذي كان يجنيه من جمع الخبز الجاف لم يكن يكفي إلا لشراء الدقيق لأكل خبز ساخن ولو كان حاف، وأحيانا كثيرة لم يكن يكفي فتضطر مريم لطهو الخبز الجاف على بخار الماء وأكله بدلا من المواشي التي آثر أصحابها أن ترعى من حشاش الأرض الأخضر أما الخبز الجاف فهناك من هو بحاجة إليه كغذاء أكثر من بهائمهم.

أما في الأيام الأخيرة فقد قرر آدم تكثيف دوراته وصار يجمع الخبز في جولتين إلى ثلاث جولات أحيانا وقد يظل إلى الليل أحيانا كثيرة، وفي آخر الأسبوع عاد فرحا كعادته لكن فرحته كانت فرحتان وأعطى المال لأمه تلك الفرحة الأولى، وهرع ينادي على أخته ياسمين معلنا فرحته الثانية، فلحقته مريم بخطى متثاقلة وقد لمحت في آدم تجاهله لردة فعلها كعادته وصب كل انشغاله بردة فعل ياسمين وهو يقول لها بحفاوة : ـ ياسمين أنظري ماذا اشتريت لك... ثم أردف : ـ دمية رائعة وجميلة...

وهو يسرع بفتحها علها تشهق برؤيتها وتتكلم فابتسمت فقط ومريم التي تقف على الباب تأملت وبكت، أما آدم فسعد بابتسامة ياسمين وكانت ابتسامتها كفيلة بأن تدخل إلى قلبه فرحة عارمة، فإن لم يستطع جعل ياسمين تتكلم فقد استطاع على الأقل جعلها تبتسم رغم

أنها كانت تتألم واستطاع تكذيب المقوله التي يرجح أن قائلها فاقد للعقل " فاقد الشيء لا يعطيه" وكأنه يرد عليه وهو يقول : ـ بل يعطي ما هو أكبر مما فقد لأنه أعلم بألم الفقد...

بعد ثلاثة أيام وصل موعد الدكتور وفي الصباح الباكر خرج الثلاثة للموعد وما إن دخلوا ورفع أمجد بصره يرد على كوثر السلام حتى باغتته كوثر بسؤالها والحيرة بادية على وجهها : ـ ما بك دكتور أمجد لماذا الهالات السوداء حول عينيك؟؟؟ وأردفت : ـ أأنت مريض؟؟؟

فرد عليها مطمئنا : ـ لا لست مريضا الحمد لله، لا تقلقي ليس هناك ما يدعو للقلق...

والتفت إلى الصغيرة ياسمين مبتسما وكأنه يخبرها بأنها سبب قلقه وأرقه.

فأضافت كوثر سؤالا آخرا كأنها لم تطمأن بعد : ـ وهل أسرتك بخير؟؟؟

فرد عليها بنيرة حزينة : ـ أبي توفي رحمه الله وأمي بخير الحمد لله...

فقالت كوثر متحسرة : ـ تغمده الله بواسع رحمته وأسكنه فسيح جنانه وأطال الله في عمر والدتك...

سكتت لبرهة ثم انتابها الفضول فاسترسلت قائلة : ـ لم أقصد عائلتك الكبيرة بل قصدت أسرتك الصغيرة.

فرد أمجد باقتضاب : ـ ليس لدي أسرة سيدتي.

وكان جوابه واضحا أنه لم يتزوج لكن من تعجبها سألته مستفسرة : ـ ألم تتزوج بعد؟؟؟

فأجابها بنبرة حادة : ـ لا... ولا أفكر في الزواج أبدا.

فأسكتها جوابه ولم تضف كلمة واحدة والتفت إلى ياسمين.

وبعد نصف ساعة تقريبا انتهت الجلسة بنعمة ورحمة من المولى وقد بدأ الأمل يعطي إشاراته الأولى، وقد تجاوبت ياسمين مع الدكتور أمجد إلى حد بعيد وبوجود أمين بالتأكيد

مع أنها لم تنطق بكلمة لكنها كانت تحرك شفتيها بكلمات صامتة، وهذه النتيجة كانت مرضية بالنسبة للدكتور أمجد وستكون له حافزا لمواصلة البحث.

فالتفت إلى كوثر التي كانت في عالم آخر ربما الماضي أو الحاضر أو حتى المستقبل لكن الماضي كان الغالب على محياها وهتف باسمها برسمية : ـ سيدة كوثر...

فانتفضت والتفتت إليه مفزوعة كنائم أيقظوه بدلو ماء، فارتبك أمجد وقال : ـ أعتذر سيدتي لم أنتبه لشرودك...

فارتبكت هي الأخرى وردت عليه بعفوية : ـ لا عليك أخي أمجد...

وكانت كلمة أخي أمجد قشة علقت بها من شرودها، فابتسم أمجد ابتسامة أيقظت فيه ذكريات لا تنام، وارتسمت على وجهه علامات الرضا ثم قال : ـ وضع ياسمين تحسن بشكل ملحوظ والحقيقة أنني لم أكن أظن أنه سيتحسن بهذه السرعة ولا أخفي عليك حالات مثل حالات ياسمين كثيرة وهي نتيجة لصدمة كبيرة ومعظم الحالات مستعصية ولا يعاودون أصحابها النطق من جديد ولكن تحسنها في المرة الأولى هو مؤشر قوي بأنها ستتكلم من جديد وبالرغم من الصدمة الثانية إلا أنها تبقى تابعة للأولى.

فقالت كوثر: أنا ممتنة لك أخي أمجد أفرحتني نتائجك كثيرا...

فرد عليها بنفس النبرة التي كان يطوقها بها في السنوات الخوالي : ـ العفو أختي كوثر هذا واجبي كطبيب عدا عن واجبي كأخ لك أم أنك نسيتي ذلك؟؟؟

فابتسمت قائلة : ـ لا لم أنس أبدا وستظل أخي الذي وهبني الله تعالى إياه وعوضني عن حرماني من الإخوة فكنت لي نعم الأخ...

ثم اقتصت منه تأشيرة للماضي وهي تسأل : ـ هل تذكر اليوم الذي التقينا فيه؟؟؟

فأجاب على سؤالها بسؤال : ـ وهل ذلك اليوم ينسى؟؟؟

وبدون أن يفكر لثانية ذكرها باليوم والشهر والسنة وأضاف الساعة والدقيقة وخانته الثواني، فجحظت كوثر عيناها متفاجئة من دقة ذاكرته وقالت متعجبة : ـ كيف لك أن تتذكر تاريخ عابر بهذه الدقة؟؟؟

فطأطأ رأسه وعلامات الحزن بادية على وجهه وهمس قائلا : ـ أنا لم أنسه حتى أتذكره...

ولكن هذه العلامات لم تكن بادية على كوثر التي طالما كانت لا تفقه قراءة العلامات والملامح وهذا ما ألفه أمجد منها.

فابتسمت كوثر وأردفت قائلة : ـ أنا عكسك تماما فقد نسيت كل تفاصيل صداقتنا وأخوتنا وبكل صراحة لولا صدمة ياسمين لما تذكرتك للأبد...

فابتسم هو الآخر ابتسامة أبرد من خيبته ثم قال : ـ أنا إنسان لا أجيد النسيان ولو أردت ذلك لما استطعت...

فتجهم وجهه وتلألأت عيناه ونهض مسرعا كأنه أسقط لؤلؤة من عقده وهرول مسرعا يقتفي أثرها، والحقيقة أنه كان يريد إخفاء اللؤلؤة التي طالما احتفظ بها داخل صدفة قلبه وقد عثر عليها على شاطئ بحره صدفة واسترسل قائلا : ـ المهم أختي كوثر سأظل أخاك ومتى تذكرت أن لك أخا إسمه أمجد فستجدينني في الخدمة...

وما إن خرجت من مكتبه حتى غدى وكأنه مريض استيقظ لتوه من غيبوبة عميقة بعدما كان يرقد لسنوات في غرفة الإنعاش لينتعش فيه الماضي بكل حذافيره بداية من تاريخ لقائه بكوثر مع بداية الموسم الدراسي الثانوي ليكون دخولها لحياته ليس بالأمر الثانوي إلى تاريخ سفره إلى الخارج، فهكذا هي الحياة قد نقابل فيها أشخاصا دون طلب فتنقلب حياتنا رأسا على عقب.

وقد كانت كوثر من عائلة فائقة الترف بينما هو فقد كان ينحدر من حي شعبي تفوح منه رائحة القرف، وهذا ما كان حائلا بينه وبين الاعتراف لها بحبه الكبير أما الحائل الثاني

والأكبر هو أن حبه كان يتيما لأنه كان من طرف واحد فقط، فردعته الطبقية وكذا الحيادية فآثر الأخوة والصداقة ليبقى بجوارها مع أن حبه كان جليا للجميع عداها، وكثيرا ما فضح أمره أمام زملائه وسط غمزات زميلاتهم وزملائهم، ولكن مع كل هذا وذاك لم تنتبه كوثر وكل ما كان يشدها إليه الحنان والأمان الأخويان وكانت تبقى في كنفه ولا تأبه لأبناء طبقتها، وهذا ما جعل صداقتهما في وتيرة متصاعدة، وكانت كوثر من الطبقة المخملية التي لا ترى أن الصداقة بين الفتاة والشاب أمر يثير الشك أو أنه منافي للشريعة الإسلامية، أما أمجد فقد كان عكسها تماما ولا يؤمن بأخوة الفتاة إلا مع أخوها، ولا يعترف بصداقة المرأة إلا مع زوجها، فكانت علاقته معها فقط لسد الفجوة فهو يأمن عليها من نفسه ولكن لا يأمن شر غيره ولا يأمن شر غيرته لأنه يدرك لو انسحب لعوضه الكثير غيره ولكن بغير مواصفاته.

كان أمجد وكوثر لا يختلفان في شيء إلا الموضوع السابق بما فيه المصافحة التي كانت نقطة خلاف بينهما، لكنه استطاع إقناعها بصعوبة وتمكن من حماية يدها من أن تلامس يد رجل ولا يستثني يده من حضن يدها أيضا مع أنه كان يتوق لحضن اليد وصاحبتها، أما النقطة الثانية فهي تخص الحجاب الذي كلما طرحه عليها انتفضت من مجلسها ولم تعد إليه إلا وهو يعدها بغلق الموضوع مؤقتا وليس نهائيا.

وهكذا ابتلع أمجد موضوع صداقته وأخوته معها كقطعة جمر توقد نار حبه الكبير، أو كقطعة جليد ترعشه بحمى تأنيب الضمير، لتلسعه بالنهار نظرة المجتمع للفقير، وتحرقه ليلا نظرته لنفسه على أنه حقير.

وما زاد ناره اتقادا هي العهود التي قطعها لكوثر وكلما حاول خيانتها احترق، مع أنه كان يعلم أن خيانة عهد المخلوق ليس كخيانة عهد الخالق، وقد تعاهدا أن يكون كل منهما بئر أسرار الثاني فكان أمجد يحكي لها كل ما يخص حبه لها مع إضمار اسمها مع أن صورتها كانت

جلية في بؤبؤ عينه لكن حبيبته كانت ضريرة، بالإضافة إلى أنه لم يكن يجرؤ على النظر في عينيها ليس خوفا من أن يكشف أمره وإنما لأنه كان يغض بصره عنها ولو أنه كان يوشك أن يفقد صبره، ليفقده تماما عندما أعلمته ذات صباح بأنه قد تم خطبتها مساء الأمس وهي تريه أصبعها المطوق بخاتم الألماس، وهو الذي تحدى كل ظروفه بالأمس وقرر خطبتها لكن أباها رفض تزويجها بفقير المال وغني الخلق ووافق على طلبه بعدم إخبارها بالأمر، ولو لم يطلب منه ذلك لما فعل، فكان حق الفقير المعدم على الغني إعدامه بدون شفقة ولا رحمة.
فانتكس أمجد لكنه انتكاسته لم تدم طويلا وعاد بعزيمة أكبر وقد جعل قلبه قبرا لحبه وأصبح شغله الشاغل دراسته وحسب، ومع نهاية السنة الجامعية كان إسمه مرصعا في قائمة البعثة إلى الخارج للدراسة في كبريات الجامعات على حساب الدولة.

وبعد غياب طويل عاد وقد رفع اسمه في سماء علم النفس، لكن ما إن وطئ قدمه أرض الوطن، وما إن غزى رئتيه هواء الوطن حتى تراءت له كوثر في الأفق وكأنها للوطن خارطة كيف لا وهي من كانت للقلب سارقة، ولكنه كان مجبرا على أن يدوس عليها ويمضي كما داس أبوها قبلا على كرامته.
ليواصل حياته كما سطرها القدر وكله رضا وقناعة بما كتبه له القدير، ويصبح في ظرف قصير الطبيب النفسي الذي يشهد الأطباء قبل المرضى جدارته وتمكنه من الأمراض النفسية المستعصية ولا شاهد غيره على قلبه العاصي ونفسه التي استعصت عليه، لكنه مستحيل أن يعصي ربه فقطع كل ما يربطه بها إلا شرايينه وظل عن ذكراها بعيد وهو يدرك أن قلبها في غير حضنه سعيد، والروح بما فيها من جروح أعلم بأنها للقلب نبض فرحة العيد، والقلب وما فيه من قروح شاهد أنه لم يفرح ببعدها يوما ونبضه على ذلك شهيد، والعين وما سال من مآقيها من دموع أدرى بأنه حاول أن ينساها رغم ألمه الشديد، والنفس وما فيها من نفس متيقنة أنه دفن حبها في قلبه وهو موقن أنه الحل السديد.

ولكنه بعد سنوات من إعلانه دفن حبها، دخلت عليه لتعلن بداية عذاب القبر، وتحرق قلبه بمحرقة لو اجتمع أطباء النفس كلهم لتشخيصها لما شخصوها وما أطفؤوها، لهذا فقد كان يتوق لشفاء ياسمين أكثر من أي أحد غيره فقد ابتلع من الجمرات مايكفي لتكوين حمم بركانية في جوفه، لكن جمرة أمين ظلت عالقة في حلقه وهو الذي لطالما تمنى أن يرزق بطفل أو عشرون من الفتاة التي يعشقها بجنون.

وبفضل رحمة الرب وجهود الدكتور أمجد تمكنت ياسمين من النطق بعد جلسات مكثفة ومتتالية ولكن مع لعثمة ملحوظة، ففرح الكل بنطق ياسمين كفرحه أم ينطق ابنها كلمة أمي لأول مرة، أو بالأحرى ليس الكل فبقدر فرحة أمها التي لم تكن تقدر بقدر لم يكترث أبوها لها ولو بقدر مثقال حبة من خردل، فدخل عليهم مساء وهم بنطق ياسمين يحتفلون، وعلى ألحان الأمل يرقصون، فلم يرقه الوضع وصرخ صرخة كادت أن تبكم ياسمين من جديد وصمت الكل إلا مريم التي هرعت إليه مسرعة حتى تضاربت خطواتها وأوقعتها عند قدميه خائرة، فنظر إليها نظرة بالحقد جاهرة، وصرخ بوجهها : ـ ماذا تفعل في بيتي هذه العاهرة...

فصمتت لبرهة وهي في طينته حائرة، ثم انفجرت قائلة : ـ قبل أن تسألني عن هذه العاهرة، اسأل نفسك أين كنت مشغولا عنا في الأيام الغابرة، ولم تكلف نفسك أن تسأل عن أحوالنا ولو في لحظة عابرة، ونحن نموت في أحضان الظروف القاهرة، ولم نجد سندا لنا غير هذه الطاهرة، التي لن أسمح أن تهان في بيتي وأنا على راحتها ساهرة...

وهربت من الغرفة قبل أن يتهجم عليها فوجدت كوثر في الرواق إليها ناظرة فاحتضنتها باكية وهمست في أذنها : ـ لا تبكي يا حبيبتي فياسمين بحاجتك في هذه الآونة...

وتركتها وهمت بالصعود فلحقت بها مريم قائلة : ـ سامحيني يا غالية...

فابتسمت كوثر وقالت في لا مبالاة غير متناهية : ـ لا تكترثي فمعنوياتي بحالة ياسمين عالية...

ولكن أرجوك أن تحذري بخصوص كل كبيرة وصغيرة تخصها ولا تسمحي لأحد أن يجرح مشاعرها الواهنة...

فردت مريم و الخيبة على وجهها بادية : ـ أرجو ذلك مع أنه أمر صعب بوجود هذا الطاغية...

خلد أطفالها إلى النوم فخرجت من غرفتهم والمفروض أن تكون وجهتها غرفة نومها لكنها انحرفت إلى المطبخ، ولكن حتى المطبخ لم يرأف لحالها فانهمرت دموعها بهدوء كأنها وجبة تطبخ على نار هادئة، ولما أحست من حارقها النوم حملت أثقالها بخطى متثاقلة وألقت بثقلها على سريرها إلى جانب أكبر ثقل تحمله على عاتقها، وبمجرد أن أحس بأنفاسها حتى انقض عليها بوسادته يخنقها حتى كادت أنفاسها أن تفارقها، فهذه هي نفسه الأمارة بالسوء قد يتعوذ حتى إبليس من شرورها، لكنه في هذه المرة أحسن اختيار الوسيلة لعقاب مريم المسكينة فقد كان همها الأكبر ألا يكون لأبناءها أي صلة بمصابها وهي مستعدة لتحمل كل الحصيلة.

خرجت ياسمين من الحرب ولكن دخول الحرب ليس كالخروج منها فقد خرجت أرق من ياسمين فنسمة كفيلة بسرق منها الهمسة ولعثمة لا تستطيع سرقتها منها حتى الصدمة، بالإضافة إلى أنها خسرت من مشوارها الدراسي سنة، ولم يكن لمريم من خسارة ياسمين إلا الحسرة ولكن عزائها أن حالة ابنتها قد تحسنت وأن هذه البداية وإن تعثرت في الخطوة الأولى فستقف وتمشي في الثانية، أما خسارة محمد لم يكن لها عزاء خصوصا وأن وضعه يزداد سوءا يوما بعد يوم، فبسبب هزال جسمه لم يتحمل عبئ تحميل الأثقال فلم يتحملوه أصحاب الأحمال فطردوه ولم يحض حتى بشرف مهنة حمال، ليجد نفسه مجبرا على

البداية من الصفر وقد غير وجهته هذه المرة إلى ورشات البناء، التي أجمعت أن تكون الخبرة أول شرط يشترطوه مع أن عمره لم يكن يوحي أنه من ذويها، أما البعض الآخر فمن أول نظرة إليه طردوه وحتى في هدر حقه لم ينصفوه.

وبعد شهرين تقريبا من البحث والكد المتواصل استطاع أن يربح تعاطف صاحب ورشة للبناء وقد اشترط عليه العمل بدون أجر في الشهور الأولى حتى يرى منه مردودا وربحا لورشته، فهكذا هم أرباب العمل لا يهتمون إلا بالربح والفائدة، ومع كل هذا فقد فرح محمد بالعمل الجديد ولم يخبر أمه بالاتفاق الذي كان بينه وبين رئيسه في العمل، فلو أخبرها لمنعته بحجة أن هذه الشهور كفيلة بأن يتلقى فيها تكوينا يضمن له المستقبل، لكن محمد الصغير كان ينظر إلى الحياة بمنظار كبير فقد رأى أنه ليس من الدراسة أو التكوين أو الشهادة إلا تصدر قائمة شهداء الشهادة مختوم عليها بختم البطالة.

لقي محمد معاناة كبيرة في الأيام الأولى نظرا لأن المدينة التي يعمل بها بعيدة عن مقر سكناه مما يستوجب عليه الخروج مبكرا قبل شروق الشمس ومع هذا فقد كان يصل متأخرا في كثير من الأحيان نظرا للزحام الذي تشهده المدينة وما إن يصل إلى الورشة حتى ينصب عليه وابل من التوبيخات مختومة بالتهديد والوعيد بالطرد إذا تكرر الموقف.

وما هي إلا أيام معدودة حتى برز أمامه عائق آخر كون أن مخزونه المالي قد نفذ ولم يبق في جيبه حتى مصاريف النقل، فلم يجد أمامه حيلة غير المشي على الأقدام رغم المسافة ورغم الأخطار، فقد كان محمد يصارع الطفل داخله ليكون رجلا بكل المعاني، لكن الطفل كان يتمرد عليه في كثير من المواقف خصوصا في الأيام الأخيرة فقد كان يرتعش خوفا بأول خطوة يرميها خارج حضن أمه حتى آخر خطوة توصله إلى الورشة.

تسلل محمد كالعادة من بيته والكل نيام يمشي بخطاه المتراجعة والخوف طيفه والرعشة خليلته، وحين توسط المسافة بين الورشة وبيته تعثر بكومة كبيرة لم تكن قاسية

كالصخرة لكنها كانت ساكنة مثلها فسقط في بركة بللته بالكامل لكن هذه البركة لم تكن باردة برودة الماء بل كانت دافئة نوعا ما، فنهض مسرعا ونفض ثيابه المبللة بيديه المبللتين أيضا ومشى في ظلام الليل الحالك الذي لم يمكنه لا من رؤية نفسه ولا من رؤية المسالك، وما إن وصل إلى الورشة وأفشى السلام على العمال حتى تعلقت أبصارهم وعلقت شهقاتهم من منظره الذي كان مخضبا بالدماء، فنظر محمد إلى نفسه لينظر إلى الشيء الذي جعلهم مصعوقين هكذا، فلم يرى غير السواد وسقط مغميا عليه وقد أدرك أنه تعثر بجثة لا بصخرة وما ظنه بركة ماء كان بركة دماء، فسارع إليه العمال وهرع رئيسهم بالاتصال بصاحب الورشة في عجل والذي كان على بعد أمتار قليلة فاستعجل وصوله وقبل أن يصل كان قد أدرك أن الدماء العالقة في ثياب محمد هي نفسها الدماء المسفوكة في الجريمة التي اهتزت لها القلوب فجر هذا اليوم المشؤوم وقد اقشعر بدنه بمجرد مروره بها، فتأثر لحال محمد الذي تخطاها ولو أنه لم يتخطاها وقد تركت فيه أبشع أثر فلم يتحمل دمج الصورتين، فلم تتحمل دموعه الاحتباس ففاضت على مرأى الجميع باستثناء محمد الذي كان مسجى على الأرض وهو مكفن بالأحمر، ثم مسح دمعاته والتفت إلى رئيس العمال وأمره بالبقاء معه وأمر باقي العمال بالشروع في العمل وأنه سيعود بعد قليل، ولم يغب إلا دقائق معدودة ثم عاد وبيده كيس، أعطاه إلى رئيس العمال وأمره بتبديل ملابس محمد الذي رغم أنه استيقظ إلا أنه ما زال غائبا عن الوعي، وموافاته إلى مكتبه.

دخل محمد بوجه المتجهم وجلس مقابل سيده الذي تنازل عن كرسيه وجلس في الكرسي المقابل له على طرف المكتب بعدما تفطن للصدمة التي أصابت محمد فلم يجرؤ على التطرق للحادثة فسأل محمد : ـ لماذا تأتي إلى العمل مشيا الأقدام؟؟؟

فظل محمد صامتا ثم قال بصوت متهدج : ـ لأن...لأن...

فقاطعه سيده وهو يربت على كتفه : ـ أكمل يا أخي فأنا أسمعك... لأن ماذا؟؟؟

فأجابه محمد باقتضاب : ـ لأنني لا أملك ثمن المواصلات...

فطأطأ السيد رأسه خجلا من نفسه ومن تصرفه وأشفق عليه أو بالأحرى أشفق على نفسه فحاول إصلاح الموقف قائلا : ـ ولما لم تطلب مني بعض المال؟؟؟

فرد عليه محمد : ـ أنا لا أخون الاتفاق...

فانغمس السيد في جرمه ونظر إليه نظرة رجل لرجل فمن يتصرف بهذا الكبرياء والشهامة ليس إلا رجلا وسيد الرجال، فابتسم وأغلق الموضوع وحاول فتح آخر لكن محمد أغلق فمه دون مفتاح، فوقف السيد وحمل معطفه على يده ومفاتيح سيارته فوقف محمد بدوره قاصدا عمله كالعادة، فقال له رئيسه مغيرا اتجاهه : ـ اليوم عطلة بالنسبة لك ارتح جيدا وغدا يوم أفضل بإذن الله...

فلم يعترض محمد فجسده لم يكن قادرا على حمل وزنه الصغير وثقله الكبير و المشي به لبضع خطوات له أن يعمل وهو في هذه الحالة، ركب محمد سيارة رئيسه الذي كان يجلس بجواره بعدما قرر أن يوصله بنفسه إلى منزله محاولة منه لتكفير ذنبه وتجميل صورته ومحي الصورة المشوهة التي شوهها طمعه وجشعه، فسلك طريقا غير الطريق التي ارتكبت على قارعته الجريمة محاولا أن يجنب محمد المشهد الذي كان جزءا منه، وظل محمد طول الطريق صامتا إلا من إشارات منه يرشد السائق إلى بيته إلى أن أشار له أن يتوقف، فتوقف وهو يقدم نحوه ظرفا فشكره على جميله بكلمات باردة لكن بصر السيد كان يجوب بين المنزل وصاحبه كأنه يتساءل كيف لمنزل يشبه قصر الأمير أن يسكنه هذا الغلام الفقير؟؟؟

ليجيبه محمد وهو يراه يدخله بفتور : ـ إن بعض القصور لسكانها قبور.

دخل محمد بخطى متثاقلة على أمه وهي منهمكة في غسل الملابس وما إن سلم عليها حتى نظرت إليه بدهشة، لكن دهشتها تلاشت أول ما رأته بملابس جديدة، فرسمت على محياها ابتسامة رضا وهي تقول : ـ ألف مبروك الملابس وراتب الشهر يا بني...

فرد عليها بابتسامة أبرد من الصقيع وأغرب من أن تخرج من بركان يغلي وليس لأحشائه منه شفيع، فأردفت أمه قائلة : ـ لقد جئت في وقتك، أعطني ملابسك المتسخة قبل أن أكمل الغسيل...

فانخطف وكأنه جرد من ملابسه أمام الملأ ولحسن حظه أن أمه لم تلحظ ذلك، فقد كانت منهمكة تعرك وتفرك الملابس، فاغتنم الفرصة وانسحب من الحوار قبل أن يبدأ لأنه كان سينشر ألمه البائس قبل أنت تنشر أمه الملابس، فدخل غرفته وأخفى كيس ملابسه تحت سريره ثم تسلل إلى فراشه محاولا تخدير جسده بجرعة من اللاوعي عله يستيقظ وقد استرد جزءا من وعيه الذي فقده.

وقبل أن يغمض له جفن دق باب غرفته فلم يرد وتظاهر أنه نائم، ففتحت أمه الباب ببطيء فخيل إليها أنه يغط في النوم عميق، فمضت بخطوات خفيفة نحو الخزانة بحثا عن ملابسه لغسلها فلم تجدها فجابت ببصرها في أنحاء الغرفة ثم عادت أدراجها وأوصدت الباب خلفها ببطئ وتركت طفلها يصارع في حضن ألمه، وقد كان بوده لو دس رأسه في حضن أمه وشكا لها ألمه بدلا من هذه الوسادة اللعينة لعنة الكوابيس المحشوة فيها.

وما إن أغلقت أمه الباب حتى فتح ينابيع دمعه وهو يشهق بحرقة حرقة فؤاده، معلنا استسلامه للطفل بداخله فبكى بكاء الابن لفقدان أبويه، بكاء الطفل لحرمانه طفولته، بكاء الصغير الذي وجد نفسه كبير البيت، وظل الطفل يبكي والرجل يحرس وهو يتحسس خطى أمه و أختيه وكله حرص ألا تراه إحداهن في ذلك الحال.

لم يخرج محمد من غرفته إلا مع أذان العصر وهو معرض عن أمه كأنه يخفي عنها شحوب وجهه فتوضأ وصلى صلاتي الظهر والعصر وتسلل خارج البيت وهو يحمل بين يديه كيس كفنه الملطخ بالدم وهو يسحب خطاه الثقيلة كلما جر خطوة انجرف سيل الدماء

من أحشائه فتتدفق دموعه كأنه يريد أن يغسل جروحه وكأنها لا تدري أن الملح لا تزيد الجرح إلا قرحا.

وبين مد وجزر، وبين دمع ودم استقر فوق صخرة على شاطئ البحر ورمى كيس ملابسه كأنما ألقى رفاته وسلم روحه للأمواج في سكينة واطمئنان بعد أن حلقت منه نوارسا بيضاء تداعب أحزانه بحنان، ولم يشعر بالوقت إلا بعد أن تلحفه الظلام فأرعش الطفل بداخله فجرى بسرعة البرق حتى أرعد باب بيتهم وهو يتصبب عرقا وارتمى في حضن أمه الذي كان يغرزه بنبال الأسئلة الحادة وليس له عليها إجابة إلا رعشاته التي قطعت كبد أمه إلى أشلاء فلملمته و أهجعته في فراشه وغطته بلحاف ثقيل عله يثقل كاهله فتسكن رجفته وقبل أن تهدأ عاصفتة كان قد غط في النوم، فقامت مريم تدثره وتغلق كل فجوة يمكن للبرد أن يتسلل منها تماما كما كانت تفعل الخالة أم الخير في كوخها كلما اقترب موعد الشتاء.

جلست مريم تتأمل وجه ابنها الذي كان مغطى بنقع الهموم التي عصفت بها رياح السموم، وليس بيدها إلا أن تمسح على محياه بيديها المشققتين تحاول أن تكون لجروحه بلسم فتدمي بتشققاتها ما من الجرح سلم.

وفي حدود الساعة الواحدة وربع صباحا كان السكون يخيم على الأرض وكأنها توقفت على الدوران وفجأة دب صراخ محمد في البيت لو سمعته الأرض لأصابها بدوار ولأربك مسارها، فهرولت مريم نحوه كأنها تسابق سكرات الموت إليه، لتجد ابنها يغرق في بحر ليس له برزخ وقد امتزج عرقه بدمعه ويديه إلى السماء كأنه يستنجد المساعدة أو يناجي الله ربه، فحاولت أمه إيقاظه بشتى الطرق لكنه لم يستجب إلا للماء فكيف لغريق أن ينجو من الماء بالماء؟؟؟

فشهق شهقة الذي فارق الحياة وعاد لأحضانها، وكانت الحياة بالنسبة له حضن أمه وفقط فدس رأسه داخله فاحتواه الحضن الصغير فغدا كسيدنا يونس عليه السلام في بطن الحوت الكبير ولكنه يريد أن يلبث فيه إلى يوم يبعثون وهو يسبح الخبير، وظل يبكي بكاء طفل يحاولون أن يفطموه قبل موعد فطامه وهو متمسك بثدي أمه كأنه يريد أن يستأصله، حاولت مريم إبعاده لترى مصابه لكنه كلما تزعزعت ترنح وتشبث أكثر، فاستسلمت له علها تكون لجمرته بردا وسلاما، فاستطاعت أن تفشي في جسده الذي هدأ السلام، ولكنها لم تستطع أن تكون لناره الحارقة بردا، فسطحته على فراشه وهمت بمغادرة الغرفة فأمسك بيدها وهو يهمس بصوت مبحوح : ـ لا تتركيني يا أمي... لا تتركيني يا...

وغاب عن الوعي من جديد فأسرعت بعبور الحدود للمرة الأولى وما إن طرقت الباب حتى جاءها صوت أخيها من الداخل يسألها من الطارق فأجابت بصوت متهدج : ـ أنا مريم...

فاشمأز أحمد من الصوت و الاسم وما زاد اشمئزازه هو الوقت المتأخر، فعاد إلى النوم كأن الباب لم يطرق وكأن لا أحد عند أعتابه ينتظر، فتسللت كوثر تتحسس الأمر وفتحت الباب بهدوء فوجدت مريم ووجهها مخطوف وهي تنتحب : ـ محمد يحتضر...

فأسرعت كوثر إلى إحضار حقيبتها وتبعتها وما إن همت بفحص محمد حتى لفحتها حرارة جسمه الحارقة وهو يهذي بكلمات غير مفهومة ومع ارتفاع درجة حرارته ارتفعت صرخاته من جديد بصوت جهوري مجلجل : ـ دم...دم...دم...

جحظت مريم عيناها وحملقت كوثر هي الأخرى وارتفعت موجة صراخه إلى أن انخفضت درجة حرارته وسلمته للنوم، فوشوشت مريم لكوثر: ـ طمئنيني ماذا أصابه؟؟؟

فطمأنتها والشك ينتابها : ـ لا تقلقي فكل أعضائه بخير.

فازدادت حيرة مريم وقالت متعجبة : ـ وما سبب ارتفاع درجة حرارته والنوبات التي تعرض لها ؟؟؟

فأجابتها كوثر مشككة : ـ ربما تعود لعامل نفسي نتيجة لتعرضه لصدمة ما...

ألم يخبرك بشيء؟؟؟

فردت مريم : ـ لا أبدا... ولكنني سأستجوبه صباح الغد إن شاء الله.

فاستأذنت كوثر وهي توصيها بعدم مفارقته هذه الليلة وهي تعلم أنها لن تجني من الفراق غير الاحتراق.

خيم على البيت السكون من جديد إلا من أنين الابن المحموم، وصوت شخير الأب المسموع من وراء الأبواب الموصدة، وصوت خرير دمع مريم التي كانت تجلس على قارعة السرير وكلها أمل أن دموعها سوف تدمع ذات دمع بقرير، فكانت كالشمعة التي تحترق وكأنها من ألهمت الشاعر إسحاق الغزي في سؤاله :

"مالي أرى الشمع يبكي في مواقده

من حرقة النار أم من فرقة العسل"

سؤال لم يصح جواب أحد عليه ليكون هو السائل والمجيب في نفس الوقت فجاءت إجابته كالتالي :

"من لم تجانسه فاحذر تجالسه

ما ضرّ بالشمع إلا صحبة الفتل"

لتكون مريم الشمعة التي ذابت فما أذابها إلا وجود شيء في الشمع ليس من جنسه وهو فتيله أي زوجها الذي احترق جفاء ليحرقها شقاء.

أرسل الفجر أشعته الأولى ولم يغمض لمريم جفن ولم تفارق محمد إلا مرتين مرة للصلاة ومرة لإيقاظ أخوه آدم الذي حمل على ظهره محفظته الثقيلة التي لا يقابلها إلا فراغ

بطنه وغادر، أما مريم فعادت إلى مكانها تواصل التفكير لكنها غفت ونامت فوق محمد بوزنها الخفيف لكنه شعر بحملها الثقيل، فمهما عظم ثقل الجسد فثقل الروح يبقى أعظم، وما إن فتح محمد عيناه حتى كادت أشعة الشمس أن تسرق بصره، فتزعزع يحاول النهوض مسرعا فانتبه لأمه التي انتفضت بأول حركة منه خوفا عليه فقال في عجل : ـ لماذا لم توقظيني يا أمي؟؟؟

فردت عليه وهي تفرك عيناها من شدة النعاس : ـ لم أشأ أن تذهب وأنت في هذه الحالة...

فقال متذمرا : ـ سامحك الله يا أمي عن أي حال تتحدثين أيوجد حال أصعب من حال البؤس الذي نعيشه...

فرمقته بنظرات كلها شفقة ثم طأطأت رأسها ثم رفعته بسرعة كأنها تذكرت شيئا واسترسلت قائلة : ـ ما الذي حدث معك في أمس؟؟؟

فأجابها وهو يشيح ببصره عنها : ـ لا شيء... اسأليني ما الذي سيحدث لعملي بعد اليوم؟؟؟

وانصرف وتركها في موجة من الاحتمالات لكنه مطمئن لأن ما حدث معه بعيد كل البعد عن تفكيرها وكذا احتمالاتها، ولكن احتماله كان خاطئا فحالما فتح باب الحمام تفاجأ بها تقف قبالته وعيناها تشع يقينا : ـ وما تفسيرك لكلمة الدم التي كنت تصرخ بها طول الليل...

فتجهم وجهه ونظر إلى يديه بحركة لا إرادية فقالت مريم بحنان : ـ أنا أنتظر يا حبيبي ولا تنسى أنني أمك فلا تخفي عني شيئا...

فارتبك محمد وقال بصوت مضطرب : ـ ليس هناك شيء لأخفيه...

وهم بالانسحاب مجددا لكن هذه المرة إلى خارج البيت برمته فأمسكته مريم من معصمه لكنه سحبها بقوة وغادر غاضبا، فتفاجأت مريم من ردة فعله ومن خشونته ورعونته التي لم تألفها منه لا قولا ولا فعلا، فقد كان محمد بالنسبة لها البذرة الوحيدة التي سقتها من حنانها

الفياض بعد أن قتل فيها منذر فراشات أحلامها وهي لا تزال يرقات صغيرة، وإذا وضع محمد في كفة وكل أخوته في كفة لمالت الكفة إليه بجدارة واستحقاق ولطالما كانت هاته النقطة نقطة خلاف واختلاف بينها وبين كوثر التي كانت تعاتبها بسبب تفضيله على حساب إخوته مؤكدة لها أن كل واحد منهم يحتاج منها إلى رشفة حنان، وما كان لمريم إلا أن تتحجج بالظروف التي سلبتها عواطفها وما سلم منها استسلم أمام ابنها محمد وكأن لها إبنا واحدا ووحيدا ليكون إخوته كسائر الأيام وهو دون غيره عيد واحدا لا عيدين، ورغم أن النقاش العميق كان يحتدم بينهما إلا أنه كان نقاشا عقيما عقم أحاسيس مريم التي تحولت إلى آلة صماء ولكنها إن لم تكن تحن فقد كانت تئن وإن لم تكن تتكلم فقد كانت تتألم.

قضت مريم اليوم منهمكة في أعمال المنزل لكن بجرعة زائدة محاولة ألا تفكر في موضوع محمد الذي شغلها عن أبناءها وحتى عن إبن أخيها، وكلما تاهت فيه تعاقبت كلمات كوثر في داخلها وليس لكلماتها صدى إلا ما يحدث لابنها محمد وكأنه لا عقاب لذنب التفرقة إلا عذاب الفراق.

وفي لحظة من لحظات شرودها أيقظتها صرخات الأطفال وهم يتخاصمون، فاتجهت نحوهم مشحونة بالغضب ولم تسأل من الظالم ومن المظلوم وانهالت ضربا على ياسمين ولم يشفع لها لا صرخاتها المتقطعة ولا صرخات رحاب وأمين المتواصلة، ولم تهدأ إلا بالباب الموصد يكاد يخلع بطرقات الأيدي وركلات الأرجل، فاتجهت تفتحه قبل أن يفتح عنوة وليس لها من بعد الجهد الذي أهدرته في ضرب ياسمين قوة، لكنها بمجرد رؤيتها لمحمد همت باحتضانه ليشحن قواها من جديد لكنه تجاهلها وترك أوزارها تهوي أرضا وهم بالدخول مسرعا وهو يسألها بقلق : ـ ما الذي حدث ؟؟؟ وما هذه الضوضاء والصراخ؟؟؟

ودخل يطمئن عن الوضع وتركها شاخصة في مكانها كشجرة تعرت من أوراقها وتشهد سقوط آخر ورقة وتنتظر سقوط جذعها بين أيدي الحطاب بضربة من الفأس الذي يده من حطبها.

حاول محمد أن يستجوب ياسمين التي كانت جالسة القرفصاء لكنه لم يلق فيها تجاوبا إلا من شهقاتها المتقطعة والمتصاعدة وكلما ألحّ عليها بالسؤال تصاعدت وتيرتها أكثر، فالتفت محمد إلى رحاب وأمين اللذان كانا ملتصقان ببعضهما وسأل أمين أولا : ـ أأنت ضربتها يا أمين؟؟؟

وهو يدري الإجابة مسبقا، فهز أمين رأسه بشدة علامة للنفي ثم التفت إلى رحاب وسألها هي الأخرى فردت بنفس العلامة وهي تشير بأصبعها إلى الخلف في ذعر، فالتفت إلى أمه وهو يرمقها بنظرات ملؤها العتاب والتأنيب ثم هم بالانصراف خوفا على نقاشهما من خطر الانحراف فيودي بآخر ما علق فيه من ذرات أمومتها بالإنجراف.

انحنت مريم نحو ياسمين وأمسكتها من يدها وسحبتها خلفها وغسلت لها وجهها وأطرافها وبينما هي تغسل لها انتبهت إلى ملابسها المبللة، فزادت موجة ارتعاشها فتظاهرت مريم بعدم انتباهها، وما إن خلعت عنها ثيابها عنها حتى هلعت بالكدمات التي تملأ جسدها الهزيل فصبت عليها الماء كأنها تريد أن تغسل جرمها، فتأوهت ياسمين ليس من سخونة الماء وإنما من برودة أمها التي أخذت تحممها وحمم دمعها تكاد تحرقها وقد أحرقتها قبلا بنار هي حطبها، لكن مريم لم تكن بتلك القساوة ولا بذلك الجفاء لكن الحياة قست عليها بما يكفي لتقسي في فؤادها كل ليّن.

حممت ياسمين وجففت شعرها جيدا بالمنشفة وألبستها ثيابها وفتحت لها الباب وأخرجتها وأوصدته خلفها محاولة أن تجفف دموعها قبل أن تخرج، لكن فيضانات عارمة اجتاحتها وما كان لها إلا أن تفتح صنبور الماء البارد كعادتها وتجلس تحته محاولة إطفاء

براكينها الثائرة التي رغم أنها ابتردت إلا أنها ما بردت وكانت هذه النوبات تتناوب على مريم بين الفترة والأخرى وكان ضحاياها آدم وياسمين وربما رحاب مستقبلا وسببها أبوهم، ولأن منذر لم يكن له في القلب مكان لم تكن نوباتها حادة ولم تلحق بهم خسائر معتبرة، لكن عندما صار السبب قلبها في حد ذاته، فبقدر الحب الذي تكنه لمحمد بقدر الأذى الذي ألحقته بباقي أولادها، على غرار ياسمين التي كانت تستدعي حالتها عناية خاصة، والحقيقة أن معاملة أمها لها كانت جد خاصة، فلا يوجد أم تفعل بابنتها الصغيرة التي تعاني نفسيتها صدمات كبيرة ما فعلته هي بإبنتها وبعد شهور معدودة من عودة المياه إلى مجاريها، لكن أمها عكرتها ليصبح العذب عذابا شديدا، وبهذا وجدت مريم نفسها مجبرة على تقبل الوضع الجديد لمحمد الذي كان نتاج حادث تجهله أما وضع ياسمين فقد زاد انعزالا وانطواء نتيجة لحادث تعلمه ووحدها سببه.

عاد محمد إلى عمله وقد أوئد الطفل الذي بداخله ولم يبق له أثر ولو في خطاه فتلاشت ملامح البراءة من على وجهه، وكبلت الابتسامة وأعدمت على ثغره، ولا شيء غير شرار الانتقام يتطاير من عينه ممن كانوا سببا في وجوده وانعدامه، فاكتسب رعونة سحقت ريحان طفولته في ريعان شبابه وصار همه الوحيد الكد والجد في العمل أناء النهار وأطراف الليل فقد كان يعمل ساعات إضافية صباح مساء محاولا أن ينسى واقعه المر الذي وإن تناساه في النهار راودته كوابيسه تذكره في كل ليلة ليكمل ما تبقى منها في أرق أو ينصرف ليجني المال بما يسيل منه عرق.

كان محمد أصغر عمال الورشة بعمر لا يتعدى الستة عشر سنة ولو قارناه بمعدل أعمار باقي العمال لكان عمره زهاء نصف متوسط أعمارهم، وقد كان العمال يتوقفون عند منتصف النهار ليسدوا رمقهم ببعض الغذاء ولو أنهم كانوا يحرقونه قبل أن يتحلل بسجائرهم، أما صغيرهم محمد فقد كان يواصل عمله كالآلة ولا يتوقف إلا بعدما

ينصرفون من مجلسهم، فيتجه إلى مكانهم يبحث عن بقايا السجائر التي خلفوها فيدخنها الواحدة تلو الأخرى قبل إنطفائها وهاته عادة جديدة اكتسبها من محيطه الجديد ظنا منه أنها تمده بالطاقة من حديد لمواجهة القهر القريب أو القادم من بعيد.

توالت الأيام واشتدت الآلام ليقرر محمد مغادرة البيت وليس في قراره نقاش أو كلام ولم يعد يزر أمه إلا يوم الجمعة وكل محاولاتها بإرجاعه إلى حضنها باءت بالفشل الذريع، ولم يعد لأبناءها من الجفاء شفيع، وكأن الحب منها نار إذا لم تدفئ بها محمد أحرقت بها إخوته، وكأن الحنان منها دواء لا يؤخذ إلا بوصفة وهو في غير وصفة محمد غير مكتوب، وإذا ناولته لأحد من إخوته فسيموتون، لترحمهم بالموت على يدها بأبشع الجرائم الباردة العاطفية والطائفية أو الساخنة الطوفانية وهي تضربهم بقسوة لأتفه الأسباب ولا يسلم من بين يديها إلا أمين فتصون الأمانة التي ائتمنتها عليها كوثر وتخون الأمانة التي ائتمنها عليها ربها ورب كوثر.

عاد آدم مساء يحمل على عاتقه أثقاله ووجهه مكفهر فلاحظت مريم ذلك فسألته باقتضاب : ـ ما بك؟؟؟

ولم علم آدم الذي يتربص به من بين أحرف هذا السؤال البسيط لأجابها بلاشيء لكنه أجابها بصوت خافت : ـ لم أحصل على معدل في مادة الرياضيات...

فزاد انقباض وجهها ووقفت وهي تقول باقتضاب أكثر: ـ ولماذا؟؟؟

ثم اقتربت نحوه وأردفت : ـ أتنتظر أن أفرح مثلا؟؟؟

مع أنها لم تفرح ولم تهتم يوما بنتائجه الجيدة، فشعر آدم بناقوس الخطر يدق بابه لسوء حظه وحسن حظ ياسمين وقال بصوت مرتجف : ـ آسف يا أمي فقد كان اختبارا فجائيا ولم يحصل أحد منا على معدل...

فقاطعته صارخة في وجهه : ـ وما يهمني في الآخرين؟؟؟

في هذه اللحظة تماسك آدم وأراد أن يوصد الباب بقوة فرد عليها بصوت قوي : ـ إنها المرة الأولى التي لم أحصل فيها على معدل، كما أنني مساء اليوم الذي سبق الامتحان ظللت أجمع الخبز، وأنت تعرفين ثقل الحمل علي خصوصا بعدما تركني محمد لوحدي...

ومع ذكر اسم محمد انفجرت كالقنبلة الموقوتة وانهالت عليه ضربا ولما لمست منه المقاومة انقضت عليه تخنقه بكلتا يديها مع أنها لو استعملت يدا واحدة لطوقت عنقه، فغدا كالعصفور بين يدي مجنون وقد جحظت عيناه وانقطعت أنفاسه وهدأت ترنحاته وتعالت صرخات رحاب وأمين وحتى ياسمين وهم يجذبونها من أطراف ثوبها حتى كادت أن تمزقه أياديهم مرتجفة، ولم تشعر مريم بشيء إلا لما اصطدمت بها قوة دفعتها حتى أوقعتها أرضا قرب آدم الذي أصبح كجثة هامدة وقد لون الموت مراسمه وينتظر أن تحيا مراسم جنازته، فوثبت كوثر هي الأخرى على عنقه لتتأكد من تنفسه فشعرت بنبضات قلبه وكأنها خطوات متثاقلة لمحكوم عليه بالإعدام ضلما وهم يقودونه لحبل المشنقة علنا، فهرعت إلى محفظها المرمية وقدمت له الإسعافات الأولية حتى فتح عيناه المترقرقة بالدمع وهو يثبتهما نحو أمه وكأنه يقول لها : "يقولون أن الجنة تحت أقدامك... ونحن نحترق بنار جهنم بين يديك..."

فلم يكن لمريم إلا أن تتملص من نظراته لتلسعها كوثر هي الأخرى بنظرات حارقة وكلها ذهول واستهجان لجرم مريم التي طالما اعتبرتها مثلا للأم الرؤوم وسرعان ما اكتشفت أنها خطرا للموت الزؤام يترصد بأبناءها قبل ابنها أمين، فلم تتحمل مريم هذه النظرات فهرولت ودموعها تسقي الثرى ولولا رحمة الرحيم لسقت به ثرى قبر ابنها الذي قتلته بيديها، فلحقت بها كوثر وكان من الأحسن لها الانفراد بمريم لأن الذي ستقوله كبير كبر المشهد الذي شاهدته بأم عينها ولو أخبروها به لما صدقت وكذبت قائله ولو كان صادقا، فأمسكت كوثر بيد مريم وجذبتها بقوة حتى جعلتها تستدير نحوها ورمقتها بنظرة قاسية

وأردفت قائلة : ـ لحسن حظك أن الباب كان مفتوحا وإلا كنت حفرت قبره بيديك، ولسوء حظك أنني رأيتك ولن أغفر لك...

فقاطعتها مريم بصوت ممزوج بشهقات تلتمس الشفع ومبلول بشذرات الدمع : ـ صدقيني لم أكن أنوي خنقه ولكن لا أدري ما أصابني...

وارتمت في حضنها تحاول استعطافها لكن كوثر لم تحرك ساكنا، ولما لمست مريم منها الجفاء تراجعت وواصلت البكاء فأثارت شفقة كوثر لكنها أرادت تهديدها لتخيفها فقط فقالت لها : ـ أنت تعرفين مقدار حبي لك وتدركين معيار احترامي لك لكن ما رأيته اليوم لا يمكنني أن أغض عليه البصر لا بدافع الأمومة ولا بدافع الإنسانية، وبإمكاني رفع دعوة قضائية عليك تودعك السجن لشهور كحد أدنى لكنني أحذرك من مجرد التفكير في الأمر مرة أخرى...

فأطرفت مريم رأسها وقالت بصوت خافت : ـ أتظنين أن فكرة السجن لشهور تخيف محكوما عليه بالسجن المؤبد أو أنك تظنين أنني تعمدت الضرر لآدم وأنا المتضرر الأكبر بفقدانه...

وفقدت صبرها وجثت على ركبتيها باكية، فما كان لكوثر إلا أن تتربع الإسفلت ململمة مريم في حضنها، لتتحول الجلسة القضائية إلى جلسة أخوية دامت قرابة الساعة أو أكثر، وكل ما قالته كوثر كان يصب في توصيات بالعطف وتحذيرات من العنف، وكانت نقاطا من اليسير على كوثر سردها وعلى مريم استقبالها لكن ما استعسر على هذه الأخيرة هو تطبيقها، وقادها الحديث إلى كشف حقائق كثيرة كانت كوثر تجهلها عن أم زوجها وزوجة أب مريم والقسوة التي عيشتها فيها إلى آخر فصل لنهاية حياتها، ورغم نهايتها إلا أنها مازالت لليوم تكابد نتائج بهتانها الذي شوهت به صورتها في نظر أبيها وأخيها وزوجها متهمة إياها بتهمة ملفقة تتهم فيها مريم بأنها على علاقة بشاب قبل وبعد زواجها وأنها تستقبله في البيت متى

سمحت لها الفرصة، ليأتي ذلك اليوم المشؤوم الذي خرجت فيه زوجة أبيها مع أبيها لزيارة مدبرة لبيت أهلها، وظلت تنخر أفكاره طول الطريق وهي تؤكد له صحة كلامها وإن أراد التأكد من صحة كلامها فما عليه إلا العودة إلى البيت وسيتأكد بنفسه، ففقد أبوها صوابه وحدث له ذلك الحادث المميت وفقد زوجها صوابه لما علم بأمر الحادث الذي اعتبره مانعا لذلك الحقير الذي باع رجولته مقابل دنانير معدودة من المثول في الموعد المحدد، فهكذا هو والد مريم لو قالت له زوجته إن الكبد هو المسؤول عن التنفس لصدقها وكذب العلماء وقال لها كذب العلماء ولو صدقوا، ومع هذا فقد كانت مريم تلتمس له آلاف الأعذار أو بعدد ما وجدت في ثيابه وأكله من سحر وشعوذة، وكأن زوجة أبيها كانت تنتقم من أمها بها لأنها كانت تخطط للزواج بهذا الرجل لكن أب مريم اختار أم مريم أو بالأحرى اختارتها أمه له فأحسنت الاختيار وحتى بعدما ماتت وهي تلد ابنتها أشعلت على حطام ذكراها نيران حقدها وغيرتها.

صدمت كوثر ومن صدمتها لم تصدق ما سمعته فسألتها : ـ من أين تعرفين كل هذا عنها ؟؟؟

لعلها تفند المصدر لكن مريم وثقت صدق كل ما قالت بأن الخالة أم الخير هي من أخبرتها وأضافت قائلة : ـ لم أكن لأصدق أنني عايشت بشرا بهذه الدرجة من التحجر ولو أنني أشهد صدق الخالة أم الخير لما صدقتها، حتى أنها لم ترد إخباري بأي سيئة من سوءاتها إلا بعدما فاجئني أخي أحمد في الجنازة بنعتي بالزانية وأنني سبب وفاة أبي وأمه اللذين وفتهما المنية في ذلك المساء تحت مطر من السماء كأنه يغسل خطاياها قبل دخولها قبرها، وإن غسلت بماء كالمهل يشوي وجهها وسائر جسدها لما تطهرت من قذفة واحدة في حقي الذي هدرته في حياتها وحتى بعد موتها...

دهشت كوثر لكل ما سمعته وانتهت باستنتاج سؤال مفاده : ـ وهل أخبرت زوجك ؟؟؟

فردت وكأن كوثر تحدثت بلغة غير لغتها : ـ لم أفهمك؟؟؟

فقالت كوثر موضحة : ـ أقصد هل أخبرت زوجة أبيك أي حماتي زوجك منذر بأمر ذلك الشاب؟

ارتبكت مريم وترددت في الجواب ثم ردت باقتضاب : ـ لا أدري؟؟؟

فقالت كوثر مشككة : ـ أظن أنها أخبرته وهذا ما يفسر تصرفاته معك...

فتجهم وجه مريم وقالت بنبرة حزينة : ـ أتظنين ذلك؟؟؟

فقالت كوثر متراجعة : ـ أستغفر الله العظيم... أرأيت إلى أين وصلنا؟؟؟

أذكري محاسن موتاك وانسي الأمر ووكلي الله وحسب...

فقالت مريم : ـ وبعض الموتى ليس لهم محاسن لنذكرهم بها...

ثم صمتت وأردفت : ـ حسبي الله ونعم الوكيل...

نهضت كوثر وهمت بالانصراف بعد أن وجدت نفسها أمام نقطة مسدودة والانسحاب هو الحل السديد، وفي طريقها إلى الخروج أطلت على آدم تطمئن عليه فوجدته مغموسا بين كتبه ودفاتره كأنه يريد أن يكفر عن ذنبه الذي لم يقترفه.

خرجت كوثر وأغلقت الباب خلفها لكنها فتحت على مريم أبوابا لن تغلق مهما حاولت وهي تحاول التعمق في آخر نقطة أشارت إليها كوثر فوجدت نفسها في متاهة من العنف الذي لا مبرر له إلا ما أشارات إليه كوثر ولا يوجد شيء يضرب رجولة الرجل مثل هذا الأمر الجلل وآثر أن يترجمه بالضرب على أن يلمح به لجنس مخلوق فالموت أهون عليه من أن تدنس كرامته أو يلطخ شرفة، وقد وجد نفسه مفلسا في سوق عملته الشرف.

لم تنتبه مريم لما حولها حتى سمعت آدم يهمس في أذنها في حذر أن أباه قد جاء فارتجفت وهرولت إليه مسرعة تحضر له ملابس نظيفة وتغسل رجليه وتحضر له ما يأكل مع أنه لم يترك في البيت ما يؤكل كعادته، وبينما هي تطهو الطعام سهت من جديد فاحترق الأرز

الذي كانت تطبخه وما إن انتشرت الرائحة حتى رأته يقف صوبها كأنه مارد من دخان فلم يكلف نفسه أن يضربها فقواه لم تكن تسمح له بأي جهد غير جهد الأكل الذي يدخره واكتفى بالتبرع لها بكل ذاك الأرز الذي استحال لونه إلى الأسود فنظرت إليه مريم نظرات ملؤها الشك تريد سؤاله لماذا يفعل معها هذا وما هو الذنب الذي اقترفته لينتقم منها بهذا الشكل لكنه أخرسها بأوامره المجحفة وقد أمرها بطهي أرز آخر له، فابتلعت غصتها وهمت إلى القدر تنفذ أوامره مطأطئة الرأس وهي لا تأمن شرودها وكذا احتراق الطبخة من جديد.

أطفأت مريم الموقد وقد استوت الطبخة بسلام وأخذت تملأ الصحن حتى يكاد يفيض وأخذته إلى منذر في غرفته فهو لا يتنازل عن عرشه ويتنازل إلى الأكل في المطبخ مع العبيد، وما إن دخلت على منذر بالصينية حتى عدل جلوسه قائلا : ـ وأين عشاؤك أنت...

فردت بصوت خافت خائف : ـ في المطبخ مع الأولاد...

فابتسم ابتسامة خبث ومكر ثم أمرها أن ترجع الصينية إلى المطبخ وأنه سيتعشى معهم كأنه يريد عشاء عائليا بلمسته الخاصة فسبقته المسكينة تسكب محتوى القدر المتفحم في صحن كبير وسكبت ما بقي من القدر الثاني لصغارها في صحن صغير وجلس الجميع يترقبون حضور الأب في خوف وهلع فسأل آدم أمه وقد انتبه لصحنها : ـ لماذا لون أرزك أسود ؟؟؟

فأجابته مدعية اللامبالاة : ـ لا يهم اللون بقدر الطعم...

فنظر إليها نظرة ملؤها الحسرة والشفقة ثم أزاح الطبق الذي كان يشترك فيه مع أختيه نحوهما، فدخل الأب المزعوم وجلس أمام الحصة الأكبر والأوفر وبدأ يلتهم طعامه بنفس اللهفة وبنفس الجلسة المعتادة وهو يراقب مريم التي كانت تأكل الأرز المحترق ولا يبدو عليها أي تذمر إلا نكزاتها لابنها آدم تمنعه من مشاركتها طبقها وقد انشغل هذا الأخير عن إخفاء الندوب على عنقه وهو يشارك أمه الطعام ليس جوعا وإنما تطوعا.

وفجأة قال منذر مزمجرا : ـ ما بك؟؟؟

فالتفت إليه آدم قائلا باقتضاب : ـ لا شيء...

وهو يرفع معطفه عن نحره، فشده منذر بقبضة قوية من معطفه وقال محذرا : ـ قلت لك ما بك؟؟؟

فاسترسل الصغير آدم في حبك الإجابة فقال بتلعثم : ـ سقطت من...

فقطعت الصغيرة رحاب الكلام من حلقه وقالت : ـ خنقته أمي هكذا...

ووضعت يديها الصغيرتين على عنقها القصير وأخرجت لسانها الطويل وجحظت عيناها أمام ذهول الجميع، فنظر منذر إلى مريم نظرة محتقنة بالشر وسحب منها الصحن بكبره وسواد محتواه وقذفه على وجهها بقوة، وحمل صحنه ودلف إلى غرفته بهدوء تام أما الأطفال فقد شخصت أبصارهم وأفواههم مليئة ولا تقوى حناجرهم على ابتلاع ما تحتويه أفواههم والسواد يغطي شحوب وجه مريم وثقل الحمل على أجفانها التي ما فتئت تفتح حتى فتح في أعلى جبينها جرح تنبثق منه دماء تتوغل بين حبات السواد العالقة على محياها الأبيض فلم تتحرك من مجلسها خوفا من أن تثير فزع أبناءها أكثر مما أصابهم أبوهم من هلع، لكن آدم انتفض ينفض عن وجهها السواد ويفسح المجال للسيل الأحمر وهو يقول وسط هلع وفزع : ـ دم...دم...دم... أنت تنزفين يا أمي...

فصرخت رحاب باكية وهي تنادي : ـ أمي...أمي...

ثم تشبثت بها، أما ياسمين فلازالت تصارع اللقمة العالقة في حلقها والدمع يفيض في صمت من مآقيها كأنها تريد أن ترطب ما في حلقها، فابتسمت مريم ابتسامة واهية وكأن الدم بالنسبة لها مجرد أحمر شفاه وقالت : ـ لا تخافوا أنه مجرد جرح سطحي...

فقال آدم مصححا : لا يا أمي إنه جرح بليغ...

فنهضت وهي تمسك بيدها جرحها البليغ وباليد الأخرى تهدأ رحاب التي دخلت في موجة من الصراخ، و راحت الجريحة تتلمس العلب الفارغة المصطفة وعيناها بالكاد ترى أطياف الأشياء وأخذت العلبة المملوءة من بين علبتين واحدة قهوة والثانية سكر، ودخلت الحمام وأغلقت الباب على نفسها بعدما اجتثت نفسها من بين يدي رحاب وآدم وفتحت حنفية الماء البارد وانغمست تحته تود إطفاء حمم دمائها فغدا التدفق أحمرا كأن الماء استحال إلى دماء فلم تتحمل مريم فانهمرت دموعها وسط بكاء رحاب الذي ازداد حدة وقد امتزج بأصوات صفعات من آدم لأخته رحاب وهو يلطمها بشدة شدة ذنبها، في هذه اللحظة خرج الأشرس وغرز مخالبه في الصغير آدم وجره إلى عرينه واستل الحزام من سرواله وانهال وطسا على شبله، فصرخ آدم صرخات زادت من جروح حباله الصوتية وزادت من لهيب الجمرات المنهالة على جسد أمه وهي مجبرة على عدم محاولة إطفاءها ولو حاولت لصارت الجمرات نيرانا بركانية تحرق الأخضر واليابس، فتجرعتها إلى آخر صرخة من آدم ليسود الصمت لبرهة ثم يرتفع حسيس وشوشات بين آدم ورحاب، فكفكفت مريم دموعها بسرعة ودكت القهوة في جرحها البليغ وربطته بوشاح مورد بورود الأمل ورسمت على وجهها ابتسامة جعلتها بوداعة الحمل وخرجت على أبناءها الذين أصابهم نفس صمت ياسمين برؤية أمهم تبتسم، فارتمى آدم في حضنها وهو يتوسل الغفران فهدأته مريم قائلة : ـ لا عليك يا بني لقد جنيت على نفسي وأنت أقرب إلى قلبي من نفسي، سامحني يابني...

وهي تتلمس ما تركه أبوه من أثر زيادة عن أثارها والتفتت إلى رحاب بابتسامة كانت كإشارة منها لترتمي في حضنها هي الأخرى، فافتقدت مريم ياسمين فراحت تتفقدها وهي تجوب ببصرها لتجدها في مكان سحيق تصارع الصمت بشهيق وبمجرد أن مدت إليها يدها حتى هرولت نحوها كالغريق.

أهجعت مريم أطفالها في فراشهم وهمت إلى المطبخ الذي كان مفروشا بحبات الأرز السوداء تتخللها حبات حمراء وجزيئات الزجاج فنظفته بقوى خائرة وهمت إلى فراشها فوجدت معذبها يغط في نوم عميق وشخيره يصم المسامع، فحملت وسادتها وأوصدت الباب خلفها وعادت أدراجها إلى غرفة فلذات أكبادها وإن كانت القطعة الأكبر منها ممزقة.

تقدمت نحو ياسمين ورحاب فوجدتهما يغطان في النوم أما آدم فقد كان يتخبط في فراشه يبحث عن النوم في طياته إلى أن استلقت أمه أمامه كأنها هي الشيء الذي كان يبحث عنه، فتوسدت وسادتها وجعلت إحدى ذراعيها وسادته والآخر لحافه، فنام آدم في آنه وبقيت هي تعاني الأرق، وما إن عتقها وسلمها للنوم حتى انتفضت بركلات على رجلها وزوجها يوقظها لتجهز له القهوة قبل أذان الفجر بساعة لكن الألم في رأسها كان لا يقاوم وعيناها منتفختان مع تورم النواحي المحيطة بالجرح، فقاومت الجريحة جرحها وامتثلت لأوامر زوجها الذي شرب القهوة بعجالة وانصرف، فأغلقت الباب خلفه وعادت إلى فراشها ورأسها يؤلمها و كأنه شق إلى نصفين أما شق صدرها لا يحده عدد، استسلمت للنوم وحتى أذان الفجر الذي كان يوقظها بأول ندائه لم تسمعه، أما آدم فقد نهض بأول خيوط الفجر وهو يتألم من جسده المملوء بالرضوض والكدمات التي زالت بمجرد أن رأى أمه نائمة فرسم قبلة على جبينها وجرحها من الألم لا ينام، لتكون قبلته كالوردة الحمراء وسط الأشواك.

كان صباح يوم الجمعة أي يوم عطلة أما بالنسبة لآدم فقد كان يوم انتظره طول الأسبوع بعدما تعرض له من طرد وحتى ضرب من بعض الرجال الذين طغى عليهم البغض والحقد، فبصغر حجم رجولتهم يرونه رجلا ولا يحق له أن يطرق بابهم وكل طرقة منه هي تعدي على حرماتهم، وهذا ما جعله يفكر في طرق باب رزق آخر، فشد الرحال نحو أبواب غلقت في وجهه لأنها لا تفتح لصغار السن على غراره لكن عزيمته كانت أكبر من أن

يوصد في وجهها باب وظل يطرق الباب تلو الآخر إلى أن نال منه التعب مبلغا كبيرا، فعزم العودة إلى البيت ومواصلة البحث عن مفاتيح جديدة في الغد، وفي طريقه إلى العودة انتبه للمقهى الموجود في آخر شارعهم وبابه مفتوح على مصرعيه فتوجه إليه بخطى أنهكها التعب لعلهم يقبلون تشغيله كنادل، فرحب به صاحب المقهى بابتسامة عريضة لكنه لم يرحب بالعمل عنده بسبب قامته الصغيرة على غرار سنه الصغير ونصحه بالاهتمام بدراسته وحسب، لكن آدم كان متحذلق العقل لبق الخلق استطاع أن يحظى بقبول صاحب المقهى وحجته أنه سيشتغل في المساء بعد ساعات الدراسة وفي أيام العطل...

فأثار شفقته حتى نسي من أبوه الذي كانت سمعته السيئة وصمة عار في جبينهم، لكن العجوز الوقور رأى أنه من الظلم أن يحمل أحدا وزر أحد، فابتسم ابتسامة ارتياح تعكس بشاشة وجه آدم البريء ثم قال : ـ يمكنك أن تبدأ من يوم الغد إن أردت...

فرد آدم بجذل مرموق : ـ بالتأكيد سيدي...

فنظر إليه العجوز بحنو وقال بصوت عطوف : ـ يمكنك أن تناديني العم منصور يا بني...

وانصرف آدم ومازال العم منصور يرمقه بنظراته وهو يحاكي نفسه : ـ ليتك كنت ابني ولكنك للأسف أنت ابن منذر ابن الـ...

فارتفعت نبرة صوته : ـ اللهم لا اعتراض أستغفر الله وأتوب إليه...

حل آدم على العم منصور صباحا كبشرة الخير، فأشرق وجهه بابتسامة عريضة وبمجرد أن ألقى آدم السلام حتى رد عليه بسلام حار وقام ليصافحه، وما إن مد آدم يده الصغيرة حتى جذبه منها العم منصور إلى حضنه فكان هذا الحضن الكبير للصغير آدم كالبرنوس الذي طال البحث عنه حتى فقد الأمل في أن يطوقه يوما، فتمنى لو أنه يظل فيه أبد العمر وكأنه في حلم لم يوقظه منه إلا حاضنه وهو يربت بكفه الكبيرة على كتفه الصغيرة وكأنه يخبره بأنه واقع لا حلم ثم قال : كيف حالك يا بني؟؟؟

سؤال صعب على آدم الإجابة عليه ربما لأن العم منصور كان أول من طرح عليه هذا السؤال منذ ولادته، وربما لأن حاله أكبر من أن تصفه إجابة فأجاب في الأخير بعد أن تنهد تنهيدة طويلة : ـ الحمد الله.

فناد العم منصور باسم خالد ولما أتى خالد أمره بإحضار كوب حليب ساخن مع الكعك لآدم وبدون أن يسأله حتى ماذا يشرب الحليب أو القهوة، لأن القهوة كانت خارج احتمالاته فمستحيل بالنسبة له كأب لهذا الطفل الصغير أن يشرب ابنه الذي لم يتجاوز عمره الإثنى عشر سنة غير الحليب، وفي غضون دقائق قليلة قدم الشاب لآدم طلبه وانصرف إلى عمله وآدم يشكره بحرارة، قبل أن يمسك كوب الحليب الساخن ويتجرعه دفعة واحدة كالحمل الحديث الولادة الذي يتذوق حليب أمه لأول مرة وهو يتلذذ طعم الحنان ودفء الأمان، وما إن حط آدم القدح على الطاولة حتى ناد العم منصور على الشاب من جديد وطلب منه إحضار كوب آخر فارتبك آدم وقال بخجل : ـ لا شكرا...

فلم يلتفت العم منصور إليه وحرك رأسه يشير إلى الشاب بتنفيذ طلبه، وظل العم منصور يتأمل آدم إلى أن أنهى الكوب كاملا والكعكة كاملة وهو يتألم، ثم قام معه واصطحبه إلى المطبخ وهو يحيطه بذراعه وأملى على الشاب خالد مجموعة من المهام التي يمكن لآدم أن يساعد بها في حال وجوده وحذره من السماح له بالاقتراب من الأشياء التي فيها خطر عليه كالفرن مثلا، وبمجرد أن انصرف العم منصور حتى أسرع آدم إلى عمله والفرح يغمره، وهكذا بدأ آدم يوم بفرح غامر وأنهاه بسعادة عارمة وقد ملأ له العم منصور كيسا مما لذ وطاب من الحلويات وأعطاه إياه وهو يودعه على أمل اللقاء به يوم الجمعة المقبل.

دخل آدم على أمه بوجهها المتورم، فانطفأت حمرة وجنتيه برؤيتها ثم ناد على ياسمين ورحاب لعل رؤيته لوجهيهما تخفف عليه القليل وهو يخبرها بأنه قد أحضر لهما الحلويات فأتت مهرولتان ولعابهما يسبقهما، فشكرته أمه وباركت عمله الجديد وأخذت تقسم لكل

نصيبه ولم تنس نصيب الغائب الحاضر محمد، وقبل أن تعطي رحاب حصتها كانت الشكولاطة قد أخذت الحصة الأكبر من وجهها الأسمر، ولما رأت مريم رحاب بتلك الصورة حاولت أن ترسم على وجهها الابتسامة عنوة وما إن ابتسمت حتى ضحك آدم وياسمين وكأنهم حقنوا بجرعة من السعادة ولو كانت مؤقتة بالنسبة لهم فهي سعادة كاذبة بالنسبة لمريم وكأنها تقول : ـ أقسى ابتسامة هي التي ترسم في محياك عنوة في وجه من تحزن لأجله بقوة، لعل الابتسامة تكون للسعادة قدوة...

****

مر أسبوع آخر فاستيقظ آدم متوجها إلى عمله و استيقظت مريم هي الأخرى وقد قررت أن تصحو من غفلتها فأيقظت بنتيها وبعثت بهما إلى الخالة أم الخير تستدعيها لأمر طارئ، وقد عزمت السؤال عن أشياء لعلها إن بدت لها حسنت حالها، فترافقتا ياسمين ورحاب والخوف رفيقهما الثالث وتوجهتا إلى الكوخ الذي تقطن به العجوز ليس لأنها فقيرة أو معدمة بل لأنها كانت تؤمن أن جذورها وعروقها تتغلغل في طينه ولو قبلت بالانتقال إلى بيت أحد أبنائها لأعدمت نفسها وستخرج روحها بأول خطوة لهجره، ولم يكن يفصل بينهما إلا منزل واحد، فطرقت رحاب بابه بقوة حتى كادت تخلعه، ففتحت لهما الباب إحدى بنات الخالة، وما إن فتح الباب حتى التفت حولهما مجموعة من الأطفال الذين تسللوا برؤوسهم قبل أرجلهم ينظرون من الوافد فلم يتعودوا أن يزور كوخ جدتهم سوى خالاتهم وأخوالهم فسألتهم المرأة : ـ من أنتما وماذا تريدان؟؟؟

فتلعثمت ياسمين وتشجعت رحاب قائلة : ـ نحن بنات مريم ونريد الخالة أم الخير...

وهي تشرئب برأسها إلى داخل الكوخ فابتسمت ابنة الخالة وانحنت نحوها ثم قالت بصوت دافئ : ـ أأنت رحاب أيتها جميلة؟؟؟

فردت رحاب : ـ نعم أنا رحاب وهذه أختي ياسمين...

فقالت وهي لا تزال تبتسم : ـ ما شاء الله مازلت جميلة مثل يوم ولادتك وأكثر...

فابتسمت رحاب وهي تنظر لياسمين بغرور فقبلت المرأة رحاب وكذا ياسمين قبلة من شأنها أن تنقص من غرور رحاب وأبلغتهما أن والدتها مريضة جدا ولا تستطيع لا الحركة ولا الكلام وبلغت أمهما السلام، وفي طريقهما للعودة طارت رحاب كالفراشة تاركة ياسمين تتعثر بين مخاوفها، وما إن وصلت رحاب حتى فتحت أمها الباب الذي كانت خلفه تنتظرهما، فنقلت رحاب الخبر المؤلم كخبر عاجل، ففزعت مريم للخبر وراحت تتأكد مصداقيته من ياسمين التي وصلت لاهثة وهي لا تزال تلتفت إلى الخلف تريد تأكيد هلوستها لكنها لم تؤكد غير الخبر الذي نبأت به رحاب، فخاب أمل مريم في تأكيد شكوكها التي كانت مستعدة أن تكذب صحتها وجفت كل آمالها في أن ترجع المياه إلى مجاريها بينها وبين زوجها لتستمر في عيش السنوات العجاف، لكنها لم تنوي الاستسلام فقد عزمت المخاطرة والخروج من المنزل لزيارتها بنفسها وإن كان الأمر سيفتح لها أبواب جهنم التي لم تغلق أبدا لكن النتائج التي كانت تصبو إليها كانت جديرة بالمغامرة، وما كان عليها سوى اختيار الزمن المناسب أين يكون الشارع خال ولا يخلو إلا في أيام الدراسة أو العمل وعليها أن تصبر لنهاية عطلة الأسبوع التي انقضى منها يوم وبقي آخر ومن صبر سنوات يصبر لساعات، وانقضت ساعات النهار وبغروب شمسه أشرقت شمس آدم على أختيه فظل الثلاثة في نشوة لا نظير لها إلا نشوة فراشات بحلول الربيع وهم يعيشون اللحظة ولا يفكرون في أن الربيع سينتهي تاركا المكان لحرارة الصيف اللافحة، وحتى النوم لم يستطع سلبهم من أحضان الفرح وقد كان الصغير آدم بطل السهرة بامتياز وهو يسرد تفاصيل يومه الجديد السعيد ورحاب وياسمين مندمجتان معه وتعيشان معه التفاصيل بكل حيوية أما مريم فقد كانت ابتسامتها حاضرة وهي غائبة تماما حتى أنهى آدم سهرته بنهاية عمله، وما

أتى به من غلة أعظم من عمله فتسابقتا أختيه تسألانه إذا ما سيعمل في الغد فهز رأسه علامة الإيجاب وهو يبتسم ابتسامة فخر.

دخل الجميع إلى الفراش لكن لم يخلد الجميع إلى النوم وكان بودهم أن يقفزوا إلى يوم الغد برمشة دونما غمضة، فآدم قد لبس ثوبا من الطاقة و الحيوية منسوجا بضحكات رحاب وياسمين التي غابت عن محيا هاته الأخيرة في الفترة الأخيرة وشد أزره بأزرار ابتسامة أمه الواهنة ورغم وهنها إلا أنها أعطته القوة و العزيمة، أما ياسمين ورحاب فكانتا لا تزالان تتلذذان حلاوة لعابها الذي لا يزال يتسايل كلما تذكرتا أن لهما في الغد حظ من نفس اللذة، أما مريم فقد اشتغل فكرها و تفكيرها بابنها محمد الذي لم يغب عن بالها للحظة إلا أنه في الليل يحتضن فكرها بشدة حتى ينام وهو مكبل بالهواجس و الهلوسات، بالإضافة إلى نبأ مرض العجوز أم الخير الذي أخلط كل حساباتها ففاض دمع مريم من المآقي حتى حفر على الخد مجار وسواق كادت الروح على اثره أن تبلغ التراقي.

انبلج الفجر وقد سبقه آدم إلى المقهى وسبق كليهما نبأ وفاة الخالة أم الخير الذي كان حديث العم منصور وحديث كل من تشارك طاولة في المقهى، ومع أذان الظهر شيعت جنازتها في جو مهيب أغلقت على إثره كل المحلات وهجوا يصلون عليها صلاة الجنازة و يوارونها الثرى وكلهم دعوات بأن يتغمد الرحيم روحها بالرحمة و المغفرة وأن يدخلها الفردوس الأعلى من أبوابه الواسعة.

رحلت العجوز أم الخير إلى بارئها وسكنت قبرها فعادت الحركة إلى الشارع الذي فيه كوخها ولكن ليس إلى كوخها الذي ساده السكون فقد كانت له حياة وقد صار بموتها مهجورا على حد قول الكبار ومسكونا بالأشباح على حد تعبير الصغار الذين كانوا يفزعون منه حتى في حياتها ويعتبرونه بيتا للأشباح، امتلأت المقهى على آخرها وكان الكل يثني على محاسن العجوز أم الخير التي أفنت حياتها وهي أما للخير عملا وقولا اسما على مسمى وكان

آدم يسترق السمع وهو يقدم القهوة لهذا ويأخذ الأكواب الفارغة من ذاك و لم يكن يعرف عن هاته العجوز الوقور كل هذه الخصال، فزياراتها إلى بيتهم كانت معدودة وليس إلا دعوة من أمه لتلبث معها مدة محدودة، ولم ينصرف الناس إلا بأذان المغرب أين أذن العم منصور بغلق المقهى، وبمجرد أن نظر إلى آدم وهو يودعه تذكر نصيبه من الحلويات فقدمها له وانصرف الكل منهم إلى المسجد لآداء صلاتهم ومنهم إلى منازلهم.

عاد آدم إلى المنزل وقد نال منه التعب وما إن فتحت له أمه الباب حتى هرولت رحاب تأخذ الكيس من يده وياسمين تتبع خطاها، أما مريم فأول ما نطقت به بعد رد السلام هو سؤالها عن صاحب الجنازة التي هزت خطى مشيعيها أرض الشارع، فنظر إليها نظرة حزينة عاجزة عن الإجابة وهو يعلم مكانة الخالة في قلب أمه، فكررت السؤال بالإلحاح ولو رآها أحد لظن أنها تظن أن أمها المتوفاة وبعد إلحاح شديد منها أجابها باقتضاب : ـ الخالة أم الخير...

فشهقت وشدت بيدها على قلبها وكأنها تخشى تحرره من بين قضبانه هروبا من الصاعقة التي سقطت عليه، فسقطت دمعة من عينها حزنا على فراق الفقيدة لتهطل بعدها أمطارا حارة حزنا على السر الذي أحرق حياتها ودفن مع الدفينة، حاول آدم أن يواسيها لكن ألمها كان أكبر من أن يواسيها فيه مخلوق ومع ذلك تظاهرت بصبرها وكظمت دموعها، ولما رأت أبناءها قد انشغلوا بالأكياس ومحتواها تسللت إلى الحمام وأغلقت الباب على نفسها فتصاعدت أنفاسها ونزلت دمعاتها بغزارة تبكي مرارة الصدف التي تخلت عن سرور محاسنها وأبدت شرور مساوئها لكن بكاءها تحول إلى موجة نحيب دخلت على إثرها متاهة السخط والقنوط و أخذت تلطم وجهها بكلتا يديها حتى خرت على الأرض لكن حالتها لم تدم طويلا، فسرعان ما انتصبت وكأن يدا ساعدتها على الوقوف واغترفت غرفة ماء وغمست بها وجهها الذي انكسرت ملامحه أكثر من المرآة المكسورة قبالتها ثم توضأت

وضوء أطفأ النار التي بجوفها وهي تستغفر ربها وكلها رضا بقضائه وقدره ثم خرجت وصلت ركعتين في خشوع وأتبعتها بدعوات كلها دموع.

في صباح اليوم التالي جاءت السيدة كوثر رفقة ابنها أمين كدأبها لكن ليس لتتركه عندها بل عزمت تسجيله في إحدى الزوايا القريبة من البيت لتعلم القرآن الكريم وتلاوته ريثما يحل الموسم الدراسي الجديد الذي سيكون بداية الدراسة بالنسبة لأمين رغم صغر سنه وعدم بلوغه السن القانوني لكن نفوذها كان يسمح لها بخرق القانون العام والخاص، وستسجله في الزاوية مؤقتا لأنها كانت تريد ترسيخ الدين الذي لم ترسخه عائلتها فيها من جهة، ومن جهة أخرى لأنها شعرت أن مريم التي كانت تؤمنها على ابنها هي مصدر خطر حتى عليه وعلى أبناءها،

فاطمئنت على جرح جبينها الذي لم يشف بعد، ثم أبلغتها أنها ستسجل أمين في زاوية قرآنية، فتفهت مريم الأمر وفهمت أنها صارت خطرا عليه، فلم تناقشها لأن أمين كان حملا ثقيلا وأزيح عن كاهلها، وقبل أن تنصرف كوثر اقترحت عليها تسجيل ياسمين ورحاب وهي ستدفع عنهما المبلغ الرمزي للزاوية كمحاولة منها لتخفيف الحمل عنها وهي تعلم الثقل الذي تحمله والذي جعلها لا تتحمل أي شيء خف أو ثقل، وهذا ما جعل مريم ترحب بالفكرة وتشكر كوثر عليها، وعندما همت كوثر بالخروج نادتها بصوت خنقته الحسرة : ـ كوثر... أعلمتي من توفيت بالأمس؟؟؟

فردت كوثر متعجبة : ـ لا فقد كنت في منزل أهلي وعدت في ساعة متأخرة...

فأطرقت مريم رأسها مرة أخرى و قالت : ـ الخالة أم الخير...

فاندهشت كوثر مع أنها لم تكن تعرفها لكنها تعرف بأنها كانت تعرف أمورا ليس غيرها يعرفها ولما رأت الحزن قد أسدل ستائره على وجه مريم أخفت اندهاشها وقالت : ـ رحمها الله وأسكنها فسيح جنانه ادعى لها بالرحمة حبيبتي...

فأردفت مريم بحسرة أكبر : ـ آمين... كنت سأذهب إليها اليوم لأتحقق الأمر...

فقالت كوثر مصبرة إياها : ـ إنسي الأمر ولا تشغلي فكرك وإن ماتت أم الخير فعسى الله أن يرزقك الخير من حيث لا تحتسبين...

وربتت على كتفها وانصرفت منسحبة بعدما انسحبت منها كل عبارات المواساة.

قابلت كوثر المعلمة التي كان النور الأبيض يشع من محياها رغم أنها كانت ترتدي جلبابا أسودا، فشعرت كوثر أنها عارية أمامها مع أنها كانت تلبس لباسا محتشما لذلك اختصرت كلماتها و أوصتها في ابنها مشيرة إلى بنتي عمته ياسمين ورحاب اللتان ستكونان برفقته ابتداء من يوم الغد بإذن الله، فرحبت المعلمة بأمين وحتى بياسمين و رحاب اللتان لم تلتحقا بعد.

غادرت كوثر إلى عيادتها وقد تلحفها الخجل من أخمص قديمها إلى آخر شعرة من رأسها وقد كان عملها من أولوياتها حتى بعد ولادة ابنها الذي بمجرد أن انتهت عطلة الأمومة بحثت له عن أم غيرها وائتمنتها عليه وهي التي لا تؤمن حتى على أولادها من شرور مكبوتاتها ولا عذر لكوثر إلا أنها لا تعرف حقيقتها التي اكتشفتها مؤخرا لكن من كان يعرف الواقع الحقيقي الذي تخفيه جدران ذاك القصر لا تخفى عليه الحالة النفسية التي تعانيها سجينته و شيء كهذا لا يخفى عليها هي بالذات وقد كانت تسمع بأذنيها صرخاتها آناء الليل و أطراف النهار و ترى بأم عينيها الجروح و الندوب و الآثار على جسمها الذي صار خريطة للألم بره جروح وبحره دماء، وقد وقع اختيار كوثر على مريم لأنها اعتبرتها مصدر أمان و منبع حنان لابنها ولكنها اكتشفت أنها مجرد وطن بلا أمان و محض أم مجردة من الحنان ومع هذا فقد انصاعت للأمر مقابل ألا تمس قدسية عملها المبجل ليس لطبيعته وإنما لوجوديته على حساب الموجودين في حياتها وحذت حذو زوجها الذي لم يستطع المكوث في وطنه بحجة أن عمله خارجه لتثبت زوجته غيابها أيضا كأم أو حتى كطبيبة في

نزوات البرد أو الإسهال أو القيء التي من الطبيعي أن يتعرض لها أي طفل لكن ما ليس من الطبيعي أن يتعرض لهذه الأعراض طفل لطبيبة الأطفال وقد تركته بين يدي امرأة أمية أقصى ما يمكنها فعله هو تخفيض درجة حرارته بعد مد و جزر قطرات العرق المتصببة من جبينه و سائر جسده لتأتي في المساء أمه الطبيبة و قد داوت ابن فلان وفلان وابنها ينتظر دوره ليحظى منها بملعقة من قارورة وهي تبرر غيابها بأحكام الضرورة، ليحكم على أمين باليتم وأبواه على قيد الحياة وكما قال أحمد شوقي :

ليس اليتيم من انتهى أبواه من هم الحياة وخلفاه ذليلا

إن اليتيم هو الذي تلقى له أما تخلت أو أبا مشغولا.

أما أم محمد فقد كانت تشغلها زيارات ابنها محمد الذي كان يزورها كل نهاية أسبوع وتقلصت لتصبح مرة نهاية الشهر وهو يحمل أكياس المؤونة لعائلته الكبيرة التي هو مجبر على إعالتها بدخله الصغير لا لشيء إلا لأنه إبنها الكبير و يرحل في الصباح الباكر ويترك من يخلفه لكن بسن أصغر ودخل أقل، وقد صار آدم يتجه مباشرة من المدرسة إلى المقهى وما إن يأتي مساء بالكاد يحل واجبه و يستسلم للنوم أحيانا على فراشه و أحيانا أخرى يتوسد دفاتره و كتبه و القلم بيده، أما ياسمين و رحاب و أمين فقد كانوا يقضون النهار بطوله في الزاوية ولا يرجعون إلا بعد العصر وتظل مريم وحدها طول اليوم و لا ويؤنسها في وحدتها إلا هلوساتها التي تؤرقها ليلا و تقلقها نهارا وبين هذا وذاك يظل خوفها من زوجها حاجزا بينها وبين وضع النقاط على الحروف التي وإن تجرأت على وضعها فسيتجاهل قراءتها و إن قرأها فلن يصدقها، لتجد نفسها كمحكوم عليه بالإعدام أو بالأحرى كمحكوم عليه بالحبس المؤبد فالأول تنطفئ مخاوفه بمجرد سقوط حبل المشنقة أما الثاني فمخاوفه تظل تخنقه للأبد، وعزاؤها أن أبناءها كانوا يكبرون كبر الحزن في قلبها وبالأخص إبنها الأكبر محمد الذي كان يفاجؤها في كل زيارة بتغيرات في جسده الذي صار ممتلئا وبكتفين عريضين

مع تغيرات في ملامحه مع ظهور شعيرات زادت وسامة وجهه الذي أحرقته الشمس فأكسبته سمرة أكثر من سمرة أخته رحاب، بالإضافة إلى تغيرات أخرى لم تكن لتلمحها ولو لمحتها لمنعت حدوثها أو حاولت على الأقل كأمر تدخينه لبقايا السجائر الذي لم تلحظه مريم وإن لاحظته لما استطاعت تغييره على غرار عجزها في أمر دراسته و عمله وكذا رحيله من المنزل الذي هرب منه كل إخوته صغيرهم وكبيرهم ولكل وجهته آمنة كانت أو عكس ذلك، وقد كانت الزاوية و معلمتها آأمن لياسمين و رحاب وحتى لأمين وهم يقضون فيها أيام طمأنينة وسلام، خصوصا بالنسبة لياسمين التي كانت تساعدها قراءة القرآن الكريم و حفظه رفقة أمين و رحاب و باقي زملائها على تحسين نطقها لاسيما عندما تكون القراءة جماعية مما يساعدها على امتصاص خجلها و إطلاق العنان لصوتها و لكنها تسبح في بحره إذا ما حان موعد القراءة الفردية وتغرق فيه إذا ما تسللت إلى مسامعها أصوات ضحكات زملائها، وهذا ما يستوجب على أمين مساعدتها فتستوقفه المعلمة وتلتفت إلى البقية وهي توبخهم و تذكرهم بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي ينهى فيه عن السخرية، وتطلب من ياسمين المواصلة وهي تشجعها حتى النهاية فيصفق الجميع عليها في حملة بدأها أمين وهو آخر المتوقفين وقد احمرت يداه بنفس درجة حمرة وجنتا ياسمين، ولا يسلم من الخجل إلا فصيحة اللسان رحاب، أما أمين فقد كان ينعقد لسانه إذا ما التقى بحرف السين في إحدى الآيات لكن اليوم هو يوم مصيري بالنسبة له وقد طلبت منهم المعلمة حفظ سورة الناس في المنزل و عرضها عليها فردا فردا، فظل أمين مرتبكا إلى حين وصول دوره حيث بدأ بتلاوة آيات السورة بسرعة لكي لا يلحظ أحد عجزه عن نطق حرف السين وخروجه ثاء، لكنهم لاحظوا ذلك بسرعة تفوق سرعة قراءته أو أنهم كانوا ينتظرون دوره لينفجر الكل ضاحكا باستثناء ياسمين ربما، ولم يهدأ صخب قهقهاتهم إلا بضربات المعلمة على لوح السبورة ولم تعد عن سخريتهم صبورة، الأمر الذي أثار استياء أمين وكذا ياسمين، ولحسن

حظ الساخرين أنه قد حان موعد الخروج، ولما خرج الكل نادت المعلمة ياسمين وأمين وتبعتهما رحاب فراحت المعلمة ترفع معنوياتهما خصوصا وأنهما الحالتان الخاصتان الوحيدتان اللتان تعانيان مشكلا في النطق ولكي تحفزهما و تشجعهما أكثر وعدتهما بجائزة في يوم الغد الأمر الذي أفرحهما بشدة وأثار في رحاب غيرة بالغة الحدة، إلى حد أنها تخلفت عن رفقتهما في الطريق وهي تضحك عليهما خلسة وهي تسمع ياسمين بلعثمتها المعتادة تلقن أمين حرف السين على حدا أو في كلمات تحوي الحرف الذي استعصى على لسانه إلى درجة أنه تمنى لو أنه يستطيع حذفه من الحروف الأبجدية ويبقى الياسمين ثمينا للأبد.

****

انقضى الأسبوع وكان ختامه أطيب من المسك بالنسبة لمريم عندما عادت عصافيرها الصغار إلى عشهم يغردون ويمرحون حتى حط بينهم العصفور الكبير الذي طار بعيدا وترك أمه جريحة وبجناحين مكسورين، و قبل أن يثبت ظله على الأرض حتى تهافت عليه الثلاثة يسلمون عليه مقابل حبات اللبان والحلوى، وما إن انتهى ورفع رأسه حتى شخص بصره عنهم في منظر أمه و الختم الجديد في يسار جبينها، فامتقع وجهه واقشعر بدنه من فظاعة المشهد ولكنه ابتلع كل ذلك كالجمرة وتقدم نحوها و قبل الجبين الجريح فسال من مقلتيها دمع ليس له قبيل و كأنها تشتكي له وليس لها غير الدمع سبيل، فحاول إسكاتها وهو يمسك كتفيها النحيلتين بكلتا يديه الخشنتين ويسألها في غضب سؤالا يعلم جوابه مسبقا : ـ من فعل بك هذا يا أمي؟؟؟

وكرر السؤال عليها وقد ازداد تقطب حاجبيه لكنها عن الكلام سكتت و الدموع من مآقيها انسكبت وليتها تكلمت وما بكت وأوقدت الجمرة التي ابتلعها لتوه وغدت نارا لكنه أخمدها إلى أن يحين أجلها.

ظل محمد جالسا في صمت وكأنه ينتظر شيئا وقد تمكن من أعصابه القلق والغضب وما إن طرق الباب حتى هرول يفتحه وكأن الشخص الذي ينتظره قد أتى، لكن لم يكن الطارق غريمه بل كان آدم الذي رمقه بنظرات وكأنه غريب قد اقتحم منزلهم في غيابه، فمد محمد يده لمصافحته رجلا لرجل فصافحه الرجل لكن الطفل ارتمى في حضنه البارد وكأنه يعاتبه على التشوه الذي رآه في وجه أمه، وكأنه لا يعلم أن أبشع التشوهات هي التي تصيب شغاف القلب وتمزق نياطه ولا يراه إلا من يملك منظارا للقلب لا للقالب، فاجتث آدم نفسه من حضن أخيه محمد الذي كان كالجبل الجليدي الذي يوشك على الانهيار، ودخل باحثا عن مصدر حرارة آخر ليدفئه، فكان المصدر ياسمين كالعادة التي كلما أشرق على سماءها كانت له بدفيء الشمس التي ترسل أشعة ابتسامتها فتخترق غيومه، على عكس الصغيرة رحاب التي كانت تغمره بحرارة حارقة أيام العطل فقط ولكن آدم كان يغمر ياسمين بعطائه طيلة أيام الأسبوع لأنه كان يأخذ حصته كل صباح حتى في الأيام التي يدرس ولا يعمل فيها، وذلك بأمر من العم منصور الذي تعود على ابتسامة آدم المشرقة لبدأ يومه، لكن هذا الصغير كان يؤثر على نفسه ويترك قطعة الكعك تلك في محفظته طول اليوم ولا يفكر للحظة في أن يقضم منها قضمة صغيرة ولو اعتصر الجوع معدته و لوى أمعاءه ليأتي في المساء ويعطيها لياسمين خلسة مقابل ابتسامتها البريئة التي كان سيحظى بها دونما مقابل، فتدخل ياسمين وهو يبقى خلف الباب المغلق يحرسه وإذا ما حاولت مشاطرتها معه قال : ـ لا شكرا أكلت في المدرسة...

فتحمر خدودها وتهمس : أأترك منها لأمين...

فيقول باقتضاب : ـ لا.

ثم يردف بحنو : ـ سأحضر ما يكفي للجميع نهاية الأسبوع...

فتباشر بالأكل وهو يتأملها مبتسما وعندما تكمل ينظر إليها متفحصا ليتأكد من أن لا أثر على وجهها، وإذا ما وجد أثرا مسحه قبل أن يخرج هو وتخرج هي بعده وكأنها شيئا لم تأكل ثم تتملص خفية لتعطي أمين ما تركته له وخبأته عن آدم وعن الكل.

طرق الباب من جديد فنهض محمد يفتحه فهو لا يفوت على نفسه شرف وسام رجل البيت ولو أنه تنازل عنه ورماه ورحل تاركا الصغير آدم يصارع لتلميعه، فكانت الخالة كوثر على الباب فسلم عليها هي الأخرى ببرود و حتى عندما أبدت إعجابها ببنيته وشكله وقد اجرأش جسمه رد عليها بابتسامة لا تقل برودا وهو يفسح المجال لأمين الذي لملم أغراضه كالعادة وأسرع لملاقاة أمه فاصطحبته وصعدت، فأوصد محمد الباب خلفهما و أحكم إغلاقه من الداخل لكي لا يستطيع أحد فتحه من الخارج ولو كان يملك المفتاح، وعاد إلى مجلسه متأهبا لاستقبال الطارق القادم.

أما مريم فكانت قابعة في المطبخ تطهو خيبتها على نار قلبها لأن مطبخها كان خاليا بانتظار مؤونة محمد بين حبوب جافة و المعجنات التي لم تكن بالحجم الكافي لإطلاق عليها اسم مؤونة لأنها لم تكن تصمد إلا لأيام معدودة بعد تقشف شديد من أمه، بالإضافة إلى أن محمد قد أنقص فيها كثيرا وحجته في ذلك غلاء الأسعار، أما السبب الحقيقي هو المصاريف المستجدة عليه والمتعلقة بعلب السجائر لأن البقايا لم تعد تشبعه.

أما آدم فقد كان مغموسا كدأبه بين كتبه ودفاتره خصوصا وأن موعد الامتحانات قد اقترب، أما ياسمين فبعدما أنهت أوراق الرسم خاصتها طلبت من آدم أن يعطيها بخجل وهي تعلم مسبقا أنه لن يردها خائبة بشرط أن تريه ما رسمت وبينما هي منهمكة في الرسم كانت رحاب تحاول تقليدها لكن كل ما كانت ترسمه هو خربشات عائمة تمزقها في الأخير بخيبة وفي بعض الأحيان تمزق حتى ما رسمته ياسمين من غيرتها وهذا ما فعلته اليوم وياسمين تهم برفع ما رسمت لتريه لآدم ولم يشفع لها حتى جميلها الأخير بعد أن مزقت

ورقة من كراسها وأعطتها إياها بعدما رفض آدم أن يعطيها لأنه يعلم مآلها، فتقوس فم ياسمين و اغرورقت عيناها بالدمع فلم يتحمل آدم ذلك فهرول يجري خلف رحاب التي هربت تختبئ خلف محمد الذي كان يتحسس الخطوات التي لم يسمع لها حسيس بعد.

وما هي إلا دقائق حتى رفع أذان العشاء فنهض محمد يتوضأ و ربما صلاته كانت العمود الثابت الوحيد الذي لم يهدم بعد، في هذه الأثناء طرق الباب بقوة بعد أن حاول الطارق فتحه من الخارج وفشل، فأسرعت مريم تفتحه وما إن دخل الوحش حتى تعالت صرخاته بسبب الباب المغلق من الداخل وازدادت صرخاته قوة بعد أن دلف إلى غرفته وهو يقول : ـ ما هذا ؟؟؟

من سمح لك بتغير مكان الأثاث أيتها الغبية ؟؟؟

وكانت أصابع يده قد تغلغلت في شعر المسكينة مريم أما اليد الأخرى فقد كانت تتهيأ للكمها وقد أغمضت مريم عيناها تتهيأ لاستقبالها، لكن لكمة مبللة لطمت وجه منذر بقوة مع أنها لم تكن بالقوة التي تؤثر على أشرس مثله، فصرخت مريم ويدها تغلق فوهة فاها وقد تطايرت الحمم من فوهة بركات منذر الذي أفلت شعرها والتفت ثائرا وازداد ثورة عندما رأى محمد ببنيته الجديدة وهو يقف أمامه بجرأة و يصرخ في وجهه بأعلى صوته : ـ اضربني إن أردت لكن أحذرك أن تمد يدك على...

وقبل أن ينهي تهديده قاطعه أبوه بلكمة أردته أرضا فهوى عليه بسلسلة من اللكمات لم تستطع لا مريم ولا آدم من إيقاف ثورته التي كسرت أنفه النازف ربما.

أما ياسمين ورحاب فقد كانتا شاخصتان عند باب الغرفة، لكن رحاب لم يرقها الشخوص طويلا فكسرته وهي تجري نحو أبيها وتغرز أنيابها الصغيرة في فخذه وعضته عضة كفيلة بأن تجعله يشخص مكانه وفرت هاربة قبل أن يلمح طيفها، فاغتنم محمد الفرصة وهرب إلى

غرفة أخرى وأمه وأخوه يساعدانه، ولكن محمد سرعان ما شخص هو الآخر لما رأى الدم فخر مغشيا عليه.

لم يكن محمد بالقوة التي تخيف منذر لكن عزيمته وثقته في نفسه كانت كفيلة بزعزعة جبروته وهو الذي لم يقف في وجهه من قبل أحد، فتهاوى بأحقاده على حافة سريره ثم هدأ الوضع وساد السكون أرجاء البيت إلا من تمتمات مريم وأبناءها وتنهيدات منذر المتصاعدة قبل أن يتصاعد صوته مناديا على ياسمين ورحاب ومن العجيب أنه لا يزال يتذكر اسميهما اللذين قلما يستعملهما وكثيرا ما كان يعوضهما بأسماء بعض الحيوانات أو بعض الصفات، وقبل أن يكرر النداء للمرة الثانية كانت ياسمين ماثلة أمامه بوقفتها المائلة على عكس رحاب التي امتنعت عن تلبية ندائه، فنظر إليها نظرات تنفث الشر من أحداقه وقال بصوت كالرعد : ـ أنت من قام بعضي ؟؟؟

فردت بصوت متلعثم ومرتجف في آن واحد و بشفتين مرتعدتين : ـ لست أنا...

فانقض بكفيه الكبيرتين على كتفيها الصغيرتين وكشر عن أنيابه صارخا : ـ ومن إذن ؟؟؟

فلم يسمع منها إجابة ولكنه سمع حسيس شيئا آخرا وما إن أنزل رأسه يتحسس الأمر حتى أفلتها وتركها تسقط أرضا وسط بركة بولها، وقبل أن تنهض قام بركلها بقدمه الضخم ركلة قذفت بها عند باب الغرفة، أما قدمه الثانية فقد انزلقت وعن الأرض رفعته وفي البركة أوقعته فهربت ياسمين وما إن غاب مشهد الذئب عن عينها حتى حل مشهد الخراف وأمهم النعجة خلف الحائط مكتوفي الأيدي فالأذن سميعة والعين بصيرة و اليد قصيرة.

اجتمع شمل العائلة في غرفة واحدة يفترشون القهر ويلتحفون الصبر و يتبادلون أطراف النظر قبل أن تسرق ياسمين طرفه قائلة بهدوء : ـ انزلق... صعد إلى السماء وسقط على الأرض...

وضحكت فضحك الجميع وكأنهم بحاجة إلى بصيص ابتسامة ونام الجميع بعدها.

قبل أذان الفجر استيقظ منذر كعادته ولم يوقظ مريم كغير عادته وتسلل إلى خارج البيت دون أن ينتبه له أحد، ومع أذان الفجر استيقظت مريم وأيقظت محمد وآدم وكانت الصلاة أكثر خصلة تحرص على غرسها فيهم وكانت بذرتها في نمو وهي تسقيها كلما سمحت لها الفرصة، صلى الثلاثة وقد لاحظوا غياب منذر وهو الشيء الذي لا يخفى على أحد حتى على جدران البيت التي ثبتت بعدما كانت مرتعشة.

طهت مريم القهوة ودعتهما لاحتسائها فاعتذر آدم في الأول لكنه غير رأيه وانضم إليهما مغتنما وجود محمد ليسرق بعضا من الدفء المنثور، لأن أمه ليس من عادتها أن تنهض معه أو طهو القهوة له صباحا، وساد الصمت مجلسهم إلا من بعض الأسئلة من محمد فيما يخص عمله الجديد أما الدراسة فقد طوى دفاترها دون رجعة، وقبل أن يجيبه على آخر سؤال انتفض وقد انتبه لتوه للوقت واستأذن مستعجلا فاستوقفه محمد قائلا : ـ انتظر سنذهب سوية...

فاستاءت مريم وطلبت من محمد البقاء معها لكنه اعتذر متحججا بأنه سيذهب إلى السوق الأسبوعي الذي يفتح أبوابه كل صباح يوم الجمعة.

انقضى اليوم بسرعة فعاد آدم يحمل ما لذ وطاب من الحلويات الشهية كعادته فاستقبلته أمه بطلة بهية كغير عادتها فناولها الكيس وهو يثني على جمالها فأثنت هي بدورها على محمد قبل أن تقتحم رحاب قصيدة ثنائها وتقاطعها منادية على آدم وهي تبسم و غمازاتاها تشد على خديها وعيناها ترفرف برموشها السوداء الكثيفة كغزال الريم وهي ترقص بشعرها الأسود الطويل المقسوم إلى نصفين بأخدود من ناصيتها إلى قافيتها وكل نصف مربوط بشريط أصفر فغدت كفراشة في أول أيام الربيع وهي تلبس فستانا أصفرا أضفى على سمرتها بريقا وسحرا لا مثيل له.

كانت رحاب تشبه أباها إلى حد ما وهذا ما لم يكن يروقها سماعه، فأثنى عليها آدم ثناء يليق بغرورها و تبجحها والتفت يبحث عن ياسمين لا ليرى جمالها فجمالها كان ينافس أجمل الأزهار في الربيع وغيره من الفصول، فسأل أمه عنها فأجابته بحركة رأسها وحاجبيها توحي بأنها في الداخل، فأسرع إليها ليجدها تجلس القرفصاء وهي تلبس فستانا ورديا وهي كملاك سقط من السماء ليتمثل في أخته ياسمين، فناداها لكنها أعرضت عنه فاقترب منها ومد يده يرفع ناظرها نحوه فرأى الدمع يترقرق في عينها العسليتين فغدت كالعسل في شهده مع أنهما سرقتا من العسل حلاوته ووجنتاها تتمرد على وجهها الأبيض وتحتل ضفتيه الشرقية وكذا الغربية انحيازا للون الفستان الذي كانت تلبسه، فسألها آدم : ـ ما بها الجميلة كئيبة وهي تلبس ثوب الفرح ؟؟؟

فأجابته بثغر متقوس وصوت متلعثم : ـ لست جميلة وفستاني ليس جميلا أيضا...

فأجابها : فستانك جميل جدا لكنك تفوقينه جمالا...

فابتسمت وبرقت عيناها وقالت : لكن رحاب أخبرتني أنه ليس جميلا وأن فستانها أجمل من فستاني...

فضحك آدم واقترب منها وهمس في أذنها : فستانك أجمل بكثير من فستانها، وأنت أجمل منها بكثير لقد أصبحت تشبه النحلة...

فضحكت وقالت بصوت مرتفع : ـ وأنا ؟؟؟

فالتفت يمينا وشمالا ثم قال : تشبهين الفرااااشة...

في هذه الأثناء دخلت رحاب مسرعة وكأن أحدا يناديها وقالت بتذمر : لقد قلت بأنني الفرااااشة...

فالتفت إليها ليجد نفسه في مأزق صعب الخروج منه فتحذلق قليلا وقال : ـ أنت فراشة صفراء وهي فراشة بيضاء...

والتفت إلى ياسمين يغمزها بطرف عينه وهو يبتسم وسط ابتسامة رضا من ياسمين ورحاب على حد سواء.

عاد محمد إلى مكان إقامته الذي كان مجرد قبو صغير مجرد من أبسط شروط العيش وإن كان الهواء أبسطها، فقد كان الهواء الذي يتسلل إليه لا يكفي لأربعة من الرجال و محمد خامسهم الذين كانوا يقضون عطلة آخر الأسبوع مع أهاليهم باستثناء أحدهم الذي كان يقطن خارج الولاية، ولكنه كان خارج القلوب أيضا فقد كان منبوذا من طرف الرجال الثلاثة الذين كانوا عنوانا للرزانة وحسن الخلق ولا عملة لهم غير الشرف أما ذاك الشاب فقد كان رمزا للنذالة وسوء الخلق حد القرف، وهذا ما أدى بمحمد إلى الابتعاد عنه قدر الإمكان وعدم الخوض معه في أي علاقة لا رفقة ولا صداقة لا سيما أنه في سن المراهقة ويسهل على هذا الشاب سحبه من يده دون تعب أو إرهاق.

دخل محمد القبو ولحسن حظه لم يجد أحدا فيه فقد كان مخنوقا ورأسه يكاد ينفجر ألما ولا يحتمل مصدرا آخرا للإزعاج فاختلى بنفسه وبأفكاره وأصابعه تحتضن السيجارة تلو الأخرى، وما فتئ يكمل العلبة الأولى حتى قطع خلوته الشاب عادل لا غيره، فأفشى السلام مع أنه كان ينوي الحرب وأردف :ـ ما بك يا صاح ؟؟؟

فرد محمد السلام وأنكر ما وشت به ملامحه ونفث دخان سيجارته وقال باقتضاب : ـ لا شيء...

لكن عادل لم يكن ليفوت على نفسه فرصة كهذه لاصطياد فريسته فقال ملحا : ـ كيف لا شيء ووجهك يقول كل شيء إلا أنك بخير...

فزجر محمد وصرخ في وجهه : ـ قلت لك لا شيء...

ثم صمت قليلا وأردف بصوت هادئ : ـ رأسي يؤلمني بعض الشيء فقط...

فابتسم الشاب ابتسامة ماكرة وقال : ـ بسيطة يا صاحبي...

ومد يده إلى جيبه وأخرج علبة من الأقراص وقربها نحوه وهو يقول : ـ هي مسكنات للألم...

فامتنع محمد عن أخذها وقال معرضا : ـ لا، شكرا لك...

فوضع الشاب علبة الأقراص أمام علبة السجائر ورد عليه وهو يولي وجهه عنه : ـ كما تشاء هي أمامك في حال غيرت رأيك...

استمر محمد في إعراضه وتجاهله وواصل التدخين وفكره يتصاعد مع الدخان المتصاعد ونفسيته تتهاوى حتى بلغت الحضيض وهو يفكر في الطريقة التي يستعملها مع أبوه مع مراعاة مكانته التي التي انتهكها بنفسه لكن نفس محمد التي تكاد تختنق أنفاسها وتأبى ذلك وإن كانت نفس أبيه أمارة بالسوء، وتنهيداته تتصاعد وصوت ضميره لا يضمر ويكاد يحرقه وهو يؤنبه على اللكمة التي وجهها إليه ليلة أمس مع أنها خرجت عن طوعه دون سابق إصرار أو ترصد فوجد نفسه مجبرا على اجتياز اختبار وليس له في ذلك خيار وهو لا يملك الإجابة عن السؤال لأنه لم يتعلم الدرس في كل الأحوال، ومن شدة التفكير اشتد ألم رأسه ولم يعد يقوى على الاحتمال فغرته نفسه وخانته يده وابتلع الحبة فأصدر بطنه صدى كدلو أدلي في بئر عميق، أما صداها على عقله فقد زال ألم رأسه كليا وقد توهجت متاهات فكره واضمحل كل ما كان يشعره بالتوتر أو القلق وكأن سراجا قد أنار عتمة دربه فحول الأشواك إلى زهور من شتى الأنواع وزين سماءه ببالونات بأزهى الألوان وصار هو كالعصفور تداعبه أنسام الهواء من كل صوب وحدب، وكل ريشة من جسمه تدغدغه بكل حب.

هكذا أصبح هذا الشاب أول صديق وأعز رفيق لمحمد يجمعهم العمل في النهار والسهر والسمر في الليل، حتى بات يتخلف عن زيارة أهله لا سيما أنه قد صار فارغ الجيوب وكل ما يجنيه يشتري به الحبوب من عند صديقه الذي كان يبيعها له بأضعاف ثمنها

وهو يمتنع عن بيعه في كل مرة بحجة أن ثمنها قد ارتفع مما يجبر محمد على الرضوخ للثمن بعد أن تسيل دماؤه وهو يضرب رأسه على الحائط من شدة الألم.

وفي إحدى الليالي راود محمد شك فسأل صاحبه قائلا : ـ لما تبيعني من الأقراص خاصتك ولما لا تعطيني اسمها وأشتريها بنفسي من الصيدلية التي بالجوار أو غيرها ؟؟؟

فضحك صديقه وأجابه : ـ أتظن أن مثل هذه الحبوب تباع في الصيدليات العادية...

فاندهش محمد وهو يحاول تفنيد شكوكه التي راودته في أنه يسرق منه المال، أما بخصوص الأقراص فلم يكن يعرف عنها سوى أنها دواء، فأردف صديقه ليقطع طريق شكوكه باليقين الملفق : ـ هي مستوردة من الخارج وإلا لما كانت بهذه الدرجة من الفعالية، ولو تعلم المشقة التي أعانيها للحصول عليها لدفعت لي حقها وحق أتعابي...

فابتسم محمد ببراءة وربت على كتف خادعه وهو يقول بامتنان : ـ شكرا يا أخي... أو لست أخي ؟؟؟

فرد عليه عدوه بابتسامة خبيثة وقال : ـ هذا أمر مؤكد...

فاستطرد محمد بعد أن لوى ذراعه حول عنقه وقال ممازحا : ـ لا أدري لما كانوا يبعدونني عنك وأنت بمثل هذه الطيبة...

فقد حاول رفقاء محمد في القبو وكذا في العمل نصحه بالابتعاد عن ذلك الشاب الذي كان يكبره بسنوات ليس لفارق العمر بينهما وإنما لفارق الخلق المنعدم فيه، لكن محمد كان يضرب بنصائحهم عرض نفس الحائط الذي كان يضرب رأسه عليه وهو يقول في سريرته : ـ أنا الذي لم ينصحني أبي فكيف لكم وأنا لست بابنكم أن تنصحوني ؟؟؟

طلبت الخالة كوثر من مريم اصطحاب ياسمين ورحاب معها إلى بيت أهلها نهاية الأسبوع، فلم تتردد للحظة وهي تعلم ما ينتظرهن إن اكتشف زوجها ذلك، وفي الصباح الباكر غادرتا رفقة خالتهما ورفقة أمين طبعا وهما بكامل أناقتهما الغير معهودة وبجمالهما

المعهود، فكانت بداية يوم تشع سعادة وفرحا من عيني ياسمين ورحاب على حد سواء لأنها المرة الأولى التي يخرجان فيها في نزهة، وقد كانت كوثر تقود سيارتها الفخمة التي كانت هدية من زوجها في أول عيد لزواجهما و أصوات الثلاثة تطغى على صوت المذياع وهم في الخلف يغنون ويرقصون ويصفقون تارة ويلوحون للسيارات خلفهم تارة أخرى، ولا يثبتون في أماكنهم إلا والسائقة تنهرهم بعد أن حجبوا عنها الرؤية في المرآة العاكسة لكن أرواحهم تبقى محلقة، حتى أمين الذي حفظ الطريق إلى بيت جده عن ظهر قلب لكنه أول مرة يفرح بزيارته بهذا الشكل.

ركنت كوثر السيارة وهي تقول بصوت بشوش : ـ هيا يا صغار لقد وصلنا...

فأخرج أمين رأسه من نافذة السيارة ليتأكد بنفسه وهو يقول : ـ لقد وصلنا بسرعة يا أمي...

فردت عليه أمه مبتسمة : ـ نعم يا صغيري، هذا لأنك كنت تلعب مع ياسمين ورحاب طول الطريق...

ترجلت كوثر من السيارة وفتحت للأطفال الباب فنزلوا الواحد تلو الآخر، وما إن وضعت ياسمين ورحاب قدمهما على الأرض حتى اشرئبت رؤوسهما في السماء وهما يحدقان في القصر العالي منبهرتان بجماله، فأمسك أمين بيديهما وسحبهما إلى الداخل أين كانت كوثر في انتظار دخولهما، وبمجرد أن وطأت قدمهما أرضية القصر حتى شدهت أبصارهما بسقفه المزركش بفسيفساء ساحرة ولم تنزل أبصارهما إلا بحضور الجدة ترحب بهم بحرارة وهي تعرف بنفسها لياسمين ولرحاب قائلة : ـ أنا أم كوثر وجدة أمين...

فابتسمت ياسمين ولم تقل شيئا، أما رحاب فلم تتقبل الفكرة وقالت والشك يراودها : ـ كيف تكونين جدة أمين وأنت لست عجوزا ؟؟؟

فضحك الجميع ثم قالت الجدة : ـ أرأيت أيتها الجميلة قلت له لا تناديني بجدتي ولكن على ما يبدو أحتاج لمساعدتك لإقناعه بذلك...

ثم زادت ابتسامتها إشراقا وأردفت : ـ لا شك أنك رحاب...

فردت رحاب متعجبة : ـ نعم، وهل تعرفينني ؟؟؟

فأجابتها مؤكدة : ـ ومن لا يعرف الجميلة رحاب ؟؟؟

فأمسك أمين بيد ياسمين وأخذ يلوح بها ويقول بحماس : ـ وهذه ياثمين...

فالتفتت إليها وقالت متداركة : ـ لماذا قلت لي يا أمين، وهل يحتاج الياسمين أن يعرف به ولو أنها أجمل من الياسمين في حد ذاته...

فتوردت ياسمين خجلا، فاستطردت الجدة قائلة : ـ ألم أقل أنها أجمل من الياسمين، فالياسمين أبيض ويبقى أبيضا أما ياسمين فبيضاء وإن خجلت توردت...

فضحك الكل مرة أخرى حتى الخادمة التي كانت تقدم لهم العصير، وقبل أن ينتهيا من شربه استعجلهما أمين بالذهاب إلى المزرعة التي هي في الجهة الخلفية للقصر، فترددت ياسمين بمرافقته أما رحاب فلم تتردد للحظة، لأن أمين قد أخبرهم مسبقا بأن المزرعة بها خيولا وهذا ما أثار خوف ياسمين و حماسة رحاب، فأمسك أمين بمعصم ياسمين مرة أخرى وجرها خلفه وهو يطمئنها.

كان جد أمين عند مدخل المزرعة يقرأ الجريدة تارة ويدخن سيجارته تارة أخرى ويتأمل الخيول تارة كبرى حتى قطع صفونه هتاف أمين ورفيقتيه وهم يتقدمون نحوه وكلهم حيوية ونشاط، فوقف الجد فرحا برؤيتهم قبل أن يطير أمين في حضنه ولم ينزل عن عشه إلا والجد يسأله : ـ من العروستان اللتان برفقتك ؟؟؟

فأشار أمين بسبابته وهو يقول مسرعا : ـ هذه ياثمين، وهذه رحاب...

وانقض على كتف جده وهو يلح عليه أن يركبه على الحصان، فقال الجد معرضا : ـ لا ركوب إلا على فرسك الصغير...

فقال أمين متذمرا : ـ إنه صغير يا جدي...

وهو يمسك بيده مترجيا، فأمسكت رحاب بيده الأخرى وأخذت تلح هي الأخرى، فما كان على الجد إلا أن يرضخ لهما بابتسامة عريضة، ثم ناد الفارس المسؤول عن المزرعة وطلب منه أن يركبهم الواحد تلو الآخر وهو يحذره من سقوطهم ويؤكد على ضرورة إلباسهم الخوضة، فانتفضت ياسمين وهي تقول في ارتباك : ـ أنا لن أركب...

فسألها الجد : ـ لماذا يا صغيرتي...

فقالت باقتضاب وتلعثم : ـ أ أ أخاف...

فقال أمين : ـ لا تخافي...

فهزت رأسها علامة الرفض القطعي، فانصرف أمين عنها لكنه لم يصرف نظره عنها وما إن أكمل جولته حتى عاد إليها مسرعا وهو يحثها ويحفزها على الركوب، لكنها لم تقتنع رغم إصراره ليعرض عليها في الأخير أن تركب فرسه الصغير وهو يشير إليه، فسأل جده الموافقة ثم سحبها نحوه وهي لم تبدي موافقتها بعد، لتجد نفسها فوق ظهر المهر الصغير وأمين يمسك به وهي تتمسك بأمين، فهكذا هي ياسمين لا تأمن على نفسها إلا ويدها في يد أمين الذي كان لمعصمها سوارا بكل صدر رحب و قلب ينبض بكل حب، أما رحاب فاغتنمت انشغال أمين لتبقى هي وقتا أكبر على ظهر الحصان.

وبهذا قضى الثلاثة يوما رائعا تمنوا لو أنه لا ينتهي أبدا، وحتى عندما دعتهم كوثر للمغادرة أبدوا استيائهم وطلبوا منها المزيد من الوقت للمرة الثانية لكنها أصرت لأن الوقت كان متأخرا لأنها تتجنب القيادة في الليل وهي تعد ياسمين ورحاب أن تصطحبهما معها كلما جاءت لزيارة أهلها، فامتثلوا لأوامرها وكلهم شوق وحنين للمرة القادمة.

انطلقت كوثر إلى وجهتها أما الثلاثة فكانت أبصارهم إلى الجهة المعاكسة وهم يلوحون للجد والجدة مودعين، وما إن اختفوا عن أنظارهم حتى جلسوا في أماكنهم وخيم الصمت عليهم فالتفتت كوثر تتحسس الأمر فوجدتهم قد استسلموا للنوم فابتسمت

وواصلت قيادتها في تأن، ورغم ذلك إلا أنها وصلت بسرعة فراحت توقظهم وهم في بحر نعاسهم يسبحون ليجدوا أنفسهم على شاطئه، فترجلو من السيارة وساروا بخطى متثاقلة وأجفان متلاصقة، فدخلوا ثلاثتهم وكوثر رابعتهم والتعب خامسهم وقاسمهم المشترك، فاستقبلتهم مريم بحفاوة وشكرت كوثر بحرارة أشغلت نار ضميرها وهي تشعر نحوهما بالتقصير فوعدتها أمام أمهما بأنها ستأخذهما معها أينما أخذت ابنها أمين بداية من نهاية الأسبوع القادم فطارتا فرحا حتى طار التعب من أجسادهم.

مضى الأسبوع بالنسبة لهم وكأنه شهر لكن انشغالهم بتلاوة القرآن وحفظه كانت أعظم نشوة وإن لم تكتمل إلا عند رحاب، فياسمين وأمين وإن حفظا بالشكل الصحيح فلا ينطقان بالشكل الأصح، وهو نفس الأسبوع بالنسبة لمريم لكن بمسافة أطول ويزداد طولا أسبوعا بعد أسبوع بغياب محمد الذي لم تملأ فراغه حتى الدموع، فاستيقظت صباحا والخيبة قرينتها، التفتت إلى مكان آدم فلم تجد غير البطانية مطوية والوسادة فوقها مستوية، فالتفتت إلى ياسمين ورحاب توقظهما واتجهت إلى المطبخ تحضر القهوة لتنخر ما بقي فيها من قوة، وما إن أنهت احتساء فنجان قهوتها عادت إلى الغرفة ظنا منها أن ابنتيها قد عادتا إلى النوم كعادتهما وستأتي كوثر بعد قليل لاصطحابهما في نزهة كما وعدتهما وهما لا تزالان نائمتان، فوجدت ياسمين قد أنهت تبديل ملابسها وتنتظرها لتمشط شعرها، أما رحاب فقد كانت متكورة في فراشها وهي غارقة في بركة بولها وترتعش بردا وخوفا من أمها التي كانت توطسها وطسا تكاد تتبول من أثره من جديد وهي مستيقظة، فالتفتت إليها مريم وتنهدت تنهيدة طويلة عريضة ثم أمرتها بالذهاب إلى الحمام وستوافيها بعد أن تمشط شعر أختها، فتسللت إلى الحمام وقد لمست في نبرة صوت أمها أنها قد نجت من العقاب الذي كانت لا تنجوا منه ولو بعد محاولاتها الحثيثة بإخفاء أثر فعلتها فلم ينفعها في ذلك لا تغيير مكانها إلى

مكان ياسمين لتلبسها التهمة ولا تغيير ملابسها وإخفاء الأخرى المبللة لأن رائحة فراشها أو ملابسها كانت تفضحها في كل مرة.

****

مر شهر ونصفه على آخر زيارة لمحمد مما أثار قلق أمه حتى غرقت في مستنقع الاكتئاب، وليس بوسعها فعل شيء سوى الانتظار والبكاء، أو إفراغ شحنات غيظها وحرقتها على ياسمين ورحاب، لا سيما ياسمين التي كان دلالها كدلال الباندا الزائد عن اللزوم الذي لا تتحمله حتى أمها الرؤوم، على عكس رحاب التي كانت ذكية لا تخطئ حتى تدرس الوضع، وإن أخطأت تداركت خطئها بحيلها لتبدو على صواب لتتكبد ياسمين الضرب لوحدها، وإن كشف أمرها تضرب الاثنين معا، فهكذا هي شريعة أمها لا يقابل الخطأ سوى الضرب.

طرق الباب فراحت مريم تجر خيبتها بين قدميها وتفتحه وكل أبواب الأمل قد أغلقت في وجهها وما إن فتحته حتى استبشرت سرائرها أملا وحبا وهي ترى محمد يقف على عتبة أحلامها، لكنها بقيت تنظر إليه وكأنها تبحث عن عضلاته الضائعة وهو يتحجج بطرقه للباب بأن مفتاحه ضائع، فعانقته محاولة تعويضه حبها الضائع وهي تتلمس ضلوعه البارزة وتحاول تضميد جروحه الضامرة.

وما إن أرخى الليل سدوله حتى أرخت الصدفة مساوئها بدخول منذر عليهم ليمتقع ويكفهر برؤيته وجه الجميع وكأنه حجب عن رئتيهم الهواء، أما منذر فقد احتقن وجهه غضبا عند رؤيته لابنه محمد وأخذته العزة بالإثم وقال آمرا : ـ أخرج من بيتي لا أريد أن أرى وجهك الذميم هنا مرة أخرى...

فنطقت مريم وما كانت لتنطق لولا أنها رأت محمدا قد انصاع للأمر وهو يهم بالخروج من بيتها وقد خرج من قبل من حضنها وقالت : ـ هذا بيتي وإبني سيبقى في بيته...

فتوقف محمد في مكانه ليسود بينهم الصمت لبرهة قبل أن يكسره أبوه بلكمة قوية على وجه أمه فنزفت شفتها أما نزيف قلبها فلم يتوقف من يوم الذي خان حبه لها وخان كل عهوده لها، فلم يتمالك محمد نفسه وكاد أن يغمى عليه فمزال منذ تلك الحادثة يغمى عليه إذا رأى الدم لكن الغضب احتقن في عروقه، فنسي كل الوعود التي قطعها بينه وبين نفسه في حق أبيه وخانها، كما نسي أن الوغد الذي أمامه يكون أباه الذي خان أبوتهم فانهال عليه ضربا أمام مرأى من إخوته وسط دموعهم التي امتزجت بدماء أمهم فأحرقتها ملوحتها فتزداد نزيفا بهروب محمد الذي ما كان هروبه إلا من حضن القهر إلى حضن الجمر.

****

انتهت السنة الدراسية بالنسبة لآدم فقد كان الوحيده الذي ينتسب إليها وقد أنهاها بتفوق كعادته ولكن لا أحد يكترث لتفوقه كالعادة، وحتى حصوله على شهادة التعليم الابتدائي لم يغير شيئا في أسرته، لكن في عمله آثر العم منصور أن يكسر هذه العادة ويقدم لكل المتواجدين في مقهاه مشروبات وحلويات على حسابه تعبيرا عن فرحته بنجاح آدم أو بتعبير آخر إعلان انتصاره بعد سنة من الكفاح.

رغم أن العطلة المدرسية لم تكن تختلف عن السنة الدراسية باستثناء حلول الصيف الذي كان كضيف يعانق الفقير بحرارة حتى يصاب جسمه بالجفاف، ويصافح الغني وهو يعقد معه عقد سياحة في مكتبه المكيف في جو شفاف.

ومع انتهاء العطلة الصيفية تبدأ السنة الدراسية الجديدة التي ستكلل بعودة ياسمين وبدخول أمين الذي لم يكن سنه يتجاوز الخمس سنوات أي أنه لم يبلغ بعد السن القانوني المقرر بست سنوات كاملة، لكن منصب الولي يحجز لابنه الذي لم يوف سنواته الستة تأشيرة موقعة من الوزارة التي كانت تدعو للتربية قبل التعليم لكن لكل قانون عام استثناء خاص.

ولما علمت رحاب بدخول كل من ياسمين وأمين إلى المدرسة وستبقى هي وحيدة أثارت استيائها على أمها وهي تسألها : ـ كيف يدخل أمين ولا أدخل أنا معه أيضا ؟؟؟

ألم نولد في نفس اليوم يا أمي ؟؟؟

فزفرت مريم في خيبة واستياء وقالت : ـ أمين إبن رجل الأعمال أحمد و الدكتورة كوثـــ...

فقاطعتها رحاب بحرقة : ـ وأنا ابنتك وابنة أبي...

فابتسمت مريم ابتسامة فاترة و أعرضت عنها وعن أسئلتها التي لن تفهم أجوبتها إلا لما تكبر، لكن رحاب رغم استيائها إلا أنها لم تيأس وبقيت تترصد دخول الخالة كوثر مساء لتكون كغيمة فوق سماءها وقد أمطرت عليها بتوسلاتها، وأمين وياسمين يساندانها بوقفتها الاحتجاجية ولم يهدؤوا إلا والسلطات العليا المتمثلة في الدكتورة كوثر تعدهم بأنها ستدرس مطلبهم وهي تعدهما بفعل كل ما بوسعها.

وفي صباح اليوم التالي لم تقصد عيادتها حتى عرجت على المدرسة وبمجرد أن دخلت مكتب المدير رحب بها وكأن الأرض لا تسعها وقبل أن تصرح بطلبها الذي بدأت تلمحه له حتى أخرج الختم وهو يوقع لها رخصة تخفيض السن.

فصل الصليف
الجريمة
R. W.

مرت خمس سنوات بمآسيها ولم يجف دمع مريم من مآقيها، فتعددت الأسباب والنبع واحد فسال دمعها شوقا وحنينا لابنها محمد الذي صار غريبا في منفاه ممنوعا من دخول وطنه إلا مرات نادرة يتسلل فيها كسارق في وضح النهار في غياب المستعمر الجبار الذي صارت أمه بين يديه كدمية يمارس عليها قواه وهو يتفنن في اللكمات والركلات التي صارت قليلا ما تسلم منها بوجود آدم الذي كان يتوسله ألا يضرب أمه كما يتوسل العبد لسيده، ورغم هذا إلا أن أباه كان قليلا ما يرضخ لتوسلاته المدعومة بترجيات أخته رحاب، أما ياسمين فلازلت تتلعثم في نطقها في الظروف العادية و تتبكم في الظروف القاسية باستثناء الظروف المؤقتة و المرتبطة أساسا بأوقات النزهات التي كانت ياسمين تقضي معظمها في التأمل ورسم لوحات تضيفها إلى معرض اللوحات المعلقة في غرفتها، والتي كانت أجملها لوحة لأمين على الجواد وقد كانت تسرق من الطبيعة ألوانها ومن الجواد أصالته ومن أمين بريق عينيه، لتكون هذه اللوحة ثمرة تشجيع الخالة كوثر بعد أن لمست الموهبة في أناملها الوردية وهي التي لم تشهد من قبل موهبة بهذه الروعة من طفلة فاقت عمرها سرعة، فاشترت لها كل المعدات الخاصة بالرسم ليكون لأمين حصة الأسد في لوحات ياسمين التي جعلت قلبها عرينا له منذ سنين، أما رحاب فأثارت موهبة أختها غيرتها التي وإن حاولت إخفاءها فضحتها عيناها، وحتى عندما طلبت منها ياسمين رسمت لوحة لها رفضت بغرور وكأن جمالها سيخدش ولن تستطيع ياسمين بأصابعها أو كما وصفتهم رحاب خشيباتها أن ترسم ملامحها الجميلة وإن استطاعت رسمها فلن تستطيع تلوينها بلون سمرتها الأخاذ.

بحلول شهر رمضان المعظم عظم وجع مريم وهي لا تدري أين فلذة كبدها وقرة عينها محمد، أيصوم النهار فقط أم أنه يصوم ليل نهار مثلهم، لم تعهد مريم نفحات الشهر الكريم بغياب نجمة من نجومها أو بدر سماءها فكيف لها أن تصوم الشهر الكريم ولم تثبت رؤيتها للهلال ولو زينت سماءها كل النجوم.

مرت العشر الأوائل ومريم تناجي الرحيم أن يرحمها وتكتحل عيناها برؤيته لعل قلبها ينبض للحياة من جديد لكنه لم يأت، ومرت العشر الثانية وهي تتوسل الغفور أن يغفر لها عدم استقامة قسطاسها بين أبناءها، لتمر العشر الأواخر وليس لها من الذنب غفران ولم تعتقها نيران الهجران.

حل عيد الفطر المبارك وحلت معه النفحات الإيمانية في أرواحهم وإن لم يغير حلوله على أجسادهم حلة، وهذا ما لم تتعود عليه ياسمين وهي تشهد تزين الحي بورود ملونة بأزهى الألوان أما هي فيكفيها أنها ياسمين ولو كانت ذابلة، فتكتفي باختلاس النظر من وراء ثقب الباب وقد تسللت على وجنتاها دمعات تحاول سقيها دون أن تطرق الباب، أما رحاب فمازلت مستمرة بتظاهرها بالقوة وتجاهلها لمثل هذه الأمور واعتبارها تافهة ولكن خلدها مجروح بجروح لا تروم من مثل هذه الأمور.

أما مريم فقد ظهرت الحروق على جسدها بعد أن استفحلت على روحها حتى أحالتها إلى رماد، وقد استيقظت صباحا كعادتها في هذا اليوم الغير العادي وصلت صلاة الفجر وكلها خشوع في كل سجود وركوع وقد أغرقتها في محرابها الدموع كأنها انفجرت من الأرض ينبوع وقد انطفأت في وجهها كل الشموع فأشعلت الموقد ووضعت عليه قدرا به ماء تحاول تدفئة برودة القدر القاسية التي أجبرتها على الخضوع وبدأ الماء بالغليان فتصاعد البخار وكأنه يغري روحها بالصعود إلى بارئها وقد أشفق على جسمها الذي جبل على الحزن وهو جزوع قبل أن يدخل عليها آدم ويصبح عليها بحيوية جعلتها تنتفض في هلوع فقلبت القدر بمائه عليها، فهلع آدم وهرع نحوها في ذهول وعقله عن التفكير مخبول، فأصبح يحوم حولها كالطائر الصغير، ولكنه تفطن إلى وجوب طلب المساعدة من الخالة كوثر فهرول نحو الباب لكنه تذكر أن اليوم يوم عيد والخالة تقضي العيد عند أهلها كدأبها، فعاد أدراجه محاولا مساعدتها وقد هدأت عن الصراخ لكن جسدها بحمرة الحروق قد تهيج

وازداد تهيجا عندما طلبت من آدم إعطائها قارورة الزيت لتدهن به فيصبح متوهجا كالجمرة، فلم يتحمل آدم هذا المنظر المروع ولم يتحمل الانسحاب وتركها لوحدها تصارع وظل معها إلى تحسن حالها قليلا أو أنها تظاهرت بذلك لينصرف إلى عمله الذي تأخر عنه بساعة أو أكثر من ذلك.

خرج آدم وقد أجبر عقله أن يصدق بأن أمه بخير ولكنه لم يستطع إقناع قلبه الذي بقي معها، فوصل إلى المقهى ولم يكد ليصل فكلما رمى خطوة إلى الأمام حاولت الثانية العودة به إلى الخلف وتقدم نحو العم منصور يهنؤه بمناسبة العيد لكنه لم يلمس في ملامحه للعيد ملمس فسأله : ـ ما خطبك يا بني؟؟؟

فطأطأ آدم رأسه وقد ازداد اكفهرار وجهه ثم قال بصوت خافت : ـ أعتذر عن التأخير...

فصرخ العم منصور في وجهه : آآآآآآآدم...

فرفع إليه بنظره والحزن لم يرفع أذاه عنه قبل أن يردف العم منصور في حنو : ـ لم أقصد تأخرك بل قصدت الحزن الذي على وجهك يا بني...

فقال بصوت متهدج : ـ تعرضت أمي لحروق بليغة هذا الصباح...

فانتفضت ملامح العم منصور وسأله : ـ وكيف حالها الآن ؟؟؟

فرد في رضا بالقضاء والقدر : ـ الحمد لله...

فأردف العم منصور سؤالا آخرا : ـ وهل أخذتها إلى المستشفى ؟؟؟

فرد باقتضاب : ـ لا.

فوبخه : ـ بالله عليك يا آدم لم تأخذ أمك إلى المستشفى لكي لا تتغيب عن العمل فقط، سامحك الله يا بني...

فتجهم وجه آدم أكثر وقال بخيبة : ـ ليس هذا السبب... بل لأن أبي لا يسمح لها بالخروج من البيت تحت أي ظرف من الظروف.

فاحتقن وجه العم وقال غاضبا : ـ ولماذا لم يأخذها هو إذن؟؟؟

فرد آدم خائبا : ـ هو ليس في البيت ولا يوجد إلا نادرا...

فاكتفى العم منصور بالحوقلة وظل يرمقه بنظرات تملؤها الشفقة والحنان ثم قام من مجلسه وقال له : ـ انتظرني هنا سأعود بعد قليل...

وما هي إلا دقائق معدودة حتى عاد وهو يحمل في يديه علبتين كبيرتين وقدمهما لآدم الذي قبلهما بدون خجل وأمره بالرجوع إلى بيتهم فامتثل آدم وهو يشكر صنيعه.

طرق الباب فحاولت مريم النهوض من فراشها متناسية حروقها ظنا منها أن الطارق محمد، فأسرعت ياسمين تفتحه فإذا بآدم قد عاد ولا تظهر من وجهه سوى عينيه وقد غطت العلبتين بقيته، فتسلمت ياسمين العلبة العليا منه واتجهت نحو المطبخ فنداها أخاها من خلفها أن توجهي إلى غرفة أمي وقبل أن يضعوها على الطاولة أسرعت رحاب تفتحها وهي ترقص فرحا كفرحة النحلة بالرحيق وازدادت فرحا لما رأت كعكة كاملة مزينة بالألوان مختلفة وشرائح من شتى أنواع الفاكهة ومكتوب في وسطها عيد مبارك وكل عام وأنتم بخير... أما العلبة الثانية فقد كانت مملوءة بمختلف أنواع الحلويات الشهية، وشرعت ياسمين بتقطيع الكعكة قبل أن تهجم عليها رحاب، فطرق الباب فجأة فترنحت مريم محاولة النهوض من جديد فانتفض آدم يعيدها إلى مكانها وربت على كتفها وانصرف ينظر من الطارق فتفاجأ بكون أبوه منذر هو الطارق فحاول إخفاء دهشته ويهو يقدم التهاني له بمناسبة العيد فرد عليه ببرود فاتر وبصوت جائر، وما إن ملأ وجوده فراغ باب الغرفة حتى اختفت البسمة التي ملأت وجوههم فهز قلوبهم سائلا : ـ من أحضر هذه الحلويات ؟؟؟

فتملص آدم من خلفه وهو يحاول المرور إلى الداخل فتقدم منذر نحوهم وقدم سؤالا آخرا : ـ من أين أحضرتم هذه الحلويات ؟؟؟

فأجاب آدم ورحاب في نفس الوقت وقال هو : ـ اشتريتها...

وقالت هي : ـ أعطاها إياه العم منصور...

دخلت الكلمة الأخيرة إلى مسامع منذر كالرصاصة فأصمته، فساد الصمت بينهم ونظراتهم تتراقص خوفا ورحاب تعض شفتيها ندما على لسانها الذي يخونها في كل مرة.

تقدم منذر خطوتين وانحنى نحو الكعكة وحملها بيد واحدة وبقي ينظر إليها والكل ينظر إليه في ترقب وفجأة باغتهم بحركة جعلت أبصارهم توجه إلى وجه أمهم الذي لطم بالقالب فغطى كل ملامحها ولكنه لم يغطي للحزن ملمح، ليتكرر أمامهم مشهد أحد العيدين حين أرسلت لهم كوثر بعض الحساء في أواني فخارية فاخرة، فأرادت مريم أن تصنع الاستثناء ولم تستدعهم إلا بعد أن زينت المائدة بزينة لم تعتدها، وبعدما سكبت لمحمد وراحت تسكب لآدم دخل عليهم الأب الذي ترك مكانه شاغرا في القلب قبل المائدة، فأثر المشهد فيه فآثر أن يعوض غيابه، فأمسك الطاولة من حيث كانت تجلس ياسمين وقلبها بأكلها وبأوانيها، فبقي محمد وآدم جالسين متقابلين على مائدة من سراب الوجبة الرئيسية عليها الخيبة وشرابهم العلقم وخبزهم القهر.

. سعادة مؤقتة .

انتفضت ياسمين بنفس انتفاضتها ذلك اليوم نحو أمها الحريقة وقد سبقتها رحاب إليها، أما آدم فقد أغمض عينيه بكل قوته ليفتحها على أمه المسجاة على فراشها خائرة القوى وأبوه يستعرض عضلاته صارخا : ـ لهذا كان ينظر إلي بتلك النظرات و أنا أقول لماذا لماذاا لماذاا ؟؟؟

واستمر في صراخه وهو يرفس العلبة الثانية بكلتا قدميه وياسمين ورحاب تحتضنان أمهما بشدة خوفا من أن يضربها وآدم يشد على قبضتيه ويعض على شفتيه ويعقد حاجبيه وهو يجاهد نفسه كي لا يحذو حذو أخيه، ولحسن حظه أن أباه قد حمل أوزاره وخرج ولم يحمله إياها.

مر اليوم بحرارته وبرودته ومرارته وحلاوته التي لم تتذوقها ألسنتهم، وكما ابتدأ اليوم بالحروق اختتم بالحريق فقبل حلول منتصف الليل تعالت صرخات هزت الحي وأيقظت كل جسم حي فخرج آدم مسرعا وما إن فتح الباب حتى رأى الشارع متوهجا بشعلة الكل يجري نحوها فهرول باتجاهها هو الآخر وبتعديه للمنعرج توضحت له الصورة، فقد كان المقهى مصدر اللهب وألسنته تتحدث حديثا لا يعلو عليه حديث والكل يحاول إسكاتها بإفراغ دلاء الماء عليها فتلتهمها وتكمل حديثها وكأنها ارتشفت رشفة ماء تروي عطشها لمواصلة حديثها، قبل أن تتعالى أصوات انفجارات متتالية جعلت الجميع يتراجع إلى الخلف والانضمام إلى شخوص آدم الذي ألهب اللهيب فكره.

بعد حوالي ساعة انطفأت النيران لكن الشرارة عيني العم منصور لم تنطفئ وقد استنتج آدم أن أبوه هو من أشعلها ولكنه على الأغلب ليس وحده من استنتج هوية الفاعل لأن العم منصور كان يردد في حنق : ـ سيرى الجبان الحقير...

ويتبعها بوابل من الشتائم اللاذعة، والجيران يحاولون إطفاء نيرانه المتقدة ولكنه أجبر على ابتلاعها عندما سمع إنذار سيارات الشرطة التي كانت آخر الوافدين مع أنها كانت ثاني من طلبهم العم منصوربعد الحماية المدنية التي لم تأتي بعد، فرافقهم وأدلى بشهادته وولم يتهم أحدا مع أن أصابع الاتهام كانت موجهة نحو منذر ولا متهم آخر غيره.

في صباح اليوم التالي تجمهر جمهور غفير حول المقهى ممن كانوا يرتادونها وممن مروا ليشهدوا رمادها فبحث آدم عن العم منصور من بينهم فلم يجده فأدرك أنه لم يقو على النظر إلى تعبه وشقائه وقد أصبح كومة رماد وحطام، فتوجه إلى منزله وطرق الباب فرد عليه صوت ملائكي من خلف الباب : ـ من بالباب؟؟؟

وبالتأكيد لم يكن صوت زوجة العم منصور فرد في ارتباك : ـ أنا آدم أريد رؤية العم منصور...

فجاءه الصوت الملائكي من جديد : ـ سأعلمه بقدومك...

فبقي آدم خلف الباب لكن روحه قد تعدت الباب وقد فتح باب قلبه دون إذن منه لأن الداخل إليه كان يملك المفتاح.

فتح العم منصور الباب وهو يرحب به بنفس الحرارة والبشاشة المعتادة ودعاه للدخول وهو يقول في سريرته : ـ ليس الذنب ذنبك إن كنت ابنا لكلب أعوج الذنب...

لكن آدم ظل صامتا وهو يمنع نظره من الالتقاء بعيني ناظره فحاول أن يسترسل بالكلام لكن حروفه خانته وكأن ذاك الصوت الساحر قد سرقها فاعتدل في جلوسه لكي لا يلحظ عمه أعراض السحر البادية عليه وعلى تصرفاته وقال أخيرا : ـ أنا متأسف عما جرى ليلة أمس...

فرد عليه العم مسلما بقضاء الله وقدره : ـ لا عليك يا بني...

فارتبك آدم وترنح في جلسته ثم أردف مصححا : ـ أنا لا أتأسف على الفعل وإنما على الفاعل...

فقاطعه العم منصور محاولا تضليله وكأنه لم يفهم قصده : ـ لا داعي للأسف فقد بلغت من الكبر عتيا وآن الأوان لأترفع عن الدنيا لبلوغ المراتب العليا...

فقال آدم : ـ بارك الله في عمرك وحسناتك يا عمي...

فابتسم العم منصور وهو يباركه ثم أردف متسائلا : ـ لكن ما بك يا آدم مالي أراك قلقا مذ فتحت الباب لك، أهناك شيء يقلقك ؟؟؟

فاحمر آدم خجلا وقال نافيا باقتضاب : ـ لا أبدا...

فواصل العم منصور الحكيم قائلا : ـ أم أن الحادث أثر فيك لهذه الدرجة، لا تكترث يا بني فالحياة تستمر ولا تتوقف عند حدث فالمفرح يقوي النفوس والمحزن نتعلم منه الدروس.

في هذه الأثناء سمع آدم أصوات خطوات في الممر، فارتبك وزاغت عيناه يمينا وشمالا لتثبت في الأخير على كأس الماء المتربع على الطاولة فوثب عليه برشفة لكن الرشفة ظلت سبيلها واتخذت سبيل الشهقة فحاول إخفاء الخنقة فجحظت عيناه وكادت تخرج من محجريها قبل أن ينتفض العم منصور نحوه وهم على ظهره بضربة واحدة كانت كفيلة بأن ترجع الرشفة إلى الطريق المستقيم أما عموده الفقري فلا شك أنه قد انحرف عن استقامته، بعد ثلاث سعلات أو أكثر عادت الأنفاس إلى مجاريها فابتسم آدم و الدموع قد اتخذت على خديه سبيلا فانتبه للخطوات التي انقطعت همساتها فالتفت بسرعة كادت أن تسقط الصينية من يدي حاملتها فقالت : ـ السلام عليكم... كيف حالك يا بني؟؟؟

فتنفس آدم الصعداء ورد السلام وقال : ـ بخير الحمد لله...

وقد كان آدم متيقنا من حمده مرتابا في كونه بخير، فقدمت له زوجة العم منصور القهوة مع حلويات من نفس الحلويات التي رفسها أبوه صباح البارحة وحملته السلام لأمه التي لا

تعرفها وانصرفت، فترنح آدم يستأذن الانصراف خوفا من أن تراوده الشردقة من جديد فيهتك العم منصور بما بقي له من فقرات بقبضته الأقسى من الحديد، لكن العم منصور ألح عليه بشرب القهوة معه وإلا سيغضب منه فأجبر آدم على البقاء ولو أكمل باقي حياته مشلولا وهو يبتسم وبداخله ضحكات مدوية، وأخذ يرتشف القهوة ويقضم قطعة الحلوى بحذر شديد، وما إن أكمل قهوته والعرق يتصبب عليه حتى وقف مستأذنا وهو يحي العم منصور بحرارة ويشكره على حسن الضيافة وفارقه لكن الابتسامة لم تفارق مبسمه وذاك الصوت لم يفارق فكره.

أما أمين فقد ظل طول اليوم ويديه على خديه و لم تشرق شمس يومه إلا بشمسيه ياسمين ورحاب وهو يلح من أول أيام العيد على أمه بالرجوع والإتيان بهما فما كان بوسعها إلا أن تشد الرحال إليهما .

وصل الثلاثي أمين وياسمين ورحاب إلى المزرعة التي كانت الوجهة الواحدة والوحيدة بعد أن تم اختيارها من قبل الثلاثة والحاحهم في كل مرة فقد كان سحر المزرعة يجذبهم نحوها في كل مرة يغادرونها، فياسمين كانت تعشق المناظر الخلابة التي كانت مصدر إلهامها الثانوي بعد أمين مصدر إلهامها الرئيسي، أما أمين فقد كان يعشق الخيل ويعشق خياله الذي لا يفارق لوحات ياسمين، أما بالنسبة لرحاب فقد كانت ترى في المزرعة البيئة المناسبة لترويض جموحها وقد كان هناك شبه ظاهري وباطني بينها وبين فرسها فقد كانت بنية بنفس لون سمرة بشرتها، وشعرها أسود بمثل سواد خصلاتها، وعيونها حوراء بمثل حور عيون صاحبتها، أما أكبر شبه باطني يجمعهما فهو القوة والشموخ وصفات أخرى لا تفقهها إلا رحاب في نفسها، وصفات لا تراها إلا هي في فرسها.

وحتى كوثر كانت ترى في المزرعة مصدرا لطاقتها المتجددة وقد كانت تعشق هدوءها إلا من أصوات الخيول التي وإن هدأ صهيلها لم تهدأ حوافرها وأمين ورحاب يتسابقان

ورحاب الرابحة كعادتها وأمين يحاول بكل ما أوتي من فروسية أن يكسر غرورها لكن لا شيء يكسر غير خاطره بإعلان جده عن موعد الرحيل وابتسامة إعجاب برحاب ترسم على محياه عنوة وهو يحاول إخفاءها حفاظا على مشاعر حفيده التي غدت حطاما عندما رأى لوحة ياسمين التي اختارتها هذه المرة بألوان قاتمة مما زادها سحرا ورونقا وأناقة بما في الأسود من تألق، فكانت لوحتها مفاجئة لونا ومضمونا فقد اندهش الجميع بالجد المتربع على اللوحة بملامحه المخملية والابتسامة تشرق من وجهه وأشعة الشمس تنعكس على خلجات تجاعيده الملتوية ومن الدهشة صار الجميع ينظرون إليه تارة وإلى اللوحة تارة أخرى وينتظرون أن ينطق أحدهما، فتسللت على أخاديده قرير من عيونه لينعكس لها خرير من عيني خليلته، ليغرق ياسمين في فيضه وهو يشكرها ويمدحها طالبا أن تفيض عليه بما رسمته أناملها السحرية ليرصع بها أحد جدران قصره الحجرية.

هكذا كان يومهم لا يقل حرارة عن حرارة يوم آدم الذي كان مفعم بالفرح والمرح أو بالأحرى بدايته على أمل ألا تكون نهايته قرح، أما نصيب مريم من حرارة فقد نالته وبزيادة من دموعها المدرارة التي كبحتها بصعوبة عندما دخلت عليها كوثر مع الصغار وراحت تصف لها سعادة بنتيها وسعادتها وسعادة والدها العارمة بلوحة ياسمين الرائعة وهي تثني على أناملها الذهبية بالرغم من نفسيتها المتدهورة على عكس نفسية رحاب، ثم قالت : ـ كيف تبدو لك حالتها ؟؟؟

فأطرقت مريم رأسها وقالت : ـ على غرار جميع إخوتها وإن كانت هي أكبر المتضررين فرحاب أصغرهم...

ثم خفضت صوتها وتمتمت : ـ لو تعلم رحاب حقيقة وجودها لكانت أتعس الموجودين...

فسمعتها كوثر لكنها لم تصدق ما سمعت فقالت مندهشة : ـ ما الذي تقولينه يا مريم؟؟؟

فحاولت مريم تغيير الموضوع لأنها شعرت أنها أخطأت في فتحه لكن كوثر بقيت واقفة عند باب الموضوع وطرقته بسؤال آخر : ـ ما الذي لا تعرفه رحاب؟؟؟

فصمتت مريم فأردفت كوثر : ـ أعتذر بتدخلي في أمورك الخاصة...

وهمت بالانصراف فأمسكتها مريم من يدها وأخذت تسرد حقيقة وجود رحاب في هذا الوجود : ـ رحاب أتت إلى هذا العالم خطأ حاولت إصلاحه لكنني فشلت...

فازدادت دهشة كوثر وقالت : ـ كيف؟؟؟

فواصلت مريم حديثها بهدوء : ـ لم أكن أنوي إنجاب أي طفل بعد ياسمين...

فحاولت كوثر سبق الأحداث وقالت متلعثمة : ـ وكيف حاولت إصلاحه؟؟؟

فقالت مريم بكل برود : ـ حاولت إجهاضها بشتى الطرق ولم أفلح...

صدمت كوثر بمريم وبوحشيتها فصمتت وبقيت تترصد باقي الصدمة فواصلت مريم : ـ وحتى بعد إنجابها امتنعت عن إرضاعها ولم تكن لتعيش لولا الخالة أم الخير رحمها الله وما زاد الطين بلة هو الاسم الذي أسماها به والدها فلم يجد غير اسم زوجة أبي ليسميها به لا لشيء إلا ليغيظني فقط لتصبح رحاب بالنسبة لي ليست مجرد غلطة وإنما ذكر اسمها فقط قد يسبب لي الجلطة...

افتقد أمين وياسمين رحاب فراحا يبحثان عنها فوجداها عند باب الغرفة فهرول أمين نحوه يناديها ولكن لا حياة لمن تنادي وكأن وقر أصابها من وقر ما سمعت وليتها ما سمعت ولا صمت، فسحبها أمين من يدها ليريها شيئا فانساقت خلفه تاركة رحاب القديمة شاخصة في مكانها بكل حواسها وأمها تواصل سرد جريمتها التي لم تصدم الصغيرة رحاب فحسب بل صدمت كوثر لحد كبير إلى درجة أنها لم تنتبه لرحاب التي كانت واقفة عند الباب من لما سمعت اسمها صدفة ظنا أن أمها تناديها ولكن الصدمة فقط من كانت تصرخ باسمها، ولم تنتبه لوجودها حتى عندما ناد أمين باسمها.

أنهت مريم حديثها فساد في البيت صمت يتألم ولا يتكلم فحاولت كوثر أن تخفف بعض الألم : ـ لم يكن الأمر بيدك...

فردت مريم متحججة : ـ لم يكن الأمر بيدي لكن أبنائي كانوا يتعذبون بين يدي وأنا أرى بأم عيني...

فقالت كوثر : ـ توبي لربك واستغفري لذنبك يا مريم...

ثم صمتت لثوان وأضافت : ـ تستحضرني آية من القرآن الكريم لكنني لست أحفظها...

صدمت كوثر لما سمعته صدمة كبيرة لكن ليس بقدر صدمة الصغيرة رحاب ليس لأنها صغيرة بل لأن الصدمة كانت جد كبيرة، فسحبت كوثر ابنها وانصرفت تاركة مريم في ظلمة جهلها بعدما كانت تظن أنها أمية وحسب ولكن مريم لم تكن أمية بالقدر الذي كانت به جاهلة برحمة ربها وهو أرحم على عبده من الأم على وليدها وقد قال في كتابه الكريم " ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم

وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا " صدق الله العظيم.

****

بعد مرور شهرين إلا ثلاث أيام عن صدمة رحاب التي لم تتقبلها بعد ولا أظن أنها ستتقبلها ما دامت حية بعد أن تغيرت نفسيتها بشكل كبير وقد حدث في حياتها منعرجا جد خطير، ليحين موعد اليوم المشهود الذي تحتفل به عائلة أمين بحفاوة وياسمين تشاركهم الفرحة ورحاب تشاركهم الفرحة واليوم والاحتفال على حد سواء لكن هذه السنة بالنسبة لها هي أسوأ السنوات أو بالأحرى بداية عهد جديد مع الوجع والآهات.

أتمت كوثر كل التجهيزات التي تليق بالحفل عيد ميلاد ابنها الوحيد المدلل ودعت الثلاثة للصعود فأبت رحاب الصعود فأصر أمين وياسمين عليها وأمين يذكرها أنه عيد ميلادها أيضا وهذا أكثر يوم تريد أن تنساه وهي تتنساه، فرفضت وأعرضت عنهما فتبعتها

الخالة كوثر وطلبت من أمين وياسمين ألا يتبعانها، وما إن حاولت كوثر فك شفرة سرها امتثلت رحاب وصعدت معهم وبينما يغني الجميع أغنية عيد الميلاد وصوت أمين هو الطاغي وحرف السين متجلجلة في صوته وقد تمكن من نطقها وعيناه لم ترفع عن رحاب وكأنه يحتفل بوجودها معهم وهي تتظاهر بالغبطة والسرور ولكنها لم تصمد للأخير وعندما حان موعد إطفاء الشموع العشر انطفأت فرحتها المزعومة وانفجرت باكية أمام الجميع وهي التي لم ير أحد من قبل دمعتها، فنهضت مسرعة مهرولة نحو غرفتها مباشرة وأوصدت الباب على نفسها، فأتى الجميع خلفها تاركين الشموع مشتعلة فطرقت كوثر عليها الباب لكنها لم تسمع ردا إلا من أصوات شهقات متقطعة كأصوات عزف على أوتار متقطعة لآلة الرباب التي لم يرقها وصفهم لها بالآلة فتقطعت أوتارها كما تمزق نياط قلب رحاب، تراجعت كوثر للخلف واستدعت مريم على انفراد وهمست في أذنها : ـ أظن أنها سمعت اعترافك الشنيع ذاك اليوم...

فردت مريم بكل ثقة : ـ لا أظن ذلك...كل ما في الأمر أن رحاب متقلبة المزاج وسيتعدل مزاجها بعد دقائق قليلة...

وقبل أن تضيف شيئا آخرا فتحت رحاب الباب وهي بكامل حيويتها وقد عادت إليها ابتسامتها وهي تدعوهم للصعود لإكمال الاحتفال فابتسم الجميع لابتسامتها، فأشارت مريم إلى كوثر وقال وهي واثقة في نفسها : ـ ألم أقل لك...

فصعدت كوثر و الأطفال من جديد فطلبت منهم إطفاء الشموع التي كانت قد ذابت فوق الكعكة، فزفرت رحاب زفرة واهية توهم أمين بأنها أطفأت معه شموعه أما عن شموعها فقد انطفأت ذاك اليوم المشؤوم أو بالأحرى تلك اللحظة المشؤومة.

****

هي ليلة ليست ككل الليالي فلا صوت يعلو فيها على صوت صياح أضاحي العيد التي باتت وكأنها تقوم الليل بالصلاة والتسبيح إلى بزوغ فجر يوم العيد، كان صباحا حارا حرارة فرحة العيد التي اكتسحت الشوارع قبل القلوب، أما مريم فقد كانت تصارع برودة الوحدة والشوق ولا دفء يلامسها إلا من الدموع الحارقة المتدفقة على وجنتاها من بركان الحنين لابنها محمد الذي لم يزرها منذ حوالي أربعة أشهر تقريبا وقد استيقظت اليوم لتجد الأمل قد انتحر شنقا على وريدها لتدرك أنها لن تحض منه بوداع ولو من بعيد.

كان آدم قد خرج لتأدية صلاة العيد ومن ثمة يرافق العم منصور لمساعدته بطلب منه، أما ياسمين ورحاب فقد اصطحبتهما الخالة كوثر صباحا إلى بيت أهلها لتشركهما فرحة العيد الفرحة التي لم تعرف لها مريم طعما في حياتها وهاهي اليوم ضالة في متاهة الحزن المظلمة قبل أن يطرق الباب فجأة بطرقات هادئة لكنها كانت كفيلة بجعل الأمل الذي ظنته قد انتحر يترنح بحشرجة معلنة أنه لا يزال حيا، فهرولت نحو الباب تفتحه والابتسامة تشع من وجهها كما ترسل الشمس أشعتها من وراء الغيوم السوداء، ولكنها بمجرد أن فتحت الباب حتى اختبأت شمسها وراء الغيوم، كان الطارق يلبس معطفا أسودا ينتهي بقلنسوة كادت أن تغطي وجه كليا يكسوه طبقة من الغبار وظل واقفا على قارعة الباب، وهو يحمل بيده قفة كبيرة يطل منها كيس أسود يحجب ما بداخله فدب الخوف والرعشة في جسد مريم فحاولت رفع نظرها وهي تصعد به وأنفاسها تتصاعد كأنها تريد الصعود لبارئها وليتها صعدت قبل أن تلتقي نظراتها بتلك النظرات الملتهبة بالشر والشرار من عيون ناظرها الذي لم يكن سوى زوجها منذر، فتراجعت إلى الخلف بخطوات متثاقلة ومرتعشة في آن واحد فتبعها منذر بخطوة انتهت به إلى الداخل فأغلق الباب وراءه بالمفتاح الذي نزعه من موضعه ووضعه في جيبه وقد ترك القفة التي كانت بيده تهوي على الأرض وقد كاد قلب مريم أن يهوي قبلها لما رأت قطرات الدم تقطر منها، فحاولت مريم ابتلاع جمرات شكوكها أو

اطفائها وقد ربطت الأحداث ببعضها بعد أن تذكرت أن اليوم يوم عيد الأضحى فاستنتجت أن ما بالقفة ليس إلا لحوما بمناسبة العيد، ولكن منذر سرعان ما سحبها من معصمها بقوة وأجلسها على الكرسي عنوة وراح يضع لثامه على فمها، حاولت مقاومته، حاولت الصراخ لكنها كانت بين يديه كخرقة بالية ولم يفلتها إلا وقد لف فمها تماما ولم يمنعها من الصراخ فحسب بل منعها من التنفس أيضا، فاستسلمت وهي تدري أن قوته لن يقدر عليها إلا القوي فخارت قواها تماما، ورغم هدوءها التام إلا أنه التفت إلى القفة وأسرع نحو الكيس يفتحه ورائحة غريبة تنبعث منه فأخرج منه حبلا سميكا ملطخا بالدماء، وما إن رأته المسكينة مريم يتقدم به نحوها حتى خرت مغشيا عليها، وهذا ما راقه فأحكم ربطها بالكرسي وأراق الماء عليها فاهتزت وشهقت ولكن قلبها زلزل وهدمت آخر جدرانه فغدا ركاما عندما رأته يحمل ساطورا عليه أثار الدماء ويجلس على كرسي مقابلها، فلم تتحمل بشاعة المنظر فأغمي عليها من جديد فهرول منذر مفزوعا عليها ويتحسس نبضها ظنا منه أن ماتت لأنه يريد أن تشهد كل لحظة إلى آخر المشهد، فحاول إيقاظها بكل الطرق فلم تستفق إلا على وقع الصفعات الهستيريا التي لم يكف عنها حتى بعد أن استفاقت وكأنه فقد الأمل بأنها حية، ولم يوقفه إلا أنينها ليس شفقة وإنما دليلا على حياتها، فقرب كرسيه من مريم التي كانت أقرب منها إلى الموت ولا توحي بحياتها إلا رعشاتها خوفا وبردا وأناتها ألما ووجعا وهوى جالسا وقد أنهكه التعب، واسترسل الأشرس الشرس بسرد بعض الحقائق التي طالما كانت مريم تريد معرفتها وإذا سألت عنها كان الضرب جوابها.

ـ سألتني عدة مرات عن أهلي وعائلتي وأصلي وفصلي... سأخبرك بالحقيقة كاملة، أنا إبن لقيط جئت لهذه الحياة ودماء العار تسري في عروقي من أب أعلمه ولا يريد أن يعترف بي ابنا له ومن أم قتلها أبوها ورماها ميتة فريسة للكلاب وقد رمت نفسها فريسة للذئاب وهي حية أما أنا فقد رماني في غابة وسط الحيوانات المتوحشة، ولا ألومه على ذلك فهي الملامة

الوحيدة ولو لم يقتلها هو لقتلتها أنا بيدي هاتين، وتصادف الصدف أن يكون النذل الذي أنا من صلبه صديق أبيك الذي لم يصدقه نذالته وألح عليه أن يعترف بأبوته لي لكنه أبى إلى أن داهمته الموت فوافق فسارع أبوك بإعداد كل الوثائق التي تنسبني إليه شرعا وقانونا وأصبحت مثلي مثل كل إنسان أقل حقوقه الاسم الذي يفخر به مع أنني لا أفتخر بانتسابي إليه إلا على الوثائق ولا أسمح لأحد أن يسأل عن ماضيه إن كان يجهله أما إن كان يعلمه فمؤكد أنه لا يجرؤ على ذكره...

صمت قليلا ثم تنهد طويلا ثم أردف بعد أن تأكد من أنها ما زالت تتنفس مع أنها قد فارقت الحياة : ـ كنت قبل ذلك الحين أكره كل النساء وأمقت نذالة الرجال أو بالأحرى الإناث والذكور فهذا ما كنت أرى فيهم مثلهم كمثل الحيوانات إلى أن لمحتك ذات مرة من شق الباب وأنت تفتحينه لوالدك الذي كنت برفقته فتغير كل شيء رأيت فيك البراءة لمست فيك الطهارة فسحرت بجمال وجهك الذي لا تضاهيه نظارة فأحببتك حبا دفنته في قلبي وأنا أعلم أنه مستحيل أن يحيا ما دمت حيا...

زفر بقوة ومسح الدمع الذي فاض من عينيه عنوة وواصل : ـ ولكن بعد أن صار لي اسم رصع الأمل حروفه أردت أن تكوني زوجة لي لعل الاسم ينحني لجمالك فيتجمل، فتتجمل به روحي وتندمل بوروده جروحي، وبعد وفاة أبي المزعوم أردت أن أدق الحديد وهو ساخن فإما أن يمتثل لدقاتي وإما تحرقني بك دقات قلبي، ففاتحت أباك بالموضوع فنظر إلي نظرات طعنتني في الصميم وكأنه يذكرني بمكاني ومكانتي فوقفت مستأذنا أنوي مغادرة مكاني وقلبي قد غدا جمرة تحرق كياني فحتى بعد أن صار لي إسم لم تقبلني لا عائلتي ولا مجتمعي وما إن هممت بالانصراف حتى أمسك أبوك بمعصمي وقال قبل أن يرتد طرفي إليه : ـ على بركة الله...

لم تسعني الأرض آنذاك وكأنني ولدت ذاك اليوم وبأب وأم شرعيين، فعزمت أن أكون لك سقاء وتكونين لي الحديقة الغناء التي ستزدان بعد سنوات بورود حمراء وبيضاء...

ثم اختنق صوته وانفجر باكيا لينفجر بعدها صارخا : ولكن ما الذي حدث بعدها؟؟؟ ما الذي حدث؟؟؟

لكن حتى صرخاته الصاخبة لم تكن كفيلة بتحريك مريم التي كانت جثة هامدة على الكرسي وعيناها بالكاد مفتوحتين فرفعت عيناها المتثاقلتين نحوه ليجيبها صارخا : ـ لقد خنتني أيتها الخائنة...

ثم وقف عن كرسيه وأخذ يضربه بساطوره كما يضرب الحطاب جذع الشجرة بفأسه الذي يده من حطبها وهو يصرخ بها : ـ يا خائنة... يا خائنة... يا خائنة...

لتخور قواه فيخر جاثيا على ركبتيه أمامها وقد هدأت صرخاته لكن دموعه فاضت وانهمرت كأنها وديان كاذبة، لم تكن دموع مريم تقل غزارة لكن وديانها كانت على الدوام جارية، رفع رأسه الذي كان يضعه على حجرها وأردف بصوت متحشرج : ـ وكما لم أحب غيرك فلا غيرك تثير غيرتي، ولن تتخيلي حجم الصدمة التي أصابتني عندما أخبرتني زوجة أبيك، في الأول كذبتها ولم أسمح لها بطعن شرفك ولو بكلمة كنت أتحاشاها كنت أهرب منها لكنها ظلت تلاحقني إلى أن زرعت بذور الشك فوق ورود الحب التي زرعتها بيديك في قلبي وسقيتها بوفائك وعطفك وحنانك الذي عوضني عن سنوات الحرمان التي حرمتني الحياة، لكن زوجة أبيك سقت بذورها بالسم فقتلت ورودك وهي تتوعدني بالأدلة و البراهين وكان اليوم الموعود هو نفسه اليوم الذي حدث فيه ذاك الحادث المشؤوم وقتلني في بداية ربيع حياتي معك، كنت أجزم أن كل ما قالته كذب لكن عندما ماتت مات حبي لك معها مات كل شيء يربطني بك ونما الحقد والانتقام الذي كانت بذوره مدفونة تحت ورودك ليتحول إلى حمم بركانية تنتظر اليوم الذي تثور فيه دفعة واحدة...

ـ لم أستطع أن أطلقك لأن الموت أهون علي من أن أراك على عصمة رجل غيري ولو أنني كنت متيقن من أنه كيفما كان فستعيشين معه خيرا من الموت الذي سودت به حياتك، كما أنني لم أكن لأحيا حياة خالية منك...

صمت ثم أجهش بالبكاء من جديد وتعالت صرخات تأوهاته ثم قال بكل هدوء :

ـ أتدرين أين كنت أذهب طيلة فترات غيابي؟؟؟

ثم نظر إليها ينتظر الإجابة لكنها لم تحرك ساكنا، وعيناها تحملق في الباب الموصد تارة وإلى باب السماء الذي لا يوصد أبدا تارة أخرى فأجابها : ـ كنت أبحث عن ذلك الوغد الذي كنت تخونني معه، صار وجوده سبب وجودي في هذه الحياة...

حاولت مريم أن تقول الكثير من خلال عينها التي كادت تخرج من محجريها، لكنه لم يكترث لحديثها وتجاهله كأنه يجهل لغتها التي كان أكثر واحد يفقهها، ثم قال لها وهو يبتسم من بين دموعه : ـ أتدرين أين هو الآن؟؟؟

ثم تعالت ضحكاته والتفت إلى القفة التي اتخذت الدماء منها سبيلا وأشار بسبابته نحوها قائلا : ـ رأسه هنا في كيس القمامة وجسمه هناك في حاوية القمامة...

فجأة تحولت ضحكاته إلى نواح ووضع رأسه على حجرها المرتجف وبكاؤه يزيدها رجفة وبعد أن هدأ قال بصوت خافت : ـ أتدرين أنني مازلت أحبك وأحب أولادك على الرغم من أنني كلما نظرت إليكم اختنقت بحب مدفون يسار صدري يريد أن يخرج من قبره ليعلمكم أنه حي لكنني سرعان ما أدفنه ودمائي تتسارع تريد عناقك تريد تقبيل أولادك الذين رغم أنني كنت دوما أنسبهم إليك لكنني لم أستطع أن أحرمهم من نسبي فيتحول شغف الحب إلى نيران حرب، ولكنني كنت أضعف من أن أحارب نفسي فأجد نفسي وهنت واستسلمت لك ولمستك فيتلبسني الذل بعدها من أخمص قدمي إلى آخر شعرة من رأسي فأحمل قبل بزوغ فجر اليوم التالي أثقالي ووصمة عاري وأواصل رحلة بحثي...

واصل اعترافاته التي اعترفت بكل شيء إلا ببراءة مريم التي لم يكن لها نصيب من الدنيا إلا النصيب المقدر في اسمها فكانت الطاهرة التي قذفت في شرفها و لم تملك إلا دموع تمتزج بدموعه فتحرق قلبيهما معا، لكن نار مريم كانت تحرقها بصمت وهي تستمع لأصوات لهيب نار تحرقها بكل كلمة ومنذر يواصل كلامه : ـ لم أقوى على مواجهتك لأنني أدرك مسبقا أنك ستنكرين وأدرك أنني سأضعف وأصدقك فلطالما اعتبرتك رمزا للصدق والوفاء، لم أكن أقوى على نظرة المجتمع التي أصابتني برماحها من أول يوم في حياتي على جرم أنا بريء منه بل أنا ضحيته وقد كنت مجبرا على تحمله في طفولتي ولكنني لا أتحمل أن تطعن رجولتي...

وارتفعت نبرة صوته وواصل باحتقان : ـ وأكون أبا لأولاد أشك أنهم من صلبي...

ثم علا صوته وانفجر صارخا وكأن الدم قد انفجر من عروقه : ـ وأكون زوجا لامرأة خائنة... وانتفض بشدة ودفع الكرسي بقوة فسقطت مريم وارتطم رأسها على الأرض بقوة قبل أن يخر منذر عليه بنفس القوة وهو يضرب العنق الذي كان يوصله بجسد المسكينة مريم بساطوره وهو يصرخ : ـ يا خائنة... يا خائنة... يا خائنة...

ظل يضرب الأرض أما الرأس فقد انفصل عن الجسد وراح يتكور والدماء تنهمر منه بغزارة، فتوقف منذر ولم يشف غليله بعد فتسطح في بركة الدم بجانب الجثة التي كانت لا تزال تترنح وأسند رأسه بكفيه المخضبتين وأخذ يتأمل السقف وكأنه يستمع لموسيقى هادئة ومريم ترقص عليها أو بالأحرى جسد مريم يراقص رأسها بحركات عشوائية مع أن السقف كان سيخر عليه من وقع صدى جريمته الشنعاء التي اهتزت لها جدران البيت فكيف له ألا يهتز قلبه الميت.

بقي المجرم على استلقائته تلك لدقائق ثم نهض ليعلق الحقائق متوجها نحو رأس ضحيته أو بالأحرى أضحيته التي ضحى بها فدفنها في الحياة وضحى بحبها وحرمها حتى

أن تدخل قبرها بجسم متصلة أعضائه، فحمل رأسها الذي لايزال ساخنا وتأبطه بكل البرود وحمل الرأس الآخر الذي كان في الكيس الذي لو لمحته مريم لما عرفته ليس لأنها نسيته با لأنها لم تره ولم تعرفه يوما في حياتها وذنبها الوحيد أنه اشترى شرفها وباع رجولته بدراهم معدودة، فتسلق منذر جدار البيت وعلق رأس غريمه لينزل ويعاود التسلق من جديد وهو يحمل رأس غرامه فعلقه بجوار ذاك الرأس الغريب ووجوههما إلى الطريق العام، لكن رأس مريم كان وكأنه قلبها وهو يضخ الدم حتى غمره وكأنه يغسله ويطهره من ذنبه ورغم أن الدم المتدفق كان لا يزال ساخنا إلا أنه أصاب جسد منذر ببرودة أرعشت سائره، فهرول إلى الداخل وكأنه يبحث عن مصدر للحرارة غير أشعة الشمس الحارقة، وأخذ يحوم بنظره في كل أنحاء البيت وهو يبحث عن ربة البيت وهو يجوب الغرف واحدة تلو الأخرى وأصبح ينادي بنبرة تفيض حبا تماما كما كان يناديها في أولى شهور زواجهما : ـ حبيبتي... حبيبتي... حبيبتي...

تعالت صرخاته والدموع تنهمر من مدامعه قبل أن تغرقه عندما دخل مسرح الجريمة فأرعشته برودة صاقعة فانهار أمام جسدها المفصول الرأس وكأنه جبل جليدي فذاب في دمائها الساخنة وأخذ يغمس يديه فيها بشراهة ويخضب ما بقي من وجهه وسائر جسده المتهالك بذنبه وكأنه يتبرك بدمائها الطاهرة وهو الذي قتلها لأنها بغي عاهرة، وفجأة تحولت صرخاته إلى قهقهات صاخبة قبل أن يصطخب المكان بأصوات سيارات الشرطة وسيارات الإسعاف التي طوقت المكان، قبل أن يقتحموا المنزل وهم يحذرونه ويهددونه بواسطة مكبرات الصوت لكنه لم يسمع صوتا غير صوت عويله وقهقهاته لتصرخ الجريمة ألما بصوت مرتكبها وهذا ما أثار الخوف حد الرعب، الألم حد الوجع في نفوس الشرطي والمواطن، الرجل والمرأة، الكبير والصغير على حد سواء رغم أن المنظر المعلق على جدار البيت كان أقل رعبا من المنظر الذي تخفيه جدران البيت الواهية، وقد كان منظر الرأسين

المعلقين أشبه بمنظر الأضحيات التي علق بعضها والبعض الآخر لم ينحر بعد وكل الأنظار معلقة نحو الجريمة الشنيعة.

لم يبد منذر تفاعلا مع الأسلحة المدججة نحوه وظل يصم القلوب قبل الآذان بصرخاته الممتزجة بين القهقهات و النواح والدماء تخضب جسده ووجهه إلا مما طهرته دموعه، فتقدمت إحدى عناصر الشرطة نحوه تحاول اعتقاله فتشبث بجسد مريم وهو يصرخ بها :ـ حبيبتي...

وقد ضيع عقله بعد أن ضيع قلبه فحكم على نفسه بالدفن في مقبرة الضياع والنسيان مع أن جرمه لا ينتسى.

وبعد صراع شديد تمكن العناصر من إخراج القاتل منذر وأدخلوه داخل السيارة الخاصة بهم التي كانت مركونة عند الباب تماما وإلا لما تمكنوا من اجتياز ذاك الحشد الخفير الذين كانوا يتابعون بوجوه مكفهرة وقلوب منكسرة.

كما اتجهت العناصر الأخرى إلى تطويق مسرح الجريمة بأشرطة تمنع مرور المواطنين وصار المكان يعج بالشرطة خصوصا بعد وصول عناصر الشرطة العلمية، لكن بالرغم من العدد الكبير لعناصر الشرطة إلا أنها لم تتمكن من تفكيك الحشود المتزايدة مما أجبرهم على استعمال القوة، وفجأة صار الحشد يفتح الطريق للقادم بتلقائية وعفوية وهم يتهامسون عليه وهو يمشي بينهم بخطى متثاقلة تدفعه للأمام بخطوة وتجذبه الأخرى إلى الخلف عنوة، وما هي إلا خطوات قليلة حتى صار الطفل آدم يقف أمام المشهد المروع وجها لوجهين، فذهل إلى درجة أنه شل عن الحركة وصم عن الكلام ولم يعد يتحرك فيه غير غزير الدمع الذي أمطر مآقي الحاضرين الذين لم يقو أحد على الاقتراب منه ومواساته فبعض الطعنات أكبر من أن نعزي أهلها أو نواسيهم فيها، وظل الصغير آدم شاخصا إلى أن اقترب منه العم منصور مهرولا بخطوات متضاربة ومتسارعة يكاد عكازه أن يخونه وهو الذي عوده على

الوفاء دوما، ولكن رغم سرعته إلا أنه لم يتمكن من الوصول قبل آدم ومنعه من رؤية هذا المشهد الكبير الذي لم يتحمله الكبير فكيف للصغير أن يتحمل، وما إن رآه حتى كادت قدماه تخونه فأثبتت عصاه وفاءها مرة أخرى.

فلم يكن بيد العم منصور إلا أن يقف حائلا بين صغيره وبين المشهد الشنيع كالحصن المنيع واحتضنه بحضن قد يعوضه حضن الجميع لكن لا ولن يعوضه حضن أمه الذي كانت مجرد رؤيته تزهر قلبه وكأنما حل عليه فصل الربيع، ولكن حتى هذا الحصن لم يقو على الصمود فتزعزع ولم يتمالك نفسه وبكى بكاء أب فقد زوجته الحبيبة ويصبر ابنه الحبيب فيمسح من مدامع ابنه العبرات فتتدفق من مآقيه الجمرات.

سرت في العم منصور قشعريرة أبردت جسده فأرعشت ذراعيه اللتان تلاشت فجأة بعدما كانت تحضن آدم بقوة بعدما أدركت أن الذي تحتضنه ليس الذي اعتادت تطويقه، ليفاجأ العم منصور وهو يرى آدم جثة هامدة تقف على قدميها وعيناه جاحظتان في السماء وفاه مفتوح على مصرعيه للهواء، فأمسكه من كتفيه وهزه بقوة وهو يصرخ باسمه لكن المنادى لم يحرك ساكنا فأمسك بيده بقوة يريد فقط إبعاده عن مكان الصدمة وصار يسحبه بقوة أكبر كدمية آلية متجمدة المشاعر، ولم يفلت يده إلا ليفتح باب منزله ثم دخل به دون أن يأخذ له طريق، فإذا كان الرجل جسما وروحا فآدم كان جسدا فقط أما روحه فعالقة حيث رأس أمه معلق، فلما رأينه النسوة أفزعهن منظره الذي كان أقرب منه إلى الموت على الحياة بعد أن لون سواد الموت محياه فغدا قبرا للحياة، فأخبر العم منصور زوجته وابنة أخيه بحالة آدم باختصار وأوصاهن بالحرص عليه وغادر مسرعا.

. الجريمة المعلقة .

عاد العم منصور مسرعا ليجد آدم جالسا حيث أجلسه ينظر حيث شخص بصره في الفراغ فطلب من زوجته وابنة أخيه أو بالأحرى ابنته إفساح الطريق لدخول شيخ المسجد الذي أحضره معه فاندهش الإمام لرؤيته بهذا الحال وقبل أقل من ساعة كان يسلم عليه ويقدم له التهاني بمناسبة العيد مع غيره من المصلين، بدأ الشيخ بقراءة آيات بينات من القرآن الكريم بصوت شجي لكنه سرعان ما تحول إلى صوت أجهش فالصدمة هزت الشجر و الحجر فكيف لها ألا تهز قلب بشر، ولكن آدم كان ساكنا كالحجر ولم تقطر من عينيه اللتان كانت بالكاد ترمش حتى دمعة، على عكس العم منصور الذي لم تهدأ دموعه في محجريه ولو للحظة وهو بين نارين فلم يستطع الابتعاد عن صغيره آدم ولم يستطع تحمل رؤيته في تلك الحالة،ولما وهن العظم منه وقف يهم بالخروج من الغرفة وهو يشد على عينيه وبمجرد أن نزع يديه عنهما وهو خارج الغرفة حتى رأى زوجته وابنته عند الباب تترصدان أي صوت من آدم ودموعهما تتصببان، فمسح دموعه واستجمع قواه وعاد أدراجه وجلس بالقرب من آدم وحضن يديه بكفيه وأخذ يفركهما تارة وينفخ فيهما تارة ويبللهما بدمعه تارة ويقبلهما تارة أخرى.

بمجرد أن سمعت كوثر الخبر باتصال من إحدى جاراتها هرولت إلى السيارة في ذهول ولم تخبر والديها بالفاجعة وأطلقت العنان لسيارتها ولكن دموعها كانت حرة ولم تنتظر إطلاق سراحها أما فكرها فقد انطلق وكأنه يسارعها وعيناها لا تفارق المرآة العاكسة كأن أشباح الموت تطاردها أو كأنها كانت ترى طيف مريم يجلس في الخلف ولا يفارقها، قبل أن تتذكر أن لها زوجا وأن للقتيلة أخا فوجدت هاتفه مغلقا قبل أن تستجمع ذاكرتها بعض المواعيد وأهمها أن زوجها سيدخل أرض الوطن هذا المساء وقد يكون الآن في الطائرة

وستحط بعد دقائق فظلت تتصل به لكنه لم يرن حتى قاربت المنطقة التي تقطن فيها أو بالأحرى مسرح الجريمة فرد أحمد من أول رنة كأنه ينتظر اتصالها لكنه لم يكن ينتظر أن تصدمه، فأمطرت عليه الأنباء كوابل بدون مقدمات وبدون مراعاة لمشاعره لأنه لم يراع يوما مشاعر الأخوة التي كانت تجمعه بينه وبين أخته ولم يشعر بأنها أخته يوما ولا أشعرها بأنه أخ لها وهي في أمس الحاجة إليه، لكن ردة فعله أدهشت كوثر بعد أن أمطر عليها هو الآخر مجموعة من الأسئلة المتتالية وهو يدرك ألا فائدة منها ولم ينتظر حتى جواب من كوثر وانفجر باكيا وهو لا يعلم بعد حقيقة مقتلها والجريمة الشنعاء التي ارتكبت في حقها، حاولت كوثر تهدئته ليس لأنها تريد ذلك بل لأن الأعظم لم يسمعه بعد وهي تحاول إخفاءه وهي تحاول كبت ما تستطيع كبته من دموع فتصدر عنها شهقات لو فهم أحمد معانيها لدفن في أرضه من عار ذنبه ومن نار ندمه فلو كان لها أخا لما تجرأ ابن آدم على لمس أخته وهو على قيد الحياة، فكيف للدم أن يصدأ في العروق وكيف للقلب أن يتصلب كالحديد، ولن تزيده الدموع إلا صدأ وتعفنا.

وصلت كوثر إلى المنزل الذي جمعها بالمغدورة مع غروب الشمس فخففت السرعة وكأنها تريد تخفيف فظاعة ما ستراه فركنت السيارة أمام البيت وتركت محركها مشتغل والأضواء مشتعلة وكأنها تتهيأ للهروب من هول ما ينتظرها، فترجلت من السيارة والخوف يرعش سائر جسدها كما يرعش هدير المحرك سيارتها، رفعت رأسها إلى المنزل الذي ساده الظلام ليس ظلام الليل الذي لم يحل بعد وإنما ظلام الحزن المعتم، دفعت نفسها بخطوات بالخوف مكبلة وهي تطوق نفسها بذراعيها فوقفت على أعتاب الباب تبحث عن مفتاح البيت ضمن رزمة المفاتيح وبصعوبة وجدته فراحت تدخله في القفل فانفتح الباب الذي كان مفتوحا وهو يصدر أزيزا مخيفا فتراجعت إلى الخلف في ذعر وفجأة رن هاتفها في يدها فانتفضت حتى أسقطته أرضا فاستجمعت قواها وانحنت تجمع أجزائه المفككة وتركبها

على ضوء مصابيح السيارة، لتقف بعدها وقد خيل لها أن المكان خال ولا يوجد فيه غيرها مع بعض الأرواح التي تشعر بوجودها هنا وهناك فالتفتت لتفاجأ بالشارع يعج بالتجمعات أمام بيتهم وكل الأنظار متجهة نحوها وبعض الأقدام تتقدم نحوها باستحياء وبرجولة مهزوزة وكأن الجرم الذي ارتكبه منذر ذنب في رقبتهم كل الرجال، فسلم جاراها بهدوء يطغى عليه الحزن فردت عليهما بجرعة زائدة من الحزن و الخوف، فقال الأول : ـ أنصحك ألا تدخلي وحدك سيدتي...

فردت عليه متسائلة : ـ ولماذا ؟؟؟ وهي تدرك تماما ما يقصده الرجل في نصيحته.

فأجابها الثاني موضحا : ـ لأنك لن تتحملي بشاعة المنظر...

فاستأذنت منهما بعدما رن هاتفها ثانية وراحت ترد عليه في عجل وقد كان المتصل زوجها أحمد وهو يسألها عن مكان مريم أو بالأحرى جثة مريم فأجابته باقتضاب : ـ في المستشفى...

فأردف قائلا : ـ أعطني عنوانه...

فارتبكت كوثر وأجابته بتوتر : ـ لا أعرف إلى أي مشفى نقلت...

فصاح بها متذمرا : ـ كيف لا تدرين، أين كنت إذن؟؟؟

فتنهدت تنهيدة تقول الكثير قليله وأين كنت أنت طول حياتها وأين أنت يوم مقتلها وأجابته مذكرة : ـ أخبرتك أنني سأقضي العيد في بيت أهلي...

فصمت قليلا ثم قال بنبرة أشد تذمرا : ـ وأين أنت الآن؟؟؟

فأجابته بارتباك أكبر: عند باب منزلنا...

فقاطعها وهو يصرخ بها وربما كانت المرة الأولى التي يصرخ في وجهها : ـ اسألي أي أحد من الجيران أريد العنوان فورا...

فتنهدت تنهيدة ثانية يقطعها صدى الشهقات وكأنها تقول له ليت الصراخ يصلح ما أفسدته ثم قالت مستسلمة : ـ حسنا كما تشاء...

والتفتت إلى جاريها تسألهما فأعطاها العنوان مباشرة فلقنته إياه فأقفل الخط مباشرة دون أن يردف كلمة.

انتبه الرجلان أنها أنهت المكالمة فقال أحدهما : ـ يمكنك الانتظار في بيتي ريثما يعود زوجك...

فلم تتردد للحظة بالموافقة مع أنها لم تدخل بيت أحد الجيران من قبل.

فتح الممرض باب بعد التأكد من هويته وكل موظفي الاستقبال يرمقونه بنظرات مريبة، واحد يتمتم : ـ الحمد لله أننا رأينا أحدا من أهلها...

وآخر يسأله عن سبب تأخره فتجاهل سؤاله كما تجاهل من قبل وجود أخته، وأخرى لم يمنعها الظرف من التغزل به وهي تهمس لزميلتها : ـ أنظري لوسامته ولباسه الأنيق يبدو وكأنه رئيس وزراء حزب الرجال...

وتنفجر هي وزميلتها في الدناءة وحقارة ضاحكتين متجاهلتين تماما لكل ما يحدث وما حدث.

راح الممرض يقرأ الأسماء وهو يدرك أنه يبحث عن جسم مفصول رأسه ولم يبق منه غير الاسم موصول قبل أن يشير أحمد إلى اسم أخته على إحدى الأدراج ومن الغريب أنه مازال يذكره وقد نسي صاحبته، فالتفت إليه الممرض وكأنه يعاتبه لعثوره على الاسم فقد وجده هو وقد أشاح النظر عنه، ففتح الممرض الدرج وهو يعرض عما بداخله منصرفا، فتقدم أحمد يبحث عن أخته بملامحها البريئة التي قتلت فيها بهتانا وزورا، وواصل تقدمه وصورة جثة أخته تكتمل ولكنها انقطعت فجأة كانقطاع البث من شاشة التلفاز لانعدام الإشارة، فانقض أحمد على الدرج يبحث عن الجزء الناقص في الصورة فوجد رأس أخته

على مسافة ليست ببعيدة على عكس المسافة التي كانت تفصله عنها، ففتح فاه وجحظت عيناه فأغمضهما بشدة وشدهما بيديه بقوة وكأنه يمنع سقوطهما إلى جوار رأس أخته، فاصفر وجهه وكأن الدماء قد انسحبت من شرايينه لتنطلق منه صرخات لربما أرعدت أجساد الموتى المسجاة في أدراجها قبل أن تصم مسامع الأحياء، ليدخل إثرها في موجة عنيفة جعلت الأطباء والممرضين يدخلون عليه ليجدونه يصرخ مترنحا على الأرض كشاة مذبوحة لم يحسن صاحبها ذبحها فبقيت تخور وتترنح طويلا لا هي للحياة عادت ولا هي لها فارقت، فتقدم نحوه بعض الأطباء والممرضين بمآزرهم البيضاء التي ترمز لصفاء ضمائرهم التي وإن تلطخت أو غابت أو ماتت مع إغراءات الزمن عوضتها بياض مآزرهم، فحقنه أحدهم بحقنة جعلت هيجانه يهدأ شيئا فشيئا حتى غدا كالجثة الهامدة فحملوه ووضعوه على إحدى الأسرة حتى تدب الحياة في جسده من جديد، وبعد حوالي ربع ساعة رن هاتفه الفخم في جيبه فخامة كل شيء ظاهر فيه وفي مظهره، فانتفضت نفس الممرضة التي كانت تتغزل به عند دخوله وقد اتخذت لنفسها مكانا بقربه وهي تتأمله فأخرجت الهاتف من جيبه وردت، ففوجئت كوثر بالصوت الذي رد عليها والطريقة التي تتحدث به صاحبته، فسألتها كوثر وهي تمتص غيضها فردت الممرضة بعجرفة أكثر قائلة : ـ أنا ممرضة المستشفى ومن أنت يا...؟؟؟

فثارت دماء كوثر عليها وصاحت بها : ـ أتسألين من أنا...سآتي حالا وأريك من أنا... وأين زوجي وماذا حدث له ؟؟؟

فاعتدلت الممرضة في وقفتها وعدلت نبرة صوتها معتذرة وهي تصف لها الذي حدث لزوجها وتطمئنها عليه لأنها تسهر على سلامته...

أقفلت كوثر الخط في وجهها واتجهت مسرعة إلى المستشفى.

دخلت كوثر غرفة أحمد مسرعة فوجدته غائبا عن الوعي تماما، لتلتفت بعدها وترى تلك الممرضة لا تزال في الغرفة وقد تعمدت التظاهر بعدم الانتباه لوجودها علها تنصرف فتصرف عنها عناء النزول إلى مستواها اللاأخلاقي، فنظرت إليها نظرة احتقار فسرتها هي بأنها غيرة فبادلتها هي الأخرى بنظرات تملؤها الحيرة وما إن حاولت نطق كلمة حتى أخرستها كوثر وهي تطردها من الغرفة وتأمرها بالالتفات إلى المرضى الذين هم بحاجة إليها كممرضة تمتهن التمريض، فأطرقت الممرضة رأسها وقد لمست القوة والهيمنة في شخصها فانسحبت معتذرة.

باتت كوثر الليل وهي تشد على يد زوجها عل حبها يوقظه وهي متأكدة أنه لم ولن تتربع على عرش مملكته غيرها ملكة، ولما استيئست من استيقاظه بحثت عن طبيب ليطمئنها عن حاله فلم تجد أحدا ربما لأنه كان يشغل نفسه بأمور تنسيه جو المستشفى الذي يذكره بحقيقة الموت فيبحث عن أكاذيب يصدقها أو ربما هو يغط في نوم عميق، فبحثت عنه في غرف المرضى وهي تفند شكوكها، فأخبرها أحد الممرضين أنه في مكتبه فتوجهت إليه بخطواتها الضاربة التي أثارت نفوس المرضى الذين كانوا يئنون ألما ولا صدى لأنينهم في نفوس الأطباء والممرضين على حد سواء وقد طغت عليهم الأنانية أو بالأحرى غرائزهم الحيوانية التي لا صلة لها بالإنسانية، وكانت كوثر تعلم مسبقا أن هذا هو حال كل المستشفيات العمومية ولكنها لم تر من قبل بأم عينها، كظمت غيظها وطرقت الباب بهدوء ولكن لا أحد على طرقاتها رد سوى صداها، فظنت ألا أحد بالداخل ففتحت لتتأكد من خلوه، لترى الانحطاط والقرف بأم عينها في جلسة غرامية مع الطبيب الذي يدعي أنه حبيب ونفس الممرضة التي طردتها من غرفة زوجها لتتأكد أنها لم تظلمها وأن الفسق مرضها، ففقدت كوثر صوابها فتعالت صرخاتها وتهديداتها، فانتظر الطبيب حتى تكمل ولم

يؤثر انفعالها على هدوئه ولما تأكد من أنها لن تضيف كلمة أخرى قال لها بضمير مريض أو بالأحرى بضمير ميت : ـ إن لم يعجبك الوضع فالبلد مملوء بالمستشفيات الخاصة...

فاشتاطت كوثر غضبا وهي تتوعده وعشيقته أن الليلة ستكون آخر ليلة يقضيانها في هذا المستشفى العام وستسهر على ذلك بشكل خاص، وعادت إلى غرفة زوجها فوجدت الحركة قد بدأت تدب في جسده فأسرعت نحوه تمسكه من يده وتهمس في أذنه : ـ آسفة حبيبي...

فتح أحمد عيناه وظل يتفحصها ويتفحص المكان من حوله وكأنه فقد الذاكرة كليا أو أنه كان يرى أخته في كل مكان ولم يكن لها نصيب من ذاكرته ولو بشريط من الذكريات.

استفاق أهل الحي ومنهم من لم ينم من أثر الصدمة وليس للعيد في ملامحهم نسمة وأي عيد إن كان أضحيته امرأة بريئة، وهم يجتمعون الآن أمام بيتها وقد طلب منهم شيخ المسجد أن يتعاونوا لتنظيف دمائها الطاهرة بعد أن انسحبت الشرطة مساء الأمس آخذة معها المجرم والضحية وأثار الجريمة تاركين البيت يغرق في الدماء، فامتثل كل المصلين لطلبه إلا العم منصور الذي اعتذر وآدم عذره ولكن عذره الأكبر كان في انحناءة ظهره التي تدل على استقامة قلبه التي توجب الانحناء لها احتراما وتبجيلا، فربت شيخ المسجد على كتفه وهو يطمئن عن حال آدم فأطرق العم منصور رأسه وكأنه يخفي وجهه المتجهم وعيونه المجفلة التي لم يغمض لها جفن طول الليل وهو يتلو على آدم آيات بينات من القرآن الكريم وقلبه قد انفطر وتمزق نياطه حزنا على المصاب الكبير الذي أصاب ابنه الصغير.

وقبل شروق الشمس كان الحي قد غرق في فيضانات من الدم وكأن السماء أمطرت بدل الماء دماء وقد امتزجت مع كميات كبيرة من المياه لشطفها لكن لون الدم ورائحته طغت وتغلغت في الأرض وجدران قبل رئتان، وما إن أوشكوا على الانتهاء حتى أطلت سيارة أحمد تقودها زوجته وهو بجانبها وخلفهما سيارة الإسعاف، فتوقف الكل و أنظارهم نحو سيارة الإسعاف التي تحمل بداخلها الجسد الذي كانت تسري في عروقه نفس الدماء

التي تحت أرجلهم، وقبل أن تتوقف سيارة الإسعاف احتشد وفد آخر يحملون النعش ويدخلونه إلى البيت الذي سيشيع منه وهم يترحمون على الفقيدة ويوحدون الله ووضعوها في المكان الذي سقطت فيه بالأمس جثة وفي البيت الذي حضنها في وحدتها بكل ما في جدرانه من قسوة ليستقبلها اليوم بأرض مخضبة بدمائها و لا يجرؤ أحد على التقرب منها أو إلقاء النظرة الأخيرة عليها أو حتى فتح تابوتها، بالإضافة إلى أنه لم يحضر الجنازة إلا بعض النسوة ممن تظهر عليهن قوة التحمل ولكن البعض منهن تجبرن بقوتهن ورحن يتحدثن في عرض المغدورة وهم يبرئون القاتل لأنه ما قتلها إلا ليحي شرفه الذي قتلته مع عشيقها وأن قضيتها هي قضية شرف بالدرجة الأولى، أما البعض الآخر منهن فلم تجف دموعهن وهن يعزون كوثر ويواسونها ويودعون لمريم بقلوب محزونة.

أما من الرجال فقد حضر الجنازة حشد غفير من سكان الحي والأحياء المجاورة، وشيعت جنازة مريم في جو مهيب وأحمد لم يكف على البكاء لا لدقيقة ولا لثانية عله يكفر ذنبه ويغسل جرمه إلى آخر دقيقة وهو يحمل اللحد رفقة بعض الرجال ولو كان بوسعه لحمله على عاتقه بمفرده كما كانت أخته تحمله وهي صغيرة وربما كانت هذه الذكرى الوحيدة التي كانت تجمعهما إن كان يتذكرها، كما لم يتذكر من قبل أن له أخت في أمس الحاجة إليه ولم يغفر لها ذنبا ارتكبته بكذبة بذيئة من أمه التي اعتدت لها مكيدة فقتلتها في حياتها لتقتل في الأخير شر قتلة بسببها.

وبينما هم يهمون بإنزالها إلى قبرها انهار أحمد أرضا وهو يبكي بحرقة وكأنه لا يريد فراقها أو أنه يريد أن يدخل القبر معها ليعوضها الحرمان الذي جرعه لها في حياتها التي لم تعش منها إلا الموت بأشكاله ودفنت في قبر الحياة قبل الممات فتعددت الأوجاع والمتوجع واحد، وتعدد الموت والقبر واحد.

تعالت أصوات الحشود مكبرة وموحدة وهم يشرعون لتغطيتها بالتراب وفجأة تخلل أصواتهم صوت رهيب بين صراخ ونحيب فإذا به شاب في العشرين من عمره يهرول نحوهم وينادي بأعلى صوته : ـ أمي... أمـــي... أمـــــــــــي...

فتوقف الجميع وهم يحملقون فيه بشفقة أدمت القلب قبل أن تدمع لها العين، وما إن وصل محمد حتى هم بالارتماء على أمه المسجاة في قبرها فحاول خاله إمساكه ليمنعه لكنه لم يأبه ولم ينتبه لوجوده، وهو يترنح ونواحه يزعزع القبور قبل الصدور، فحاول رجلان مساعدة أحمد لإبعاده لكن الشيخ طلب منهم أن يتركوه ينزل، فنزل محمد وهو يتحسس ألا يدوس على أمه فتتألم، وصار يتلمسها ثم ارتمى في حضنها وهي مسجاة في كفنها والدموع تنهمر من عينيه بغزارة وقلبه يعتصر مرارة ليدخل بعدها في موجة نشيج ونحيب وهو يحاول فتح الكفن فنزل خاله مسرعا يمنعه وهو يبكي بنفس حرقته، فكلاهما هجراها بحجة الظروف وهما أقرب وأحب رجلين إلى قلبها لكن الفرق بينهما أن ابنها مجبر وأخاها مخير، وظل أحمد يصارع لمنع محمد من فتح الكفن ربما لأنه خاف عليه من الصدمة أو أنه خاف على نفسه أن يصدم من جديد فرماه خارج القبر عنوة وقد أجبره على استعمال القوة، فأسرع الرجال يغطونها بالتراب ونواحه يتصاعد وكأنهم لا يرمون على أمه الميتة التراب بل يرمون عليه الجمر وهو حيا.

دفنت مريم وقد أحيت في القلوب دعوات بالرحمة والمغفرة وغادر الكل المقبرة بحزن وأسى ولم يبق غير أحمد والعم منصور واقفان على رأس محمد الذي كان يقبل تراب أمه ويسقيه بدمعه، فمسح العم منصور دمعه وانحنى نحو محمد وهو يربت على كتفه ويصبره فانتفض هذا الأخير لرؤيته وكأنه تذكر شيئا ثم أخذ يلتفت يمينا وشمالا يبحث عن رائحة أمه في غير رائحة التراب ثم قال بصوت مبحوح وكأنه صدى لقلبه المجروح : ـ أين أخي آدم ؟؟؟

فهطل دمع العم منصور الذي وإن غاب آدم فقد كان وكأنه ينوب عنه ببكائه، لعل دموعه تخفف ألمه ومصابه، أما خاله أحمد فبقي ينظر إليه نظرات ملؤها الشك والجهل، ربما شك فيمن يكون آدم هذا، وربما جهل تام بمكانه.

تردد العم منصور في الإجابة لأنه لم يرد أن يحط الملح على الجرح وهو لا يزال ينزف، لكن محمد أعاد عليه نفس السؤال وبإلحاح أكثر، فتنحنح العم منصور وقال باقتضاب : ـ هو في بيتي...

فنظر إليه محمد متعجبا ثم قال : ـ لماذا؟؟؟ ولماذا لم يحضر جنازة أ...

وتوقف قبل أن يواصل باكيا وهو يشهق شهيقا لا يكاد يأتي بعده زفير

فلم يكن أمام العم منصور خيارا آخرا إلا أن يخبره بوضع آدم، فطأطأ محمد رأسه وتبعه بعده خاله، فقال العم محاولا تخفيف الوزر عنهما : ـ يمكنكما رؤيته إن شئتما...

وهم منصور وأحمد بالرحيل وهذا ما صعب على محمد الذي أغمس وجهه بين راحتيه اللتان لا يزال التراب عالقا بهما وهو يبكي بكاء الوداع الأخير، فتقدم خاله أحمد نحوه بخطوات متثاقلة و خائفة من أن يصده، لكنه تشجع واحتضنه لأول مرة في حياته فأجهش محمد باكيا حتى أبكى حاضنه وحاضن أخيه.

رحل الثلاثة وتركوا مريم تحت التراب وقد تعودت من أخيها وإبنها الرحيل لكن هذه المرة هي التي رحلت رحيل ليس بعده رجعة، وسكنت تحت الأرض ولكن هل ستتحمل الأرض أوجاع مريم التي سقتها بدماءها حتى الثمالة فأصابها دوار هزها وهز من عليها من الصدمة.

فهذه هي الحياة يمكنها أن تفرحنا بصدفة كما يمكنها أن تفجعنا بصدمة، ويحدث أن نقرأ أو نشهد قصصا للألم بكل ما تحمله هذه الحروف من معاني، فنتوق لمعرفة النهاية علها تكون بنفس الحروف مع اختلاف الترتيب ليشع الأمل من القلب الذي يعاني، وفجأة

يتدخل الموت معلنا النهاية أو بداية حياة جديدة ربما تكون سعيدة في عالم آخر، لكن هل يعتبر الموت لمن قتلهم الوجع في هذا العالم نهاية سعيدة ؟؟؟

دخل العم منصور أولا ليفسح لهما الطريق ثم رحب بهما وقادهما إلى حيث آدم الذي كان مستلقيا وعيناه شاخصتان إلى الأعلى، فتقدم العم منصور نحوه وأجلسه لربما اشتم ريح أخيه لكنه لم يتأثر البتة على عكس زائرية اللذين عقد منظره لسانهما وشل خطواتهما، فتحرك محمد نحوه بخطى مضطربة وانحنى نحوه وهو يهمس باسمه ليرتفع همسه إلى نداء ثم إلى صراخ في وجهه وهو يهزه بقوة وكأنه يعاتبه على مقتل أمه، وقبل أن يتدخل العم منصور ليكف أذاه عنه كان محمد قد خر على ركبتيه وأغمس رأسه بين ركبتي أخيه وهو يبكي أخاه بحرقة منخنقة كما بكى للتو أمه، أما أحمد فقد ظل شاخصا شخوص آدم وعاجز عن فعل أي شيء تماما كما لم يفعل من أجلهم شيئا في حياة أمهما وأخته فكيف يفعل وهي ميتة.

لم يلبثا إلا قليلا حتى استأذنهما العم إلى غرفة الضيوف لأن آدم يحتاج إلى الراحة، فاستأذنا منه الرحيل وتركا آدم بين أيدي أمينة وآمنة ولو لم تكن كذلك لما تغير الوضع، فالسيد أحمد طائرته صباح يوم الغد ولا يستطيع تأجيل مواعيده الهامة، أما محمد فقد كان بحاجة ماسة إلى جرعات زائدة من الأقراص المهلوسة و الرعشة في أطرافه أكبر دليل على ذلك، لكن رحيلهم جعل العم منصور يتنفس الصعداء وقد أمن عدم حدوث ما كان يخشاه طول الطريق وطول فترة مكوثهما القصيرة مع أنه كان من المستحيل أن يسلمهم آدم وهو في تلك الحالة.

وما هي إلا لحظات قليلة حتى دق الجرس فانتفض قلب العم خشية أن ضمير أحدهما قد عاد به لاصطحاب آدم، ففتح الباب ليجد وفدا غفيرا من الشيوخ يتقدمهم شيخ مسجد الحي ليصبح بيت العم منصور كمسجد صمت مئذنته لترتفع فيه تلاوات عطرة من

الذكر الحكيم تتعطر بنفحاتها الروح ويخشع لها القلب وتدمع لها العين ولكن هل ستتأثر روح وقلب وعين آدم؟؟؟

بعد حوالي ساعة تقريبا من التلاوة المتواصلة توقف أحد المشايخ واتجه نحو شيخ الذي أتى بهم وهمس في أذنه أن يجب أن نتوقف، فأمعن الشيخ نظره في آدم الذي كانت تبدو حالته ميؤوس منها ثم التفت إلى العم منصور الذي كان يترجاه للمواصلة بعينيه الدامعتين، فحرك الشيخ رأسه علامة الرفض وهو يحث الشيخ الآخر على المتابعة.

فتابعوا وكلهم أمل وثقة في قدرة الرب، وبعد حوالي عشرين دقيقة نزلت من عين آدم دمعة قرت لرؤيتها عيون العم منصور، فقويت عزيمة المشايخ وكأنما هذه الدمعة قد روت عطشهم لتتبع تلك الدمعة أمطارا غزيرة وسط دموع العم منصور الذي كان كأرض عطشى أمطرت السماء عليها بغزارة وهو يقبل جبينه تارة ويحتضنه تارة أخرى و يحمد الله عزوجل تارة كبرى.

لكن قرير العم منصور سرعان ما احتر من جديد عندما رأى آدم مازال مكبلا في سكونه ولم تحرر غير دموعه، فتراجع إلى الخلف وسط التلاوات الجياشة التي توقفت فجأة وهم يرون آدم يقفز في حضن العم منصور وقد أجهش بالبكاء وهو ينادي على أمه وكأنه كان يرى في حضن عمه حضن أمه الذي احتضنه التراب، قبل أن يردف قائلا : ـ خذني إلى أمي...

فترنح العم منصور من طلبه وكأنه طعن بخنجر في ظهره وهو يفكر بحيلة يخبره بها أن أباه قد قتل أمه وقد رأى رأسها معلقا بأم عينيه اللتان كانتا شاخصتان من هول المنظر قبل قليل، فأردف آدم وكأنه أشفق على حاضنه : ـ أريد زيارة قبرها أرجوك...

فزفر العم حامدا الله على نعمة العقل والإدراك اللتان لا تزالان مثبتتان في رأس ابنه وهو يربت على كتفه ويعده بأن يأخذه صباح الغد بشرط أن يرتاح هذا المساء.

في صباح اليوم التالي غادر أحمد أرض الوطن قبل طلوع الفجر على موعد طائرته المحدد وكأن طارئا لم يطرأ، أما محمد فقد عاد أدراجه مباشرة بعد زيارة آدم أو بالأحرى تمثال آدم الذي حرك مشاعره لفترة مؤقتة وسرعان ما سارع لتخديرها، أما آدم فقد تحركت الحياة فيه من جديد وقد كادت أن تفارقه بفراق أمه التي رحلت وتركت شبح رأسها المعلق عالقا نصب عينيه لا يراه غيره كما لم يره في الواقع أحد من أهله سواه وعمه منصور الذي حاول جاهدا أن يعوض كل أهله، وقد كان ينتظر بفارغ الصبر ليرى قبر أمه لعل رؤيته تلهمه الصبر وقد اكتوت أحشائه بالجمر واختنقت أنفاسه من القهر، لتزداد أنفاسه اختناقا وهو يدخل المقبرة بخطوات تكاد تكون مشلولة والعم منصور يطمئن عليه بين رفع القدم ووضع الأخرى وليس لآدم إلا أن يطمئنه وإن لم يصدقه، وقبل أن يصل تسارعت خطواته بتسارع نبضاته وجثا على قبر أمه الذي كان لا يزال ترابا فانقبض قلب العم منصور وبقي واقفا مكانه وهو لا يصدق ما يرى فقد كان يظن أن الآباء وحدهم من يشعرون بأبنائهم مع أنه لم يجرب هذا الإحساس في حياته، لكن آدم أعطاه درسا في إحساس الابن بأمه التي ترقد ليس بجسم ميت فحسب وإنما بجسد مفصول رأسه، فالابن البار يدفن قطعة من قلبه مع والديه لا قطعة من كبده فحسب.

ظل آدم لأكثر من ساعة يجلس على قبر أمه والعم منصور يعتصر ألما بكل دمعة تنزل من قرة عينه آدم الذي كانت دموعه كالشلال ولكم أن تتخيلوا حجم ألم الاثنين.

اضطرت كوثر لاخبار ياسمين ورحاب بنبأ وفاة أمهما الذي صدمهما إلى درجة أنهما لم يصدقا ذلك وانهارتا كلية مع أنها لم تخبرهما بالحقيقة كاملة فحقيقة أن أباهما قد قتل أمهما حقيقة قاتلة تقتل القلب والعقل صغرا أم كبرا، وكانت كوثر تنوي أن تبقيهما وإبنها عند أهلها ريثما يهدأ الوضع لكنهما لم تهدآ دقيقة وهما يلحان عليها بالعودة لربما كان موت أمهما

كذبة وليس بحقيقة، فعزمت كوثر على العودة إلى البيت وبالتالي العودة بهم إلى مقاعد الدراسة لكي يعودا إلى حياتهما العادية متناسية الأحوال اللاعادية.

عادوا إلى البيت الذي لم تبق منه إلا جدرانه أما روحه فقد زهقت تماما وهي تحاول لملمة جروحه، فتحت كوثر الباب ودخلت قبلهم لكن الثلاثة ظلوا واقفين على العتبة كأنما بينهم وبين الدخول عقبة والواحد منهم يمسك بيد الثاني بقوة وعيونهم مغرورقة بالدموع ولا يدرون هول ما علق على جدران وكم روحا علقت من أرواح الجموع، فدخلوا وما كادوا ليفعلوا لولا أن كوثر أدخلتهم وأغلقت الباب خلفهم فأصدر صريرا كعادته ولكنه أثار الذعر في نفوسهم كغير عادتهم، فتشجعت كوثر وتقدمت وهي تحثهم على الدخول وهي تمسك ياسمين من يدها وهي تجر سلسلة متشابكة الأصابع خلفها، وما إن وقفوا على الباب الذي كان مفتوحا على مصرعيه حتى اجتاحت رأتهم رائحة لم يسبق لها أن دخلت أحشاءهم وليست إلا رائحة دم أمهم الذبيحة.

ارتجف آدم بصوت خطواتهم المتقطعة فوثب وهو يمسح الدمع من عينيه ويستأذن من أمه ليرى من يزورهما في هذا الوقت، فتفاجأ بأختيه تجريان نحوه وتحتضنانه بشدة وهما تذرفان جمرات في حضنه بكاء على حضن أمهم الذي دفن ولم ينعما منه بحضن دافئ، فاحترق آدم بعبراتهما وقد خانته كل عبارات المواساة، وهو يعدهما في سريرته أن يكون لهما نعم الأخ ونعم الأب ونعم الأم وينسيهما ما تجرعاه من معاناة.

قضى آدم ليلة بيضاء إلا من سواد الكوابيس التي كان يتوسدها، وبأذان الفجر نهض من فراشه وهو يستل ذراعيه اللتين كانتا وسادتين لأختيه بعد أن نال الخوف والذعر والأرق منهما، فتوضأ وصلى صلاته في البيت كغير عادته و دعا المولى أن يكون في عونه ليعيل أختيه وأن يصبرهم ويفرج كربهم وهو يحبس دموعه التي كادت أن تغترف بين يديه، ثم نهض وكله توكل على الله واتجه إلى المطبخ وراح يحضر القهوة وما إن بدأت بالغليان حتى

غلت أحزانه ففاضت حمم دموعه تحرقه وتثلج فؤاد من يراها، فسكب أوجاعه في فنجان قهوته التي كانت بدون سكر لأنه لم يكن موجودا في البيت أساسا بالإضافة إلى أن وجوده لا يصنع الفارق أصلا، فأمسك فنجانه وتجرع رشفة ولم يكد يصيغها ليس لمرارتها بل لأن غصة في حلقه تخنقه تمنع حتى الهواء من المرور وهو سارح في متاهة أفكاره وكأن هموم الأرض ومن عليها فوق عاتقه ربما لأن أختيه كانت بالنسبة له أغلى من كنوز الأرض وما عليها.

شرقت شمس اليوم لكن شمس آدم كانت تحجبها الغيوم السوداء فتجعل نهاره ليلا حالكا، رفع رأسه إلى الساعة التي لازلت عقاربها تلدغ ولا شيء مر يمر إلا وزاد جرعة السموم على الهموم فكانت تشير إلى وقت استيقاظ أختيه فتوجه إليهما وأيقظهما بحنان لم يعهداه حتى من أمهما، وما هي إلا دقائق حتى سمع طرقات على الباب متبوعة بنداءات أمين على رحاب وياسمين ففتح له آدم فتعجبت الخالة كوثر من كون آدم لم يجهز بعد على عكس أختيه فسألته عن خطبه فأعرض عنها إلى الداخل فتبعته وأمسكته من ذراعه وأدارته نحوها ورمقته بنظرات شفقة وحنان وقالت بنبرة حزينة : ـ مابك يابني؟؟؟

فاغرورقت عيناه بالحزن وهو كظيم فاحتضنته وهي تهمس في أذنه : ـ كن صبورا من أجل أختيك...

فتراجع إلى الخلف وعدل وقفته كوقفة الجندي المقبل على الحرب وقال بكل حب : ـ ومن أجلهما قررت إنهاء مشواري الدراسي...

تفاجأت كوثر لأنها تدرك ما تمثله الدراسة بالنسبة لآدم وتعلم الحرب التي خاضها مع نفسه حتى وصل إلى قراره هذا والحرب التي خاضها من أجل الوصول إلى المستوى الذي هو فيه اليوم، فربتت على ذراعه وقالت له مهدئة : ـ ارتاح اليوم وسنتكلم في الموضوع مساء...

دلف الثلاثة إلى قسمهم وجلسوا في أماكنهم المعتادة لكن نظرات زملائهم إليهم لم تكن كالمعتاد وهي تفيض بكلام البوح به من المحال ولو باح لاستباح أرواحا من حدة سيف المقال، لكن النظرات تحولت إلى غمزات وهمزات لم يفهمها أحد غيرهم قبل أن تتقدم بنت نحو ياسمين التي كانت تجلس في الطاولة التي تتقدم الطاولة التي يجلس بها أمين ورحاب وقالت بصوت جهوري : ـ أصحيح أن أباك قتل أمك ؟؟؟

وقبل أن تكمل كان الهلع قد أصاب ياسمين واحتقن الدم في شراينها ولم تنبس بكلمة، أما رحاب فقد احتقنت غضبا فوثبت نحو الفتاة وهي تنفي الجريمة لكن الفتاة تحدتها ما دفع رحاب إلى دفعها إلى الوراء بقوة حتى سقطت أرضا وكاد رأسها أن يرتطم بالأرض قبل جسدها لتنهال عليها ضربا و الفتاة لا تكف عن صراخها بالجرم المشهود، أما أمين فقد كان منهمكا في مسح الدمع عن وجنتي ياسمين التي كانت تبكي بحرقة وتشهق بخنقة وهي تقول متلعثمة : ـ ليس صحيحا... ليس صحيحا...

عادت رحاب إلى أختها لاهثة ولم يشفى غليلها بعد فجلست بجانبها تواسيها ولما أمن زملاؤها شرها لفظ أحدهم يستنصر زميلته المسجاة على الأرض : ـ هذا صحيح...

ويرد عليه الآخر : ـ نعم صحيح...

وتقول أخرى : بل أكيد...

وتصاعدت أصواتهم التي كان لها صدى في قلوب ياسمين ورحاب وحتى أمين كالصوت المقصلة، فوضعت ياسمين أصابعها في أذنيها وهي تصرخ ناحبة من جديد : ـ ليس صحيحا... ليس صحيحا...

فألهب صراخها قلب أمين وسائر جسده قبل أن يلهب في الفتاة التي لم تعدل بعد وقفتها وهي تعدل شعرها فأنقض عليها أمين وأوغل أصابعه فيه وسحبها منه وهي تصرخ بأعلى صوتها ولكن أمين لم يكن يسمع غير صراخ ياسمين وحتى معلمته لم تستطع إنقاضها من

بين أصابعه بعدما أتت مهرولة من القسم الثاني على صدى الجلبة التي لم تهزها حتى هزت المدرسة برمتها وهي عند زميلتها ربما تحكي لها أحداث الحلقة السابقة من المسلسل العاطفي الذي لم يزرع فيهم ذرة عاطفة، كل شيء وارد إلا أن تكون تروي لها الحلقة المفرغة من حلقات ضميرهم الذي لا يحركه إلا الدورات التفتيشية.

دخلت المعلمة الحلبة وظلت تشد أمين نحوها وهو لا يزال يشد شعر البنت وكأنه جزء لا يتجزأ من أصابعه، فتعالت صرخاتها مع أنها كانت تريد معالجة الوضع في صمت، لكن أمين كان كالثور الثائر وأثار ثورة في كل المدرسة، ولم تهدأ ثورته إلا بعد تدخل إدارة المدرسة ومديرها بالتحديد الذي ثار غضبا هو الآخر على المعلمة وأمرها أن تهدئ الفوضى العارمة التي حدثت بسبب إهمالها، وأن توافيه إلى مكتبه عند نهاية الفترة الصباحية، وأخذ الأربعة وأمر مساعدته بالاتصال بالدكتورة كوثر لأنها كانت تعلق لابنها نجوم يقف لها الكل تحية من الحارس إلى المدير.

أما آدم فقضى اليوم وهو واقف في نفس المكان مقابل الجدار الذي كان يحمل رأس أمه، وكأنه يريد أن يمحي ذلك المشهد الذي رسخ في ذاكرته بمشهد الجدار الفارغ إلا من أثر الدماء التي لا تزال عالقة به.

فصل الخريف
الأشجار

ليمر الزمن ولسان آدم يقول :

لقد كبرت يا أماه...

كبر وجعي الذي بلغ منهاه...

ولا غير من دبه في روحي يعرف فحواه...

فأنا الضعيف الذي من جروحه يستمد قواه...

أنا السقيم الذي من سقمه تستقيم خطاه...

أنا الحزين الذي يرسم الابتسامة على الشفاه...

أنا المريض الذي لا طبيب ولا دواء شفاه...

أنا الشيخ الذي لا شباب أغراه...

أنا الخريف الذي لا ريح أعراه...

أنا السجين الذي ولد والأصفاد في معصماه...

أنا الصامت الذي لا يكف عن الصراخ وامعتصماه...

لكن لا أدري كيف كبرت يا أماه ؟؟؟

وأنا لا أذكر أنني كنت صغيرا واأسفاه...

وصغارك تحت جناحي يبغون حماه...

فأرفع لهم من الجناح يمناه...

لكي لا يصمهم صدى الأنين من يسراه...

أو يرعشهم ترنح السجين بين ثناياه...

أو يتألموا إذا ما الألم جلده باحدى أو بكلتا كفاه...

أو يفزعهم إذا ما صرخ بجوف الليل وارباه...

فالرب يطمع أن ينجيه ويسمع سره ونجواه...

ومع ذلك فقد كبرت يا أماه...

وأنا أربي صغارك وأنا اليتيم الذي الشقاء رباه...

وضاعت مني طفولتي وشبابي فواحسرتاه...

لكنني لازلت أرى الطفل بداخلي وليس سواي يراه...

أسمع نواحه إذا ما الرجل قسى عليه حتى أبكاه...

أضعف إذا ما قرينه بلعبة غواه...

أضيع إذا ما ضاع بين أبناء جيله وتاه...

أغرق في دمعي إذا ما نظرت إلى بؤبؤ عيناه...

تتجمد قطباي إذا ما قطب حاجباه...

ولأنني كبرت يا أماه...

ولأنني أئمن القبر على طفلي أكثر من الحضن الذي حواه...

فقد دفنته بيدي ودفنت معه ذكراه...

ولم أرحمه وهو يتشبث بي ويتوسل وارحمتاه...

فبقسوة قيدته وملأت بالتراب فاه...

وطمست ملامحه وأنا أستغفر الذي سواه...

حتى أغمي على ضميري وهو يصرخ واندماه...

فجبرت قلبي بكفنه وأجبرت عقلي أن ينساه...

لكنني مازلت أراه في أرجائي وأسمع دبيب خطاه...

ورغم أنني كبرت يا أماه...

إلا أنني لن أغفر لصلبي الذي لم أناده يوما بأبتاه...

ولو لم يهجرنا لقبلت قدمه ألتمس رضاه...

ولحملته على ظهري إذا ما الهرم أعياه...

ولعوضته عن شبابه الذي في خدمتنا أفناه...

ولكنت أحن عليه من أبيه وأمه وحتى حناياه...

ولكنت شمسه وقمره اللذان لا يغيبان من سماه...

ولألبسته روحي بعد أن أعريها من جروحي ولسبلتها فداه...

ولكنت مرافقه حتى تغادره روحه وبأناملي أغمض جفناه...

ولحملت نعشه على كتفي ولمشيت به حافي القدمين حتى أبلغ مثواه...

ومع ذلك فقد كبرت يا أماه...

لكن هل يكون صغيرا من فقد أبواه ؟؟؟

وهل يجوع من رضع الفقر من بين عجاف ثدياه ؟؟؟

وهل يظمأ من تكرم عليه الجفاف بشقاه ؟؟؟

وهل يموت من كان السم أول رشفة بين شفتاه ؟؟؟

وهل يحيا من كان الموت أول من حياه ؟؟؟

وهل يحلو له العيش من كان العلقم سقاه ؟؟؟

وهل يعشق من عشقه الحزن وباح له بسر هواه ؟؟؟

وهل يكون له وطن من كان اليتم منفاه ؟؟؟

لكن رغم كل هذا وذاك لا تحزني فقد كبرت يا أماه.

فهكذا كبر الصغير آدم ليجد نفسه في نفس المكان ينظر إلى نفس الاتجاه ويقف في نفس الزاوية ولكنه قد أصبح رأسا لزاوية يعرف متى يجعلها حادة ومتى يتركها منفرجة ومتى يجعلها قائمة وطرفا زاويته أختاه ياسمين ورحاب اللتان كان آدم بالنسبة لهما مركز دوران

حياتهما وقد سعى سعيا حثيثا لينسيهما كل ألم عاشتاه رغم أن بعض الآلام لا تنتسى، حتى أنه أراد تغيير المنزل لكن زوجة خاله لم تقبل وحجتها في ذلك أن الحزن ليس في المكان وإنما في الذي كان ولن ننسى ما كان إلا إذا أردنا ذلك، وهي تعده بأن تكون لظهره سندا، كما أن آدم اليوم ليس بآدم الأمس فهو محام متمكن تتضرع له أصعب القضايا المستعصية وقد وضع لنفسه في عالم المحاماة اسما ترتجف لم المحاكم بفضل الحكيم وبفضل حكمة العم منصور الذي جعله وريثا له في حياته قبل موته وبفضل الحكيمة كوثر التي أقنعته بأن يجعل العلم سلاحه الذي يحارب به ويدافع به عن أختيه.

أما أمين فقد كان و مازال وحيد أمه و أبيه المدلل أو بالأحرى أمه فقط أما أبوه فقد أثبت غيابه في الحرية، وهو اليوم غائب بحكم أنه مسلوب الحرية، فقد قبض عليه قبل تسعة أشهر بعد أن اكتشف أنه بارون مخدرات داخل الوطن وخارجه، وإن كان أمين من قبل يراه في ثلاثة أشهر مرة فهو اليوم لم يره منذ ثلاثة أشهر الأخيرة مضافة إليها أشهر الحبس التسعة تلك هي سنة كاملة.

ولم يجد في كتفه غير آدم الذي وقف معه فكانا كرجل واحد، أما كوثر فقد صعقتها الخيانة في صميم قلبها ومن وقع الصدمة لا العقل تفكر ولا القلب تحمل، فوقعت مغمى عليها كورقة سقطت قبل اصفرارها بعد أن دار أمامها شريط الذكريات الوهمية وكلها عزم أنها لن تغفر للذي أوهمها غدره وخيانته لاسيما أنها علمت أنه كان يتاجر بها قبل و بعد زواجه بها وهي التي كانت متيقنة بأن أحمد مستعد للتخلي عن أغلى شيء يملكه من أجل حبها، وهو في الحقيقة لم يستطع التخلي عن كومة غبار سام لا من أجلها ولا من أجل ابنهما الذي كان لحبهما وساما.

كانت هذه الفترة بالنسبة لكوثر أصعب فترة في حياتها كلها، ولكنها على الأقل لم تكن وحدها فوالديها كانا سندا لها خصوصا أبوها الذي اختاره شريكا لحياتها من بين الكل

المتقدمين لها ومن بينهم الدكتور أمجد، ولم يسمحوا لها بأن تظل في بيتها الذي لم تكن لتبقى فيه ولو سمحوا لها فقد أصبح بالنسبة لها سجنا صدئت قضبانه بالكذب والخيانة بعدما توهمت لسنوات عدة أنه قفص ذهبي مفتوح على مصرعيه، بالإضافة إلى خاتم الألماس الذي وإن أخفى الغياب لمعته لشهور فبمجرد أن يعود الحبيب ويطبع على يدها قبلة فيلمع من جديد، وتلمع أسنان الغائب العائد بابتسامة كلها يقين بأن الحب الذي رصع بخاتم من الألماس لن تكون له خاتمة بكل مقياس.

انعزلت كوثر في غرفتها فلم تكن تتحمل نظرات الحسرة والانكسار من والديها وهما يريان تدهور نفسيتها بشكل كبير وحتى إبنها أمين منعته من زيارتها فقد كانت زيارته أكبر وجع يوجعها، لكن عزلتها لم تدم إلا أسبوعا فقط لتقرر العودة إلى حياتها فهي القوية التي لا تنكسر ووحده حبيبها من حبها خسر، وهي في طريق العودة إلى منزلها وفي المنعرج الأخير المؤدي إلى شارع حيهم أدارت المقود وأخذت الاتجاه المعاكس المؤدي إلى عيادة الدكتور أمجد وكأنها تذكرت وجوده في فترة من حياتها في هذه اللحظة على عكس أمجد الذي لم ينسها لحظة وكان يطمئن عليها كل يوم بعد صدمتها.

دخلت كوثر العيادة فاستقبلتها ياسمين بصدر رحب ملؤه الشوق و الحب ومن ثمة استأذنتها لتعلم الدكتور بقدومها فاستوقفتها الخالة قائلة : ـ انتظري... فقد جئت بصفتي مريضة لا صديقة وسأنتظر دوري ككل المرضى ولا تخبريه بقدومي...

فأخفت ياسمين استغرابها قائلة : ـ بالتأكيد كما تشائين...

وانصرفت تكمل عملها الذي صار متنفسها بعد أن ساءت حالتها هي الأخرى نتيجة لعدم تمكنها من الحصول على شهادة البكالوريا رغم تمكنها الذي كان يشهده أساتذتها قبل زملائها فصعقت بالخبر كما صعق أمين الذي تحصل عليها بتقدير ممتاز يخوله دخول أي جامعة يختارها، كما صعقت رحاب أيضا التي استغربت حصولها عليها وهي التي كانت

الدراسة آخر اهتماماتها و لطالما كانت تتهكم من أمين و ياسمين وهما منهمكان في الدراسة، ورغم صدمة ياسمين إلا أنها حاولت أن تفرح معهما لكن الحزن طغى عليها إلى درجة أن أمين رفض أن تقيم له أمه الحفلة الكبيرة التي كانت تجهز لها وفضل أن يبقى مع ياسمين لمواساتها و يمسح دموعها التي لم تقدر على حبسها.

ولما لاحظت الخالة كوثر أن وضع ياسمين يزداد سوءا و آدم مشتت الذهن بسببها تكلمت معه واقترحت عليه إرجاعها إلى طبيبها النفسي فلم يعارض ووافق على الفور وأخذهما بنفسه إليه وسلمها له وهو يوصيه بها كأنه سلم له قطعة من روحه وهو يسأله أن يداويها ويداوي جروحه. وما هي إلا أيام قليلة حتى تماثلت العليلة للشفاء ظاهريا لكن خلدها ظل يعاني وقد قررت إنهاء دراستها وعزمت عدم إعادة السنة ولكن أمين لم يستسلم و ظل يلح عليها مع أنه كلما فتح معها الموضوع بكت بكاء الحبيبة لفراق حبيبها، وهذا ما جعل أمين يواصل في الحاحه إلى درجة أنه اقترح عليها إعادة السنة معها وكان سيفعل ولو أن أمه لم تكن لتوافق لكن ياسمين رفضت الفكرة ورفضت شفقته عليها، فبالرغم من أنها كانت ضعيفة النفسية إلا أنها كانت قوية على نفسها.

كانت هذه المرة الأولى التي يفترقان فيها عن بعض وكانت دموعها تنزل عليه كالجمر وهو يود أن يحتضنها ولو احترق هو لتخمد نيرانها لكنه لم يستطع الاقتراب منها فهو اليوم رجل وياسمين امرأة حياته التي يخفي حبها في قلبه منذ سنين لذا كان يحسب كل تصرفاته و خطواته معها على عكس رحاب التي كان يتصرف معها بعفوية تامة فقد كان يعتبرها أخته التوأم التي شاركته الرحم لا ابنة عمته التي شاركته يوم الولادة فقط، وقد كان يشاركها كل أسراره وتكشف هي الأخرى كل أوراقها أمامه بسوادها وبياضها وكانت كل أسرار أمين تتمحور حول سره الكبير لياسمينة قلبه وروحه التي لا تذبل أبدا وهو يسقيها بحبه سرا.

أما رحاب فقد كانت ترى الحب كذبة كبيرة يقع المرء في طلامسها فيصدقها إلى حين تصفعه الحقيقة، وكلما حاول أمين مناقشتها أجابته بإجابات صادمة أولها : ـ إن كنت تحب ياسمين حقا فلما لا تصارحها ؟؟؟

فيتجهم وجهه وتحمر وجنتاه ليس خجلا وإنما غيظا ويجيبها كدأبه : ـ لا أريد أن أخسر حبها كأخت لأنني متأكد أنها تحبني كأخ لها وأنا سأقبل حبها بالشكل الذي تراني فيه...

لتصدمه بإجابة أخرى قائلة : ـ إن لم تحب الأم وليدها وإن لم يحب الأب ولده وإن لم يحب الأخ من شاركه رحمه أو صلبه فكيف يكون الحب بين طرفين غريبين عن بعضهما !!!

ومن ثمة تعرض عن النقاش فهذا الموضوع بالنسبة لها عقيم ومستحيل أن ينجب قلبها حبا لابن آدم غير حبها الوحيد لأخيها آدم فيحاول أمين تغيير نبرتها الحزينة فيقول مبتسما : ـ وأنا أين ذهبت أم أنك لا تحبينني أيضا...

فتبتسم ابتسامة باهتة و تقول : ـ ألم يكفك معجباتك ومحبوباتك يا محبوب الفتيات.

فيرد بغرور ولم يعجبه جوابها : ـ أنا لا تستهويني الحشرات فحديقة قلبي فيها ما يكفيها من الفراشات...

فترفع حاجبها لتسقط غروره لكنه يواصل ليرد لها الصاع صاعين : ـ لدي فراشة ملونة بكل الألوان، وفراشة حية وإن ماتت ألوانها، وفراشة بيضاء...

ليصمت قليلا ثم يردف وفراشة... امـــــــــــــــم...

ورحاب تنظر إليه وهي تنتظر اللون الذي سينسبه لها فيكمل وهو يهم بالوقوف استعدادا للهرب ويواصل : ـ سوداااء...

فتجري وراءه وهي تسخر من شقاره الزائد وما إن يصعد الدرج يقف في الأعلى و ينسدل بنصفه العلوي نحوه وهي مازالت في الأسفل ويقول لها بهمس مسموع : ـ وإن كنت فراشة سوداء فأنت لروحي دواء.

فتبتسم وتعود أدراجها وهو ينزل الدرج نحوها هوينة هوينة، أما ياسمين فرغم أنها تسمع مثل هاته الكلمات كل يوم إلا أنها مازالت توجعها وكانت كلما رأتهما معا تعرض عن مجلسهما ولو بعد الحاح أمين الشديد وهو يشير إلى رحاب بحاجبيه أن تدعوها لكن ياسمين كانت عنيدة جدا في قراراتها.

بدأت رحاب العمل في هذه العطلة كمندوبة مبيعات في إحدى المؤسسات مقابل نسبة مما تبيعه بالإضافة إلى نسبة أخرى مما يبيعه المندوبون الذين أضافتهم تحت إسمها لذا كانت تسعى لتوسيع مبيعاتها، وفي إحدى الأمسيات خطرت لها فكرة وهي أن تعرض مستحضرات المؤسسة التي تعمل معها في العيادة الدكتور أمجد التي بدأت ياسمين بالعمل فيها بحكم أنه يعامل ياسمين معاملة خاصة وهو الذي عرض عليها العمل معه ليس لأنه يحتاج مساعدة بل لأنه يدرك أن ياسمين تحتاج للمساعدة، لكن ياسمين رفضت فكرة رحاب برمتها.

في اليوم التالي أخبرت ياسمين الدكتور وهي تتهكم بفكرة أختها لكن الدكتور فاجأها بتحمسه للفكرة لأنها تخدم العيادة بشكل كبير وسيأخذ نتائجها بعين الاعتبار، وطلب من ياسمين أن تنظم المواعيد لليوم المخصص لزيارة أختها للنساء فقط باختلاف أعمارهن بحكم أن أختها ستعرض مستحضرات للتجميل وما شابهها، مع أنه كان يدرك أن المرأة زهرة للأمل لا تذبل ولو بمرور السنين بل تذبلها اليد التي عزفت عن سقيها لتعزف على أوتار قلبها معزوفة الشوق والحنين فتصم مسامعها من صدى الطنين فتموت فيها الحياة ولم يعد يهمها لا جمال ولا مال ولا بنين.

انفرجت أسارير رحاب بالخبر وصارت تنتظر الموعد أكثر من أي مريضة إلى أن وصل اليوم الموعود الذي أعدت له العدة من المستحضرات ومجلات تلخص المنتجات

بأنواعها وأشكالها فخرجت مع ياسمين صباحا مع أنها في عطلة وليس من عادتها الاستيقاظ باكرا لكنها استيقظت وهي في أوج حماسها.

وصلتا إلى العيادة التي كانت سيارة الدكتور مركونة خارجها دليل على أنه موجود بالداخل ودليل على أنها مفتوحة، وما إن دخلتا حتى استقبلهما بابتسامتة المعتادة التي اعتادتها ياسمين أما رحاب فلا أدري ما أصابها فكأنما اللعثمة انتقلت من لسان ياسمين إلى لسانها الذي انعقد كغير عادته، ولما أحس الدكتور أمجد منها الارتباك والخجل حاول امتصاصها وراح يسألها عن حالها ولكنه زادها ارتباكا ولم ترد عليه إلا بإيماءة من رأسها تجيبه بأنها بخير وعيناها تقولان عكس ذلك.

فانصرف الدكتور عنها إلى الانشغال بأمور مريضاته لهذا اليوم لعلها تجد راحتها، وهو كذلك فقد وجدت راحتها وراحت تتأمل وجهه وشيب شعره وكأنها تتأمل سماء ليلة شتاء دافئة رصعها القمر والنجوم ولم تترك أثرا للغيوم، لكن ياسمين قطعت رحلة تأملها ودعتها للانتظار بالقاعة ريثما تأتي المريضات فلم ينتبه الدكتور لخروجها إلا عندما أراد كسر حاجز الصمت الذي ساد مكتبه فالتفت إليها فلم يجدها، ولما دخلت ياسمين تعلمه بقدوم أول مريضة سألها : ـ أين أختك؟؟؟

فأجابته : ـ في قاعة الانتظار...

فقال : ـ جيد... من ارتباكها لم أسألها حتى عن اسمها ؟؟؟

فابتسمت ياسمين مجيبة ومستغربة الذي حدث للتو: ـ إسمها رحاب على اسم زوجة جدي ولهذا السبب هي لا تحب اسمها...

فأجابها الدكتور وهو منغمس في ملف مريضتة : ـ لا عليك، ستنسى اسمها بحب أسماء سيصبحون كل حياتها...

فابتسمت ياسمين و أردف الدكتور متسائلا وقد التفت إليها : ـ هل من عادتها الخجل بهذه الشكل...

فأجابته نافية : ـ لا أبدا فهي لا تخجل لا مع الأقارب ولا مع الأباعد وقد استغربت خجلها كثيرا !!!

أما تفسير خجلها فلم تعلم سببه حتى هي فقد كانت تنتظر في الخارج وروحها عالقة بالداخل تداعب خصلات شعره كالشيب الذي علق بها، بودها أن ذلك اليوم لا ينتهي من جهة ومن جهة أخرى كانت تتوق للقاء أمين مساء لتحكي له شعورها عله يعرف ما أصابها أو يفهم إحساسها ويعطيها تفسيرا مقنعا لحالتها.

انتهى اليوم فودعتا الدكتور وهو يشيد بعمل رحاب الذي أدهشته النتائج التي وصلت إليها كنتيجة أولية لأنه في الواقع لم يكن يتوقعها، فأبدى سعادته بزيارتها القادمة وستعلمها ياسمين عن موعدها، فطارت رحاب فرحا كفراشة أطلق سراحها للتو مستبشرة بأنها ستحظى برؤيتة مرة ثانية و الأشواق تطير بها إلى حيث طارت قبلها روحها فسكنت واستكانت.

ظلت مساء ذلك اليوم تنتظر قدوم أمين بفارغ الصبر وهي تساعد ياسمين جسديا وعقلها غائب تماما في إعداد العشاء لأن آدم لم يكن يرضى إلا بمائدة مزينة بما لذ وطاب محاولا أن ينسى و ينسي قرة عينيه الحرمان والجوع الذي اعتصر أمعاءهم الغليظة والدقيقة وأمه المسكينة تتمنى موتها في كل دقيقة، وهو اليوم يتمنى وجودها وإن كانت موجودة في قلبه وفي أوردته وشرايينه السميكة والرقيقة، وكثيرا ماكان يتصل بياسمين لتخفيف الحمل عليها ويعلمها بعدم طبخ شيء للعشاء لأنه سيحضر عشاء جاهزا من إحدى المطاعم، فيشتري بدل المرة مرتين واحدة يأخذها للبيت وأخرى يتصدق بها لمن ليس لهم بيت والموت يحوم حولهم من كل صوب وحدب.

فتح الباب الخارجي الذي يجمع بين الطابقين فهرولت رحاب ترى من القادم ففوجئت بآدم يمسكها ألا تقع بعد أن اصطدمت به، فنظر إليها وقد عرف من ملامحها أنها لا تنتظره بل تنتظر غيره.

فسلم عليها مبتسما وهو يقول : ـ اشتقت إلي لهذه الدرجة...

فابتسمت ابتسامة ماكرة وقالت مؤكدة : ـ بالطبع اشتقت إليك كم لدي من آدم ؟؟؟

وراحت تحمل عنه محفظته المثقلة بملفات أثقلت كاهل أصحابها قبل كاهله، زفر آدم وهو يهم

بدخول المطبخ وسلم على ياسمين وهو يشيد بالرائحة الطيبة وهو يسألها : ـ ماذا طبخت لنا يا أميرة ؟؟؟

وهو يرفع غطاء القدر لتغزوه رائحة الطعام التي تنبؤ بالطعم فسألته ياسمين : ـ هل أعجبتك الرائحة ؟؟؟

فرد عليها وهو يهم بالخروج : ـ امم ليست كرائحة الياسمين ياسمينتي...

فابتسمت وواصلت بكل حب وهي تنادي رحاب لتكمل تحضير السلطة فحضرت رحاب ولكنها قبل أن تكملها فتح الباب من جديد فانتفضت انتفاضة جعلتها تصطدم بذراع ياسمين التي أفلتت قطع البطاطا من يدها بقوة فرشتها قطرات الزيت الساخن على يدها فصرخت متألمة لكن رحاب على الأغلب لم تسمع صراخها عكس آدم الذي هزت خشوعه في صلاته، فأفشى السلام وهرول إليها ليجدها تمسك يدها والاحمرار قد طبع قبلا عليها...

فاستنتج أن رحاب السبب فناداها و كله غضب وبعضه ألم لألم ياسمين، فأسكت أمين رحاب وهو يضع يده على فمها وما كانت لتسكت لو لم يسكتها وينبهها لنداء آدم، فدخلت مسرعة بعد أن لمست الغضب في نبرة صوته ودخل أمين خلفها يطمئن على الوضع لكن صراخ آدم لم يكن مطمئنا أبدا وقد اشتاط غضبا من لامسؤوليتها وهو يأمرها بإحضار

مرهم الحروق بسرعة فأسرع أمين نحوه، ليفاجأ بأن ياسمين هي التي احترقت ومع أن حروقها كانت سطحية جدا إلا أنه حتى تلك البقع الحمراء الصغيرة لم يتحمل رؤيتها على يد ياسمينته البيضاء فأصبح كإمرأة رأت بقع أحمر الشفاه على قميص زوجها الوفي، فراح ينفخ على يدها تارة ويحث رحاب أن تسرع تارة أخرى وهي ترد بقلة حيلة أنها لم تجده، فقام بنفسه وأحضره بسرعة البرق وعاد ليغطي يدها بالمرهم وآدم يمسكها برفق لكي لا تتألم، لكن ياسمين لم تكن تتألم من يدها بقدر ما كانت تؤلمها نبضات قلبها التي صارت مدوية كالرعد وتزداد دويا بكل أصبع يحط على يدها من أصابع أمين فبالنسبة لها مجرد أن يلمسها فهو لحروقها بلسم ولا حاجة إلى مرهم، فخجلت ياسمين من الموقف وخافت أن يسمع أحدهما أو كلاهما ضربات قلبها فسحبت يدها وهي تطمئنهما وتهم بإكمال العشاء فقال لها آدم : ـ لا تلمسي شيئا، ستكمل رحاب وحدها... و التفت يسأل عنها : ـ أين هي؟؟؟

وخرج من المطبخ يبحث عنها فبقيت ياسمين مع أمين بمفردهما فغدت كالزيت الذي في المقلاة، لكن أمين سرعان ما سمع آدم يوبخ رحاب بشدة فأسرع إليهما وتركها منغمسة في خيبتها فانسحبت إلى غرفتها وأوصدت الباب على نفسها وفتحت صنبور الدمع كعادتها.

أما رحاب فاتجهت إلى المطبخ بعد أن نالت من أخيها آدم درسا في المسؤولية وبنهاية الدرس استأذن أمين للصعود إلى بيتهم، فاستوقفه آدم وهو يطلب منه الحديث في موضوع خاص فأثار طلبه دهشة أمين وما كان عليه إلا أن يرافقه إلى مكتبه فأغلق آدم الباب بالمفتاح فازدادت دهشة أمين وهو يقول : ـ ماذا هناك يا أخي لقد أفزعتني؟؟؟

فرد آدم بنبرة هادئة : ـ ولما الفزع أم أنك فعلت ما يستوجب ذلك...

فاحمرت أذنا أمين وهو لم يفهم ما الذي يلمح له آدم والاحتمالات تسرب الحمرة من أذنيه لسائر جسده وهو يقول في خلده : ـ تراها رحاب أخبرته بحبي لياسمين ولم تحفظ سري وجاءت مسرعة لإعلامي بذلك أم أنه اكتشف ذلك لتوه بعد أن فضحتني عيوني...

فقال مضطربا : ـ إن كنت فعلته فقد علمته...

فربت آدم على كتفيه وهو يقول : ـ لا تخجل يا أخي فأنا أعرف كل شيء...

فكادت دقات قلبه أن تتوقف لولا أن آدم واصل كلامه : ـ يخص حبك لأختي رحاب...

فتجمدت جسده المنصهر فجأة وهو يقول باستغراب : ـ رحاب... مابها رحاب؟؟؟

فأجابه آدم مستغربا هو الآخر : ـ نعم رحاب، أو لست تحبها؟؟؟

فرد باقتضاب : ـ بالتأكيد...

فقال آدم : ـ وإذن...

فأردف أمين : ـ أحبها كما تحبها أنت...

فتفاجأ آدم واستغرب الذي يحدث مع أخته وصار يخلل شعره بين أصابع يديه لعل ما يحدث معها يتسلل إلى عقله ثم قال بعد صمت : ـ لكنها تحبك ألم تشعر بذلك يا رجل...

فوجد أمين نفسه في موقف لا يحسد عليه، وهو يقول في سريرته : ـ كيف لرحاب أن تقع في حبي وهي لا تعترف بالحب أصلا بالإضافة إلى أنها تعلم أنني أحب أختها...

فقال والشك يشوبه : ـ هي تحبني مثلما أحبها أنا...

وصمت كأنه يتهيأ ليفصح له بحبه لأخته الكبرى لا الصغرى وقد ظهرت كل أشراطه الصغرى و الكبرى، لكن الخوف كان منه أكبر فحبه لياسمين كان كبيرا لدرجة أنه كان يخاف أن يفقدها خوفا شديدا.

فقال آدم مستسلما : ـ أتمنى ذلك...

فرد أمين وهو واثق من نفسه : ـ إسألها بنفسك إن لم تصدقني.

فابتسم آدم فقام أمين يهم بالانصراف، فقام آدم نحوه وعانقه بذراعه وهو يقول : ـ لا تغضب مني يا أخي...

فابتسم أمين هو الآخر لكن ابتسامته كانت تخفي الكثير وهز رأسه نافيا وقال : ـ لا أبدا، فرحاب أختي مثل ما هي أختك وأنا أخاف عليها مثل خوفك أو أكثر...

فربت آدم على كتفه وهو يقول : ـ وأنت أخي الذي أؤمنه على أختي رحاب وأختي ياسمين، فبرقت عيناه بذكر اسم ياسمين فحاول أن يخفيه وخطا خطوات نحو الباب فتبعه آدم وهو يعزمه ليشاركهم العشاء كاعتذار منه.

لكن أمين اعتذر بحجة أنه لا يريد أن يترك أمه لوحدها.

فقال آدم ملحا : ـ سأصعد معك لأدعوها بنفسي، فقط تنازل واقبل دعوتي يا رجل...

فابتسم أمين وقال : ـ دعوتك مرهونة بقبول الدكتورة فإن قبلت نزلنا وإن لم تقبل بقينا في العالي...

وضحكا الاثنان معا وصعدا إلى الطابق العلوي.

نزل آدم بعد قبول الخالة دعوته بكل سرور وأعلم رحاب بأن تحسب حسابها على الطاولة، واتجه إلى غرفة ياسمين وطرق بابها بكل هدوء ثم دخل بعد أن سمحت له ياسمين بالدخول، ولكنه لا يبدو أنها كانت جاهزة لاستقباله، فقد رآها وهي تمسح الدمع وتطبع على ثغرها ابتسامة كاذبة، فقال لها : ـ مابك ؟؟؟

فترنحت وزادت في عرض ابتسامتها وقالت بارتباك : ـ لا شيء...

فمد أخوها يده إلى ذقنها ورفع رأسها وقال بحنية : ـ قوليها وأنت تنظرين إلى عيني...

فازداد ارتباكها شدة وكذا لعثمتها حدة وبقيت عيناها تدوران خارج محور عيني أخيها ثم قالت وهي تنظر إلى حروقها السطحية : ـ يدي تؤلمني قليلا فقط...

فأخفض آدم عينيه نحو يدها هو الآخر وهو يعلم أن سبب دموعها الحارقة ليست حروقها السطحية الظاهرة وإنما حروقها الباطنية الضامرة ومع ذلك كان مجبرا على مسايرتها فأمسك

بيدها وأخذ ينفخ عليها تماما مثلما فعل أمين وهو يقول مبتسما : ـ ربما المرهم لم ينفع وطريقة أمين هي الأنجع...

فابتسمت ابتسامة واهنة وهي تحبس نبضات قلبها القوية، فاستطرد آدم : ـ كنت في المكتب أتحدث معه...

فانتفضت ساحبة يدها من يده وسألته : ـ لماذا؟؟؟

وقد راودها الشك بعدما جمعت بين الفكرتين الأخيرتين، لكن الشك قد انتقل إلى آدم هو الآخر وقال : ـ ما بك لماذا انتفضت بهذا الشكل ؟؟؟

فردت بارتباك : ـ لا شيء لم أنتفض أبدا...

فنظر إليها وكله شك فيها وفي تصرفاتها وقال : ـ أظنك تعلمين بالأمر وتخفينه عني...

فعلت وجهها حمرة وكأنها جمرة قبل أن يطفئها آدم مواصلا : ـ أظن أن رحاب وأمين يحبان بعضهما، ألم تخبرك رحاب بشيء؟؟؟

فخمدت نيرانها وجمدت أحاسيسها وأطرقت رأسها وقالت نافية : ـ لا لم تخبرني بشيء...

فأضاف آدم سؤالين آخرين : ـ وأنت ما رأيك؟؟؟ ألم تلحظي ذلك؟؟؟

فتجهم وجهها وهي تدرك أن الشك إذا تجاوز شخصان فهو حقيقة، بعدما كانت تظن نفسها الوحيدة التي شكت في حبهما، فقالت بعدما كرر عليها آدم السؤال : ـ لا أدري...

فغير آدم الموضوع قائلا : ـ سيأتي وأمه للعشاء عندنا...

فقالت وهي تهم بمغادرة الغرفة : ـ لماذا لم تخبرني من الأول، سأذهب لمساعدة رحاب...

وخرجت وكأنها كانت تتحين الفرصة للهروب من هذا الموضوع.

انتهى العشاء العائلي لكن ياسمين ورحاب كانتا مغيبتين تماما، فلاحظ أمين غياب ياسمين مع أنه لم يبدي ملاحظته، أما غياب رحاب فلاحظه آدم ولم يتوانى في إبداء ملاحظته، وظل الكل يجلسون في غرفة الضيوف إلا رحاب فقد خرجت من الغرفة لكنها

وقفت على مسافة قريبة من الباب وأخذت تلوح لأمين الذي كان يجلس مقابلا للباب أن يوافيها، لكنه أعرض عنها لأنه لم يكن يريد أن يؤكد شكوك آدم، ورغم تجاهله لها إلا أنها استمرت على تلك الحالة وهي تعرب عن تذمرها منه إلى أن نداها آدم لتشاركهم الجلسة، فجلست وهي تشتاط غضبا من أمين وقد أحرقته بالشرار المتطاير من عينيها، فسألتها الخالة كوثر تحاول إشراكها في الحديث : ـ أي شعبة ستختارين في الجامعة أم أنك لم تحسمي أمرك بعد...

فصمتت لبرهة وكأنها تفكر، لتقول وقد حسمت أمر مستقبلها : ـ سأختار شعبة علم النفس...

فدهش الكل باختيارها لأنهم يدركون أنها لطالما كانت تفضل دراسة رقعة الجغرافيا أو كومة الآثار التي اندثرت عبر التاريخ على دراسة أي شيء له علاقة مع جثة الإنسان الخالية من الأحاسيس والمشاعر على حد قولها، لكن ما الذي لم يدركوه هو أن هذه كانت معتقداتها قبل هذا اليوم ولكن ليس بعده، فأبدى الكل تعجبهم وحيرتهم من اختيارها إلا أمين فقد انعقد لسانه وشعر أنه غريب عنها ورجح أنها واقعة في غرام ذاك الغريب كما أشار أخوها ليصبح حبها له واضحا وضوح الشمس في وضح النهار، فلم يتحمل الحرارة المنبعثة من خلده فوثب مستأذنا الانصراف وكأنه يسرع بالمغادرة قبل أن تنتشر رائحة احتراقه، فقامت أمه معه ووثبت رحاب هي الأخرى قائلة : ـ سأصعد معكما...

ثم التفتت إلى آدم وأردفت : ـ إن سمح لي آدم طبعا...

فنظر إليها آدم ثم إلى أمين نظرات ملؤها الريب، فترنح هذا الأخير وكأنه يقول : ـ أنا مثلكم أشعر أنني عنها غريب بالرغم من أنني منكم إليها قريب قربة الأخ الحبيب الذي يتمنى أن يكون لأختها حبيب.

خيم الصمت على الجميع إلا من آدم الذي كان ضجيج أفكاره يحدث فوضى وهو يبحث عن الجواب المناسب فابتسم وتظاهر بعدم الانتباه واللامبالاة وخلده يتكبد المسؤولية في معاناة ثم قال مسترسلا :ـ لا تثرثري كثيرا...

إشارة منه بألا تتأخر وكان بإمكانه ألا يسمح لها بالصعود لأن الوقت متأخر، لكنه كان يعرف أختيه كراحة يديه، واحدة مفتوحة للمصافحة بكل راحة، والأخرى فرس جموح يروضها ولا يربطها لأنه لم يكن يثق بها بكل صراحة، مع أن يده اليمنى ياسمين لم تكن راضية على معاملته مع أختها إلا أنها لم تبد تذمرها أو اعتراضها خوفا من أن يكشف أمر حبها لأمين مع أن اعتراضها لم يكن له علاقة بأمين ولم يكن له علاقة بالغيرة بل كان كله خوفا على أختها ليس من أمين وإنما من نفسها فقد كان ترى فيها عدوة لنفسها، لأنها تدرك أن المرء إذا كان عدوا لنفسه أحدث بها ضررا كبيرا كما لم يحدثه عدوا آخرا من غير أنفاسه.

اغتنمت رحاب فرصة ذهاب الخالة كوثر إلى المطبخ لإحضار الشاي وهرعت إلى أمين الذي كان قد تظاهر بانغماسه في شاشة حاسوبه عله يخفي بعض تشوش حساباته، ومن شروده لم ينتبه حتى لانصراف أمه وأفزعه ظهور رحاب في الصورة فجأة وهي تصب عليه أحداث اليوم جملة واحدة كغيمة أمطرت فجأة وقد كان الكل يظنها مجرد سحابة عابرة، فتفاجأ أمين بما تقوله وبقي يسمعها في ذهول يزداد بكل تفصيل ولم يقاطعها بكلمة حتى قاطعتها أمه وهي تحمل صينية الشاي، فتوقفت رحاب ووقفت تستأذن انصرافها، ومع أن الخالة أثارت استيائها إلا أن رحاب كانت كالأميرة سندريلا في تلك السهرة بعد أن انتبهت إلى تأخر الوقت وعليها المغادرة فضيعت في طريقها حذائها ليكون سببا في ملاقاتها مع أميرها، لكن رحاب وإن انتبهت للوقت فلم تنتبه للوقت الفاصل بينها وبين أميرها أو بالأحرى ملكها وضيعت قلبها في حب رجل لم تخترق شغاف قلبه أنثى قبلها ولا بعدها غير الأنثى التي تقف قبالتها.

بلغت الصدمة بأمين إلى اندلاع حرب قتلت الصديق داخله ليعلن الأخ انتصاره، فتعالت جدران الحصانة حول أسطوله ودجج المدافع بالذخيرة لمحاربة أعداء أخته وإن كانت عدوة لنفسها لحاربها وهو يتمنى في خلده لو أن الذي خاف منه هو الذي كان وأنه مستعد لإعادة المياه إلى مجاريها، لكنها تدفقت في غير مجراه لتختار واد جف منذ زمن وهي على ضفافه مجرد يتيمة تبحث عن الحنان بعدما فقدت من أبيها الثقة والحنان.

ظل أمين الليل كله وخفافيش المخاوف تحوم حوله وتؤرقه ليستسلم آخره إلى النوم فتكبله الكوابيس ليصحو على صوت المفاتيح يقترب من أصفاده، وقبل أن يفتح عينيه يشع عليه نور أمه وهي تسقيه ماء وتمسح عن جبينه وتقرأ عليه بعض الأذكار.

ذهبت كوثر إلى عملها وتركت أمين في فراشه لعله يخلد للنوم من جديد ورأسه أثقل من أن تحمله وسادة، ولكنه لم يستطع النوم مادامت مخاوفه مستيقظة، ونزل يبحث عن مصدر مخاوفه لكنها لم تكن بالبيت موجودة.

قبل منتصف النهار عادت رحاب إلى البيت بعدما أنهت إجراءات التسجيل الأولية وقد حسمت أمرها لتوقع مع الحيلة عقدا جديدا تسترد بمقتضاه ألوانها التي سلبت منها يوما وتتنفس هواء معبقا بالعطور وكأن الهواء قبله لم يكن يختلج صدرها، وما إن فتحت الباب حتى أطل عليها أمين من فوق وقد كان ينتظر قدومها ولم يغمض له جفن فسلمت عليه : ـ صباح الياسمين...

فرد عليها وهو ينزل عن السلالم وقد استقر على إحداها : ـ صباح الخير، أما ياسمين فذهبت إلى العمل منذ الصباح ولم أرها بعد...

فقالت له بنبرة الفيلسوفة : ـ لآن فقط صرت أفهمك وأفهم ما تمثله ياسمين لك وما تكنه لها...

فنظر إليها نظرة محتقنة وقال بتنمر : ـ هذا ما لم تفهميه في يوم من الأيام وزفر وهو يعتصر خيبة وجلس ثم أضاف : ـ أنا التي لم أعد أفهمك... ما الذي جرى لك ؟؟؟

فجلست أمامه وروحها مازالت عالقة بين المروج ونزعت خمارها وهي تقول : ـ أظنني فهمت ما هو الحب؟؟؟

ثم أردفت متسائلة : ـ هو الحب أليس كذلك ؟؟؟

عدل أمين جلسته وصوب نظرات حاذقة إليها وقال : ـ قد يكون كل شيء إلا حبا...

فانزعجت منه ومن حديثه و طريقة تحدثه وقالت بتذمر : ـ ما بك ؟؟؟

ألم تكن تسخر من مشاعري الحجرية وتدعوني بالمتحجرة...

رفع أمين رأسه إلى السماء وهو يحك على ذقنه كأنه يختنق ثم قال بصوت محتقن : ـ كنت متحجرة في حق غيرك وأصبحت متحجرة في حق نفسك...

فلم تجبه بحرف لكنها أخرجت من حقيبتها ورقة فيها من الحروف ما يكفي لإجابته وأشهرتها أمام عينيه وعيناه تلمعان لمعان السيف عند مفارقته لغمده.

أمسكها وراح يقرؤها فلم يجد لها علاقة بالموضوع فقال مشجعا : ـ بالتوفيق...

فابتسمت ابتسامة ماكرة وهي تقول : ـ بإذن الله سأوفق...

فتفطن أمين لمكرها وقال متعجبا : ـ لا تقـــولي...

فأكملت ما لم يستطع هو إكماله : ـ نعم سجلت هذا الاختصاص فقط لأكون قريبة منه أكثر...

فطأطأ أمين رأسه بين ركبتيه وأمسكه بكلتا يديه وكأن زمام الأمور قد أفلتت من عصمته ثم أردف بصوت خائب وكأنه من الموت خائف : ـ أشعر وكأنني لم أعرفك يوما...

فضحكت وهي تقول : ـ كيف لك أن تعرفني وأنا لم أكن أعرف نفسي...

زمجر أمين كالأسد في وجه الغزالة وصاح بها : ـ رحـــــــاب...

فانتفضت واثبة : ـ فأمسكها من معصمها بقوة وهو يقول بهدوء : ـ هو أكبر منك بثلاث مرات تقريبا...

فقاطعته بنبرة قوية : ـ وياسمين أكبر منك أيضا...

فشد على قبضته بقوة وهو يقاوم صوته ألا يكون بنفس القوة وقال : ـ رحاب أنا أفهمك وأتفهم وضعك لكن أرجوك حاولي أن تفهمي أنه ليس كل إعجاب يسمى حبا...

قالت بنبرة ساخرة : ـ وهل تعرف الإعجاب؟؟؟

أأعجبت يوما أو لحظة بغير ياسمين ؟؟؟

أفلت يدها وهو يستغفر الله العظيم ويدعوه أن يصبره وهو للغيظ كظيم ثم قال بصوت رخيم : ـ اسمعيني عزيزتي ربما أعجبت به، وربما أحببته، لكن أؤكد لك أنك لم تحبيه كرجل وإنما كأب وستكتشفين ذلك بنفسك فقط كوني واثقة من نفسك.

قالت باقتضاب : ـ ربما...

فأعطته اجابتها بعض الأمل في أن عقلها سيتكفل بباقي العمل وكأنه لا يعلم أنه لا عقل لمن قلبه في العشق اعتقل.

ثم وقف وهو يقول : ـ أخبريني بكل شيء صغير كان أو كبيرا... اتفقنا...

فقالت مؤكدة : ـ بالتأكيد...

ثم قالت مغيرة الموضوع : ـ هل تناولت غدائك...

فقال : لا... فشهيتي مسدودة ولم أتناول منذ الصباح غير القهوة لأنني أشعر أنه لا يوجد غيرها تعطيني القوة...

فأجابته متجاهلة لما يمر به : ـ سأعد لك الفطور إذن...

فاستوقفها شاكرا : ـ لا شكرا، لكن عيديني أنك ستفكرين بالموضوع...

فقالت متظاهرة بالسذاجة : ـ أي موضوع ؟؟؟

فصرخ بها وكأنه يتوسل إليها : ـ رحـــــــاب..

فابتسمت وهي تقول سأعد لك القهوة إذن فأمسكها من معصمها من جديد وقال مترجيا :

ـ أرجوك عديني...

فصمتت لبرهة ثم قالت مستسلمة ومتملصة في نفس الوقت : ـ سأحاول أعدك...

****

قبل حلول موعد الدخول الجامعي ذكرت كوثر ابنها أمين بأنه لم يستقبل هداياه منها ومن أبوه بعد وهي تطمئنه على حال ياسمين، وبعد أيام قليلة عاد أبوه من سفره وقد جلب له هدية فخمة ولكن أمرها بقي سرا بينه وبين زوجته كوثر التي ارتأت أن تشتري له هديته هي الأخرى ولو أنها كانت تدري أنها لن تكون بنفس فخامة هدية والده، ولكنها لم تكن تدري أن ستشتري ثلاث هدايا بدل الواحدة بعد أن فاجأت أمين في ذلك المساء وقد اصطحبته إلى إحدى محلات الهواتف النقالة الحديثة وبعد أن اختارت له أحدثها فاجئها بأنه لن يقبل بواحد بل بثلاثة وكأنه ثلاثة أشخاص لا واحد، ولما حاولت كوثر إظهار تذمرها وهي تفاوضه أن تشتري له الذي اختارته ولياسمين ورحاب هاتفين بسيطين، فرفض وهو يدعوها للعودة إلى المنزل فما كان لكوثر إلا أن تذعن لطلبه أو بالأحرى لأمره فطلباته كانت أوامرا بالنسبة لها.

ظلوا المساء كله وهم ينتظرون عودة ياسمين من عملها لمشاركتهم الحفلة أو بالأحرى الجلسة، فجلست ياسمين وقد رسمت على ملامحها لوحة مشرقة بالفرح تحاول أن تعوض على أمين فرحة الحفلة التي ألغاها بسببها، ولما لمست من أمين بعض الحزن عليها حاولت نفضه عن ملامحه وهي تقول : ـ ألن تفتح الهدايا أنا متشوقة لمعرفة ما بداخلها ؟؟؟

فهرع إليها وكأنه كان ينتظر إشارة منها وبدأ بهدية أبيه الذي عوض غيابه بقوة قوة الفرحة التي اكتسحت قلبه بعد أن لمح مفاتيح السيارة التي طالما كان ينتظرها، فكانت فرحته

كفرحة عريس بعروسته التي رفضه أهلها قبل سنة بحجة صغر سنه وهي اليوم على أعتاب بابه، وأنسته فرحته فتح العلب الثلاث الأخرى، فبترت كوثر فرحته وقالت في تذمر : ـ ماذا عن هداياي، ألم تعد تهمك الآن ؟؟؟

فابتسم أمين وقال وهو يعانقها بذراعه : ـ وكيف لا تهمني وأنت أكبر اهتماماتي...

ثم حمل العلب الثلاثة و احتفظ بواحدة وناول الأخرتين واحدة لرحاب التي من فرحتها كادت تترك العلبة تهوي على الأرض وترتمي في حضنه، فتركها تحضن العلبة وراح يوجه الأخرى نحو ياسمين التي تجهم وجهها بعد أن لم تجد تفسيرا لتصرفه هذا إلا بالشفقة، فاعتذرت ورفضت هديته، مما اضطر الخالة كوثر للتدخل فهي تعرف كبرياء ياسمين الذي لم يكن ليصغر لولا تدخلها وقالت : ـ ومن قال لك أنها منه ؟؟؟ هي مني حبيبتي...

وأخذت العلبة من أمين وقدمتها لها، فقبلتها ياسمين وهي تشكر خالتها التي لم تستطع أن تردها خائبة، فقالت كوثر من جديد تحاول زرع الفرحة من جديد : ـ ماذا ؟؟؟ لن تفتحوها !!!

فتماطل أمين وآثر أن يتأمل ملامح الفرحة على فراشتي بستانه اللتان طارت تداعب روحه بمجرد أن لمحا ما بداخلها، ولكن فرحتهم تحولت إلى دهشة بعد أن فتح أمين هو الأخير علبته ليكون ما بداخلها نفس ما في علبهم وكأن المشهد تكرر لثلاث مرات متتالية لكن بفرحة متفاوتة الدرجة.

حان الدخول الجامعي الجديد بالنسبة لأمين الذي اختار الطب فقد اجتهدت أمه الطبيبة وجاهدت لتجعله الخيار الأوحد والوحيد بالنسبة له، ليجد نفسه أمام خيار واحد وبيده خيارات عدة ولكن أمه عرفت كيف تحقن مصل الطب في شرايينه منذ الصغر ليجد نفسه يختاره عن حب كبير.

أما بالنسبة لرحاب فلم تغير اختيارها حتى بعد أن حاول معها أمين بشتى الطرق وكللت اختيارها الذي كان وليد اللحظة وكلها عزم أن تستغل فيه كل لحظة لتوصلها إلى اللحظة الأخيرة.

لتمر الست أشهر الأولى وأمين يظن أن رحاب قد حسمت أمرها بعدما أوهمته أنها أخطأت في تقدير مشاعرها ومستحيل أن تعجب فتاة مثلها بشيخ هرم وكلها تهكم وسخرية.

أوصل أمين ياسمين صباحا عند باب العيادة ولما هم بالمغادرة بعدما تأكد من دخولها انفجرت رحاب باكية فالتفت إليها أمين وكأن قنبلة قد انفجرت في صدره وهو يقول في ذهول : ـ ما بك يا رحاب ؟؟؟

فلم ترد عليه واكتفت بالبكاء وصوت شهقاتها يتعالى كلما كرر عليها السؤال كأنها تقول بالدموع ما لم تستطع قوله بالكلمات فكف أمين عن السؤال وراح يحاول تهدئتها وحسب.

وبعد أن هدأت قليلا سألها لما كذبت علي ؟؟؟ لما لم تخبريني؟؟؟ لما أخفيتي عني الأمر؟؟؟

فنظرت إليه نظرة محتقنة وبالدموع محقونة وقالت بصوت متهدج : ـ أنسيت أنك هددتني بأنك ستخبر آدم إن لم أكف عن حب هذا المغرور... ألم تخن روحي وأنا التي لم أخنك يوما... أنصبت سهامها عليه فأخفض رأسه وأسنده على المقود وعم الصمت بينهما إلا من شهقاتها القوية .

لم يكن أمين لينكث الوعد الذي قطعه لتوأمه ولكنها أجبرته على تهديدها مع أنه لم يكن ليطبقه وكان سيضل على الوعد ولو شابه التهديد والوعيد لأنه لم يجد غيرهما ليطوع قلبها العنيد.

رفع أمين رأسه والتفت إلى نافذة العيادة أين كانت ياسمين تطل عليهما في سكون فتدفقت من مآقيه دمعة، فدموع، التفتت إليه رحاب مدهوشة فقال بصوت مشجون وبالألم مشحون

وكأن جمرة احتلت شمال صدره الحنون : ـ سأكف عن حب ياسمين مقابل أن تكفي عن حبه...

فجحظت رحاب لتجفل عيناها من جديد وقالت بصوت خائب : ـ لا تكذب على نفسك فلا أنت تستطيع ذلك ولا أنا استطيع...

أظن أنه قد فات الأوان على كلينا...

فرد عليها : ـ أدري أن حبها لن يموت لكنني سأدفنه حيا وسيبقى في قلبي ما حييت مقابل أن تدفني ذاك الحب الميت الذي سيقتلك...

فبكت رحاب وكأنها تبكي موتها، فوضع أمين يده على رأسها الموشح بخمارها وراح يمسح عليه وكأنه يمسح على قلبها، ثم التفت من جديد إلى ياسمين ليجدها قد أسدلت الستار لكن طيفها ما زال خلفه يترقب.

شغل أمين المحرك وانطلق بسرعة فتسارعت دقات قلب ياسمين بسرعة أكبر، وأجهشت بالبكاء كأنها ابتلعت جرعة كبيرة من الحزن، ولم تنتبه إلا والدكتور أمجد يناديها من خلفها، فطلب منها أن ترافقه إلى المكتب بدون أن يسأل عن سبب دموعها.

بقي الدكتور واقفا ينتظر دخولها وهي تحاول إخفاء دموعها، فأدرك أن الذي يبكيها أمر لم تحكه له من قبل، فطلب منها الجلوس فاتجهت نحو الكرسي المجاور لمكتبه، فأشار لها أن تجلس على الكرسي الخاص بالمرضى أو كرسي الاعتراف كما يسميه البعض، وما إن جلست قال الدكتور : ـ هاتي ما عندك...

فصمتت لكن دموعها تكلمت، وفهم الدكتور كلامها فلطالما كان يعلم بأمر هذا الحب ولكنه كان يريدها أن تحكي له بملء إرادتها، فقال : ـ منذ متى وأنت تحبينه ؟؟؟

فسكتت دموعها واحمرت وسكنت رموشها وقد أدركت أن عيونها قد فضحتها لكن لحسن حظها أنها أخبرت دكتورها وليس غيره، وقد كان الدكتور بالنسبة لها أبوها الذي تبنى أبوتها

وهي ذات الست سنوات، ولكنه لم يكن يستطيع فتح حضنه لها إلا ما إذا هي ارتمت فيه وباحت.

فسألها من جديد يحاول استنطاقها : ـ أيوجد مرضى في قاعة الانتظار ؟؟؟

وهو قد رآهم لتوه، فأجابته بعفوية وباقتضاب : ـ نعم...

فقال بنبرة جادة : ـ دعيهم ينتظرون... فلن أستقبل أحدا ما دامت أول مريضة لم تتكلم وأنا أدرك أنها تتألم...

فواصلت ياسمين في صمتها وهي تدرك جده من هزله، وتدرك تماما أنه جاد فيما يقول فابتسم وهو يقول : ـ حقيقة أمين معذور من وقع في حبه، لكن ما الذي يبكيك في الأمر ؟؟؟

فتجهم وجهها وكأن هذه الحروف قد غرزت خنجرا في صدرها فشق العظم والغضروف وهمست : ـ هو يحب أختي...

وانفجرت باكية، فأصابت ياسمين هدفا لصالحه وقد اكتشف نزوة المراهقة رحاب منذ شهور ومن يومها وهو يحاول أن يقطع عليها كل الجسور لتعلم أن دربه ليس للعبور وآخر ما فعله كان مساء البارحة عندما حضرت تتذرع بدرس لم تفهمه كعادتها وبينما هو يحاول تبسيط الأمور لها مع أن الأمور كانت واضحة لا تحتاج إلى تبسيط وهي التي تدعي تعقيدها، فلفته أنها تلفظ اسمه بدون ألقاب، فامتقع منها وقال لها : ـ دكتور أمجد من فضلك، أو العم أمجد إن شئت ذلك...

فما كان عليها إلا أن تدس دفاترها داخل محفظتها وخرجت مهرولة وياسمين التي كانت تنتظرها تناديها وتلحق بها.

نظر الدكتور إلى ياسمين وكأنه يشك فيما تقول ثم قال متعجبا : ـ رحـــــــاب...

وكأن لياسمين أختا غير رحاب، فقالت متأكدة : ـ أجل...

ليتدارك بعد جوابها الحوار وسألها سؤالا آخرا : ـ وهي هل تحبه ؟؟؟

فأجابت باقتضاب : نعم...

تعجب الدكتور من حبها له لكنه استسلم وأعلن لعقله خطأه في تقدير الأمور وإن عوده على الإصابة، وظل يتحاور مع مريضته إلى أن رفعت كفها مشيرة إلى عدم استطاعتها المواصلة، فامتثل الدكتور وهو يقول : ـ يكفي لهذا اليوم...

فخرجت ياسمين إلى القاعة بنفس الحمل لكن بأقل ثقل.

ارتفع صوت الدكتور المحاضر للمرة الثانية وهو ينادي على أمين فانتفض هذا الأخير واعتدل في جلسته وقال بارتباك : ـ نعم، أنا هنا....

فسأله الدكتور : ـ مابك دكتور أمين ؟؟؟

فرد أمين باقتضاب : ـ لا شيء، أعتذر منك...

لكن جوابه لم يصدقه الدكتور فأضاف سؤالا آخرا : ـ ولماذا الشرود إذن ؟؟؟ وإلا ستشوش على زملائك وإن شئت أعفيك من درس اليوم...

فقال أمين بنبرة جدية : ـ حسنا، سأركز...

واصل الدكتور شرح درسه أين كان أمين يأخذ الدروس التطبيقية في هذا المستشفى القريب من جامعته تحت وصاية أمه الدكتورة وتحت رعاية عدد من الدكاترة من معارفها، واصل أمين هو الآخر يمثل التركيز في ذلك التمثال الذي كان يمثل جسم الإنسان وكله تركيز في الحالة التي ترك بها رحاب مع أنه لم يتركها حتى اطمئن عليها ولهذا حضر متأخرا كغير عادته مما جعل الدكتور يبدي استيائه، لكن أمين كان يعرف رحاب كما يعرف نفسه كما يعرف أنها ممثلة بارعة إذا ما استدعى الأمر ادعائها بالقوة فهذا أكثر شيء تجيده لا بل تتقنه فتنصهر في دورها وتغدو بقوة الحديد كقطعة جليد تذوب في كأء من حديد، فلا الجليد تجلد وجمد ولا الحديد قاوم الصدأ.

رن الهاتف فامتقع الدكتور واحتقن وجهه غضبا خصوصا وأنه قد نبه الجميع بضرورة إغلاق هواتفهم أو وضعها على الصامت وهذا ما غفل عنه أمين، ولكن لحسن حظه أنه لم يواجه تلك النظرات بل راح يخرج هاتفه من جيبه وما إن أخرجه حتى ظهر له أن رحاب من تتصل، فامتقع وجهه هو الآخر وطلب من الدكتور الخروج لأن المكالمة طارئة، فأشار إليه برأسه أن أخرج دون أن يعلق، وواصل الدرس لكي لا يقطع تركيز طلابه أكثر مما قطعه زميلهم.

رد أمين بسرعة لأنه يعلم أن رحاب لا تتصل في هذا الوقت إلا لطارئ ما، فأجابه صوت من هاتف رحاب لكنه ليس صوتها مما أثار ريب أمين وجعله ينظر إلى الشاشة من جديد ليتأكد من الاسم ويتيقن أنه لا يهلوس برحاب، لكنه تيقن من العكس فقال باقتضاب :ـ من معي ؟؟؟

فردت الفتاة بصوت مرتعش :ـ أنا زميلة رحاب وقد نقلوها للتو إلى المستشفى وقد اتصلت بأول رقم اتصلت به...

فأمطرت عليه وابلا من الأسهم المشتعلة فقاطعها وأمطر عليها هو الآخر أسئلته بغزارة :ـ مابها ؟؟؟ أي مستشفى ؟؟؟ كيف حالها ؟؟؟

وقبل أن تصحوا سمائه غشتها غيمة سوداء حالكة ولكن رغم سوادها إلا أنها لم تحجب الحالة الاستعجالية التي هرع إليها وهم يشخصون حالتها بمحاولة انتحار، فظل واقفا في مكانه وروحه قد انسحبت مع ذلك الجسم المسجى على السرير المتحرك الذي حرك كل أحاسيسه وشل كل حركاته، ولم يشعر بنفسه إلا وهو داخل غرفة الاستعجالات بجسد يترنح وهو يلبس مئزرا أبيضا وبروح تحتضر وهي تلبس الموت الأسود.

وبصعوبة بالغة نجت رحاب وهي الآن مستلقية على سريرها لكن أمين كان يراها وكأنها مسجاة في قبرها وهو يبكي موتها أو بالأحرى انتحارها وهو يغرس رأسه بين كفيه والذنب

يعتصره ولم يرفع رأسه إلا بصوت متحشرج متقطع يناديه باسمه، فرفع رأسه منتفضا كأنما ميتا ناداه، فنظر إليها بعينين متورمتين وكأنه لا يصدق أنها مازالت في عالمه، فرد عليها بصوت أقل حشرجة وهو يربط حباله الصوتية ويمنعها من إخراج الصرخات المكبوتة بداخله : ـ كيف حالك ؟؟؟

فنظرت إليه نظرة خائبة وردت : ـ للأسف بخير...

فقال لها أمين بغيظ مكظوم : ـ رحاب أرجوك لا أريد التحدث في الموضوع الآن...

فحاولت بدورها تغيير اتجاه الموضوع لكن لزاوية أكثر حدة فقالت : ـ ولماذا أنت تبكي ؟؟؟

فأنا لم أمت بعد وأنصحك أن توفر دموعك لذلك اليوم، لربما لن أجد من يبكي علي سواك...

فرد عليها وهو ينظر إليها بخيبة أكبر من خيبتها بكثير : ـ الموت قدر محتوم وكلنا سنموت في الأجل الغير معلوم ووحده علام الغيوب من يعلمه...

ثم سكت وساد بينهما صمت رهيب لدقائق ثم تنحنحت رحاب وقالت : ـ لا تخبر أحدا بالموضوع...

فرفع أمين رأسه الثقيل وقد ازداد الحمل على كاهله، وأمعن النظر فيها وكأنه يترجاها أن تعتقه من عذابها ثم قال : ـ سأخبر آدم فقط...

فانتفضت وشهقت شهقة جعلتها تتراجع من الألم، فانتفض أمين بدوره وراح يسندها ثم قال وهو ينظر إلى عينيها بحنق : ـ أتتألمين ؟؟؟

فردت بنبرة دلال تستدعي الشفقة : ـ نعم، كثيـــــــــــــــرا...

فوقعت في طعم أمين ورد عليها بقسوة : ـ هذا لا شيء مقابل ما كان ينتظرك من ألم...

فأشاحت نظرها عنه ولم تخفضه ولم تردف قولا.

لكن أمين لم يقسو عليها بقوله بل هي من قست على نفسها بفعلها، وما قال ذلك إلا ليلمس الندم في ردها أو حتى في نظراتها، لكنه لم يلمس غير العناد، فغير أسلوب التلميح إلى أسلوب صريح : ـ لن أخبر آدم لكن بشرط واحد...

فالتفتت إليه بغرور وكأنها تفاوضه وكل المعطيات لصالحها وقالت : ـ هات ما عندك...

فقال أمين مستسلما : ـ أريدك أن تعطيني وعدا بأنك لن تعيدي المحاولة.... أرجـــــــــوك...

وكله شك فيها وفي وعودها فمن خانت وعد ربها لن يصعب عليها خيانة وعد عبده وهو أولهم وآدم ثانيهم وياسمين ثالثتهم...

فنظرت إليه وقد شعرت بضرورة استغلال المعطيات المتمثلة في طيبة أمين لصالحها وهو الذي لا يريد إلا مصلحتها، ولم ترد عليه بكلمة وظلت صامتة فقطع أمين صمتها وقال بطيبة زائدة : ـ ألم تعديني...أأفهم أنك...

فقاطعته وهي تقول : ـ أعدك... فقط أخرجني من هذا المكان على الفور...

فابتسم أمين وقال بتهكم : ـ كيف لمكان كهذا ألا يعجبك وقد اخترت قبل ساعات القبر مكانا لك...

فأعرضت عنه ضاربة كلامه عرض الحائط وسألته : ـ كم الساعة الآن ؟؟؟

فنظر إلى ساعته وقال بهدوء : ـ السادسة وربع... ثم أضاف وهو يهم بالخروج : ـ مساء...أنا بانتظارك في الخارج سأوقع تصريح الخروج...

ترجل أمين من السيارة بسرعة وهم يفتح الباب لرحاب فسبقه آدم فساعداها على النزول برفق، ليجدوا ياسمين تنتظر رفقة خالتها والقلق يشوب وجوههما المتجهمة فقال أمين محاولا تلطيف الجو : ـ لا داعي للقلق هي بخير كما ترون وكما أخبرتكم في الهاتف...

ثم التفت إلى رحاب وقال لها محاولا إبراز مكانتها : ـ آ...نسيت أن أخبرك، هاتفي لم يصمت للحظة والكل يسألون عنك بقلق...

فابتسمت ابتسامة شاحبة وتنهدت تنهيدة طويلة وهي تفر من نظرات أمين التي رمقتها بالتهديد والوعيد.

عادت ياسمين إلى منزلها مساء وما إن أغلقت الباب خلفها وفتحت باب طابقهم وهي تهم بالدخول حتى سمعت طرقا خفيفا على الباب الخارجي، ومن خفته ظنت أنها تتوهم حتى سمعته يطرق من جديد، فسألت : ـ من الطارق ؟؟؟

فأجابها صوت أخفت من صوت طرقاتها : أنا...

ففتحت ياسمين لها الباب فوجدتها فتاة وكأنها من بلد آخر وديانة أخرى لولا أنها تكلمت بالعربية وألقت السلام وأردفت تسأل عن الدكتور محمد الأمين، فرمقتها ياسمين بنظرات من أخمص قدميها إلى آخر شعرة من رأسها وردت عليها باقتضاب : ـ ليس هنا...

فقالت الفتاة موضحة : ـ لقد اتصلت به قبل قليل وطلب مني أن أمر إليه هنا... فأرجو منك أن تناديه آنستي...

فتراجعت ياسمين إلى الخلف وهي تحاول إخماد نار غيرتها ثم أخذت تنادي على أمين بأعلى صوتها : ـ دكتور محمد الأميـــــــــــن...

فخرج أمين مهرولا بمنامته وبعينين معمشتين وشعر منفوش وهو حافي القدمين وهو يقول في دهشة : ـ ماذا دهاك يا ياسمين ؟؟؟

فقالت بتهكم : ـ هناك من تبحث عنك في الخارج...

فوضع يده على فمه ثم أردف بصوت خافت : ـ خذي عنها الدفاتر واتركيها تذهب...

فقالت : ـ حسنا...

ثم فتحت الباب وقالت للفتاة : ـ تفضلي وأشارت إلى أمين في الطابق العلوي وقالت : ـ ذاك هو الدكتور محمد الأمين...

فابتسمت الفتاة وارتبك أمين من مظهره، فلم ترد الفتاة إحراجه أكثر وسلمت عليه وسلمت الدفاتر لياسمين واستأذنت الرحيل، فشكرها أمين وانصرفت وتركته يشتاط غضبا، وما إن أغلقت ياسمين الباب خلفها حتى سمعت خطوات أمين تدب في السلالم من خلفها، فهربت وأغلقت الباب على نفسها وقبل أن تهدأ أنفاسها سمعت أمين ينادي عليها وهو يتألم، فلم تتردد للحظة وفتحت الباب ثم همت إليه مسرعة وراحت تضع يدها على موضع الألم في كوع قدمه وهو جالس على عتبة الباب، وما إن حطت يدها عليه حتى أمسك بمعصمها وطوقه بيده بالكامل كالصفد وصار يشد عليها بقوة وهو يقول بمكر : ـ أمسكت بك أيتها الملعونة...

وبمجرد أن رفعت نظرها نحوه والتقت نظراتهما حتى ارتخت قبضته شيئا فشيئا حتى تلاشت كلية وقد هام كله في بعض سحر ناظره، وفجأة تشتت نظراتهما ودخلت ياسمين مسرعة وأوصدت الباب خلفها بقوة من جديد، وظل أمين مسحورا بنظرات ياسمين التي كانت توحي بحب كبير وتصرفها الأخير الذي كان يوحي بغيرة لا غير والابتسامة تداعب ملامحه وهو يسأل نفسه : ـ ما الذي فعلته ياسمين وما الذي قالته عيونها للتو ؟؟؟

ـ أكان فعلها انعكاس لغيرتها ؟؟؟

ـ أكانت عيناها مرآة لحبها ؟؟؟

قالت رحاب وهي تنظر في عيني أمجد الذي كان يبادلها نفس النظرات : ـ أحبك...

فقال لها وهو يكشف كل أوراقه : ـ وأنا أحبك أكثر مما تحبينني...

فبرقت عيناها وهي غير مصدقة لما تسمع فأردف أمجد : ـ لكن بشرط...

فقاطعته خوفا من أن يغير رأيه : ـ موافقة...

فابتسم وقال : ـ لا تخبري أحدا بأمر حبنا سيبقى سرا بيني وبينك...

اتفقنا حبيبتي الصغيرة...

فقالت دون تفكير : ـ موافقة حبيبي الكبير...

فضحك أمجد وهو يفتح لها حضنه على مصرعيه قائلا : ـ أحبك جدا صغيرتي...

في هذه اللحظة صفع الباب فانتفضت رحاب مستيقظة وكأنما أحدا صفعها بقوة، فخرجت مسرعة فوجدت ياسمين تتوسد الباب ولم تستيقظ من حلمها إلا وهي تسألها بصوت مبحوح : ـ ما الأمر؟؟؟

فانتفضت ياسمين ولملمت أحلامها المبعثرة ثم قالت بخيبة : ـ لا شيء...

وأردفت : ـ كيف حالك اليوم ؟؟؟ ولماذا لم تردي على اتصالاتي ؟؟؟ قلقت عليك كثيرا...

فردت عليها بلامبالاة : ـ كنت نائمة طوال اليوم...

وراحت ترفع ذراعيها إلى السماء وهي تتثاءب حتى قاطعتها ياسمين وهي تقول : ـ سأل عنك الدكتور أمجد...

فقالت مندهشة وكأن حلمها أو بالأحرى كابوسها بدأ يتحقق في أرض الواقع : ـ ماذا قلت، أمجد سأل عني !!!

فنهرتها ياسمين بتذمر : ـ نعم الدكتور أمجد، تعبت وأنا أصحح لك وأرجو ألا تكسري الاحترام بينكما، فهو محترم لحد كبير، فأرجوك اكبري...

فردت وهي ترفع حاجبها وتمط شفتها : ـ وماذا قال الدكتـــــــــــــــور أمجد ؟؟؟

فردت ياسمين وهي تعرض عنها : ـ سأل عن سبب غيابك فقط...

لكن رحاب واصلت سلسلة أسئلتها وأضافت : ـ وماذا قلت له ؟؟؟

فجاوبتها ياسمين بنبرة مرتفعة : ـ ماهذا يا رحاب ؟؟؟ أهو تحقيق أو ماذا ؟؟؟

واسترسلت : ـ إن قضيت نهارك في النوم فأنا قد قضيته في العمل، وأنا متعبة جدا فلا تتعبينني أكثر أرجوك...

لكن رحاب عنيدة جدا وأعادت عليها السؤال وبإلحاح شديد، فقالت ياسمين بنبرة متعبة :

ـ يـــــــا الله... قلت أنك مريضة وحسب...

فتوهجت أسارير رحاب وأشرقت شمسها بعد أن حاولت بالأمس كسفها ومن ثمة شردت قليلا وهي تقول في خلدها : ـ تلك تأويل رؤياي قد جعلها ربي حقا...

ولا تدري أن الذي رأته مجرد أضغاث أحلام وما تفسيرها إلا بأضعاف الآلام ثم انصرفت وقد لبست ثوبا للحب الضائع المرصع بالأمل الكاذب، أما ياسمين فراحت تنزع حجابها وقد حجبت رحاب كل أحلامها، لكنها ارتأت أن تكتبها في مذكرتها التي كانت أعظم أسرارها بعد سر حبها لأمين مع أن الاثنين كانا يصبان في نهر واحد، وبينما هي على ضفاف نهر حبها اقتحمت الفراشة رحاب خلوتها، فانتفضت ياسمين ولملمت أسرارها خوفا عليها من أن تفضح وصرخت برحاب متذمرة : ـ أأعلمك كيف تطرقين الباب أيضا...

فردت رحاب وهي متعجبة من ردة فعلها القوية : ـ طرقته والظاهر أنك لم تسمعيني...

وتفحصت المذكرة التي كانت ياسمين تحاول إخفاءها وتراجعت في خيبة مفتعلة، فلا يوجد شيء يعكر مزاجها اليوم مهما عظم خصوصا إن كان من ياسمين وخرجت من الغرفة فلحقتها ياسمين وطوقتها بذراعها وهي تعتذر منها فقبلت رحاب اعتذارها ولكنها استنتجت أن أختها ياسمين تخفي شيئا وعليها معرفته.

طرق الباب فظنت ياسمين أنه أمين فطلبت من رحاب أن تفتح محاولة تجنبه أو بالأحرى تجنب التقاء نظراتهما من جديد، ولما فتحت رحاب الباب لم يكن الطارق أمين ولا آدم الذي يملك المفتاح بل كان محمد الذي تنازل عن نسخته خوفا من أن يسرقها منه أصدقاء السوء كما تنازل من قبل عن مسؤوليته، فسلم على أختيه بفتور ولم يسأل عن حالهما

وطلب من ياسمين فنجان قهوة وارتمى على الأريكة والصمت يشوبه والكلام بشيب ملامحه، وما إن قدمت له ياسمين القهوة حتى سمعا طرقا على الباب من جديد ولكن هذه المرة مصحوب بصوت أمين وهو ينادي باسم رحاب، فانتفض محمد وقال غاضبا : ـ ماذا يريد هذا المتطفل ؟؟؟

ثم أردف محذرا ياسمين : ـ احذري أن أجدك تتكلمين معه بدون حجاب فهو غريب عليكن...

فرمقته ياسمين بنظراتها وهي تقول في سريرتها : ـ إن كان هناك متطفل أو غريب في البيت فهو أنت ولا أحد سواك...

ونهض محمد يفتح الباب بتجبر لكن أمين لم يفاجئ بجبروته فقد تعود عليه كما تعود على غيابه الغير مبررين، فحاول أمين امتصاص غضب محمد ومد يده نحوه مصافحا ومرحبا : ـ مرحبا بك يا أخي...

فصافحه وما كاد ليفعل وقال : ـ مرحبا بك أنت...

وكأنه يخبره بأنه هو الضيف، فدخل أمين مبتسما وقال : ـ جئت لأشرب القهوة معك...

وجلس أمين على الأريكة وجلس محمد مقابله وثبت عيونه عليه وكأنه يحرسه لكن نظرات أمين كانت حرة طليقة وكأنه يجبره على تعود وجوده فإن هو هجر و غدر فأمين وفي طال العمر أو قصر.

أما رحاب وياسمين فقد كانتا في المطبخ تتجادلان بصوت مسموع بخصوص من تتجرأ وتأخذ فنجان القهوة لأمين قبل أن يقطع جدالهما محمد وهو يسحب فنجان القهوة من ياسمين ويأخذه لأمين بنفسه ليس ترحيبا به وإنما كشخص غير مرغوب به، فابتسم أمين وهو يقول : ـ شكرا لحسن ضيافتك يا أخي...

وأخذ يتلذذ فنجان قهوته بكل رشفة فقد كانت القهوة الشيء الثاني الذي يدمنه ولكن من يدي ياسمين إدمانه الأول وهو يحاول بين الفينة والأخرى جذب أطراف الحديث الذي كان محمد يقطعه بإجاباته المقتضبة بكل محاولة من أمين، لهذا آثر الصمت على إثارة غضب محمد حتى أكمل فنجان قهوته ثم نظر إلى ساعته التي كانت تشير إلى موعد عودة آدم واستأذن الانصراف لأن سبب وجوده هو أنه لا يأمن على ياسمين ورحاب بوجود أخوهم محمد، فرافقه هذا الأخير إلى الباب وهو يقف حائلا بينه وبين طيف أو ظل أختيه.

خرج أمين والابتسامة تدغدغ ملامحه وهو لا يدري أهي من نشوة القهوة أو من نشوة الحب لطاهية القهوة، ولم يقطع نشوته إلا صوت صدى المفاتيح في الباب وإذا به آدم يدلف مسلما ومبتسما فبادله أمين التحية وهو يسأل عن حاله وأحوال يومه فرد آدم بابتسامة رضا وهو يحمد الله ويدعوه لاحتساء القهوة برفقته فرد أمين : ـ لا شكرا لك، سبقتك وشربتها للتو رفقة محمد...

وهو يشير برأسه إلى الداخل، فحملق آدم به وقال : ـ محمد هنا !!! وهل تصالحتما ؟؟؟

فرد أمين بكل ثقة : ـ لم يكن بيننا خصام حتى يكن بيننا صلحا...

فربت آدم على كتفه وهو يقول : ـ أنت أخي الذي لم تلده أمي...

فرد أمين بين ابتسامة وحنين : ـ أنا أخوك الذي ربته أمك...

فتجهم وجه آدم وكأنه تذكر المشهد الأخير لأمه وقال بحسرة : ـ رحمها الله...

فأردف أمين : ـ رحمة الله عليها وجمعنا بها في الفردوس الأعلى...

فاستطرد آدم : ـ آمين يارب العالمين...

ثم حاول تغيير الموضوع مع أن ملامح وجهه لم تتغير : ـ سأنتظرك بعد العشاء إذن... فاعتذر أمين...

فقال آدم متعجبا : ـ لماذا ؟؟؟ أأغضبك محمد كالعادة !!!

فنفى أمين ذلك، لكن آدم لم يصدقه وقال له كأنه يذكره : ـ أنت أخي الصغير وسندي الكبير...

فأردف أمين مبتسما : ـ ومحمد أخونا الكبير...

فلم يجد آدم ما يقوله أمام كبر أمين الذي كان يكبر في قلبه قبل عينيه يوما بعد يوم، فابتسم وهو يهم بالدخول وأمين يهم بالصعود.

دخل آدم فاستقبلته ياسمين عند الباب وهي تأخذ عنه حقيبته وتوشوش في أذنه أن محمدا بالداخل فأومأ برأسه وهو يقول : ـ أين رحاب وكيف حالها اليوم ؟؟؟ اتصلت بها مرارا وتكرارا فلم ترد...

فطلت رحاب برأسها وقالت : ـ أنا هنا... ثم تقدمت نحوهما وهي تقول : ـ أنا بخير، لم أمت بعد...

فقال آدم وهو يطوقها بذراعه : ـ أنت الحياة حبيبتي...

فقالت ياسمين خلفه بصوت يملؤه الدلال : ـ وأنا...

فالتفت إليها وهو يقول : ـ إمممممم أنت ياسمين الحياة...

وطوقها بذراعه الأخرى.

لم يتحرك محمد من مكانه وظل جالسا في خلوته والقهوة خليلته وهو يحسد أخاه آدم على هاته العائلة التي كونها وكأنه ملك الكون بملكها، دلف آدم عليه فقام محمد يسلم عليه وهو يتذمر من تأخره، فقال له آدم مهدئا : ـ لما العجلة يا أخي، فالليل مازال طويلا، والسهرة أطول بإذن الله...

فرد محمد بقلق : ـ أنا في عجلة من أمري، أحتاجك في أمر فقط...

فقال آدم باقتضاب : ـ كم تريد ؟؟؟

فأعطاه آدم المبلغ كاملا وزاد عليه، فوقف محمد يشكره ببرود وينسحب ببرود أكبر وترك آدم عاجزا عن ضمه إلى عائلته الصغيرة وهو يتمتم في خيبة : ـ لن تتغير أبدا...

وبمجرد خروجه عم الدفء العائلي أرجاء البيت من جديد وياسمين تسأل آدم فيما يريد شيئا معينا على العشاء، فقال : ـ يكفيني أن يكون من أيديكما...

والتفت إلى رحاب واقترب منها وقال بهمس : ـ فقط قللي الملح من أناملك العسلية...

فزمجرت وخرجت متجهة نحو المطبخ في تأفف وهي تضرب برجليها على الأرض، فهرول آدم خلفها يصالحها.

طرق الباب الخارجي بقوة فخرج آدم مسرعا وما إن فتح الباب حتى فوجئ بدورية شرطة وبمجرد أن رآهم ظن أنهم يبحثون عن أخيه محمد وهذا تأويل قلقه وعجلته لا محال، وبعد تبادل التحية الرسمية أشهر الشرطي قرار التفتيش لبيت خاله أحمد الذي تم اعتقاله ليلة أمس، فقال أمين من خلفه والدهشة تعتليه : ـ مـــــــاذا ؟؟؟

فأردف آدم : ـ يمكنني الاطلاع على قرار التفتيش من فضلك سيدي...

فرد الشرطي : ـ نعم بالتأكيد... تفضل...

****

حان دور كوثر فدخلت والدكتور مغموس في حاسوبه وكل ما يعرفه عن مريضه القادم أنه الأخير لهذا اليوم وأنها امرأة كالأغلبية الساحقة، وأنها أول مرة تزور عيادته كمريضة، وما إن ألقت السلام حتى انتفض جسده وارتجف قلبه حتى انتصب واقفا في صمت وذهول وبالكاد رد عليها السلام، فتقدمت كوثر نحوه وهي تقول : ـ أنا طلبت من ياسمين ألا تعلمك...

فقال بهدوء وقد استجمع رباطة جأشه الضائعة : ـ لماذا؟؟؟

فردت عليه وهي تطأطئ رأسها المغطى بوشاح أسود حزنا : ـ لأنني جئت بصفتي مريضة وحسب...

فحدجها أمجد بنظرات ظاهرها شفقة وباطنها حب وقد أضاء وجهها الذي ساده الحزن قلبه وكأنه سافر عبر كبسولة الزمن ليرجع إلى الوراء بعشرات السنين وعدته قلب متقد بنار الحنين وكلما سمع لقلبها أنين ترنح كما يترنح من دفن في قبره حيا وهو يحاول منه الخروج، وكلما بكت بكى لفقدانها وكله جروح.

كانت كوثر تبكي سنواتها الضائعة التي لم تكن إلا نسيجا من الخيوط الوهمية ألبستها ثوب السعادة الوردية، وظلت تتكلم وهي تبكي وتتألم قبل أن تختتم كلامها وكل آلامها : ـ بالمختصر حياتي كانت كبالون نفخ كثيرا حتى انفجر فجأة...

ووقفت وقفة صمود تغلفها طبقة من الجمود وليس لنار قلبها خمود، فخرج أمجد من صمته وقد سحقت كل شهاداته وخبراته وهو يستجمع أفكاره المشتتة بين الماضي والحاضر : ـ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا...

فودعته وهي تشكره وهو يحاول أن يتكلم، لكن كلماته ضاعت منه كما ضاع حبه وعمره قبلا، فودعها بصمت لاذع وأنفاسه تصارع القهر كطائر جريح في البراري ضائع.

وجدت كوثر ياسمين تنتظر في قاعة الانتظار وحيدة وقد نسيت وجودها تماما، فهرولت ياسمين نحوها تطمأن عن حالها، فطمأنتها خالتها لكن ملامحها كذبتها، وخرج بعدها الدكتور أمجد منهك القوى وهو يحاول إخفاء التعب من ملامحه وهو ينظر إلى ساعته ثم أشار لياسمين أنها يمكنها الانصراف مع خالتها وأعلمها أنه سيأخذ عطلة وسيعلمها بتاريخ عودته على الهاتف، فنظرت إليه كوثر وكأنها تقول له أنها بحاجة إليه على الأقل في هذه الفترة، فقال مطمئنا : ـ لن أطيل الغياب...

فقالت ياسمين بلعثمتها المعتادة مذكرة إياه : ـ ومواعيد المرضى !!!

فرد بتعب جلي : ـ سأتصل بالجميع...

وودعهما وعاد إلى مكتبه.

بينما العائلة الصغيرة على مائدة العشاء التي نصب القدر فيها آدم الأب القدوة وتوج الحنان ياسمين الأم عنوة وافترش الدلال درب رحاب التي اتخذت سبيل الفراشات أسوة، أعلمتهم ياسمين بأنها ابتداء من الغد هي في عطلة، فاندهشت رحاب حتى شردقت فأسرع آدم بتقديم الماء لها وهو يسمي الله عليها حتى توقفت عن السعال وابتسمت وتوردت وجنتاها خجلا، فالتفت آدم إلى ياسمين ليصرف النظر عن رحاب وهو يقول : ـ وكم ستدوم العطلة ؟؟؟

فأجابته : ـ لا أدري إلى أجل غير معلوم لكنه ليس بطويل...

اغتنمت رحاب الفرصة ولم تقل شيئا وظلت تصغي باهتمام بالغ، فأضاف آدم : ـ لقد مررت به البارحة لأسلم عليه ولم يخبرني بأمر العطلة...

وفي الواقع أن آدم ذهب إليه ليسأل عن حال أخته ياسمين وقد تعود أمجد على زياراته وإلا اتصالاته وكلها كانت اطمئنان على أخته، فقالت ياسمين : ـ حتى أنا لم يخبرني بأمرها إلا بعد نهاية الدوام...

فقال آدم وهو ينهي الحوار : ـ خيرا إن شاء الله...

فردت عليه ياسمين : ـ إن شاء الله...

وقبل أن تكمل ياسمين قاطعتها رحاب تسأل بعفوية : ـ أهو بخير؟؟؟

فأجابها آدم ولم ينتبه لاهتمامها : ـ طبعا هو بخير، قلت أنني كنت معه البارحة فقط وهو بخير الحمد لله...

دخل آدم مكتبه وشغله الشاغل القضية التي بين يديه، أما ياسمين ورحاب فكانتا تتعاونان في غسل الأواني، لكن رحاب كانت غائبة تماما وشاردة كليا وهي التي تعمدت ألا

تذهب إلى العيادة في الأيام التي تلت سؤاله عنها ظنا منها أنها ستلقنه درسا في الشوق والحنين ولن تزوره حتى يلح عليها بالعودة، خصوصا وأنها صارت متأكدة من حبه بمجرد سؤاله عنها، لتواصل تحليلاتها بأن هذه العطلة مجرد عقاب منه للأيام التي غابتها عنه وإعادة ضرب الكرة في ملعبها وانتهت بابتسامة وهي تقول بهمس :ـ الكرة في قبضتي الآن...

اندهشت ياسمين بالرغم من أنها لم تفهم ما قالته أختها، فسألتها :ـ ماذا قلت ؟؟؟

فانتفضت رحاب حتى أوقعت الصحن من يدها وانحنت بسرعة تلملم الشظايا المكسورة حتى لا ينتبه آدم وهي تقول بصوت خافت :ـ لا شيء... لا شيء...

بعد العشاء طرق الباب طرقا خفيفا يوحي بخجل الطارق الذي يطرق في مثل هذا الوقت وما إن فتح أمين الباب حتى دخلت رحاب وهي تحمل دفاترها وهي تسلم على خالتها بحرارة وتشتكي صعوبة الدروس وكلها مرارة، وما إن اختلت بأمين حتى رمت الدفاتر جانبا وبدأت بسرد المستجدات التي اكتشفتها وأهمها أنها حبها لأمجد حب من الطرفين بعدما كانت تظنه من طرف واحد، وعبرت عن ندمها لإقدامها على الانتحار ليس لأنها أدركت أن فعلها خطأ عظيما بل لأنها أخطأت في تقدير السبب الذي دفعها لذلك، فتفاجأ أمين بشدة وازداد الخنجر في قلبه حدة وهو يحاول أن يفهمها أن حبها أعظم خطأ ولا يوجد أعظم من خطأها إلا فعلها الأخير، لكن محاولاته لم تزد رحاب إلا تمسكا برأيها وبحبها، ولما اشتد النقاش بينهما انسحبت رحاب وأعلنت الحرب حتى ينتصر الحب، ورحلت وتركت لأمين حمل أوزارها التي تزداد يوما بعد يوم ليل نهار.

بعد زوال اليوم التالي عاد أمين إلى البيت وكله أمل بعودة أمه إلى الحياة وكذا العودة إلى عملها ابتداء من صباح هذا اليوم، وما إن فتح الباب الخارجي حتى غزى مسامعه صوت موسيقى رائعة، فالتفت يبحث عن مصدرها فإذا بها تخرج من الطابق السفلي الذي كان بابه مفتوحا، فتقدم نحوه يطرقه لكن لا أحد رد ولا أحد انتبه لطرقاته، فلم ينتبه لنفسه

إلا وهو يتبع صوت الموسيقى حتى وجد نفسه أمام غرفة ياسمين، فتوقف قبل أن يصل إلى الباب وبقي يحاول فهم كلمات الأغنية، فانتبه إلى أنها نفس نغمة رنين هاتف ياسمين وما إن بدأت المعاني تتوضح له حتى وجد نفسه يطرق باب غرفتها وكأنه يطرق باب قلبها، فالتفتت ياسمين مفزوعة ولكن رؤيتها لأمين أيقظت كل أحاسيسها إلا إحساس الخوف فقد وئد في أرضه، فتعانقت نظراتهما على أنغام تلك الأغنية التي كانت وكأنها كتبت فيهما أو كتبت بقلم واحد منهما، وفجأة ارتعشت ياسمين وهرولت نحو هاتفها توقف تشغيل الموسيقى وبمجرد أن أوقفته حتى طلب منها أمين سماعها، فنظرت إليه نظرة اندهاش لأنها تعلم أن أمين يسمع الأغاني الغربية ومن الغريب أن تعجبه أغنية عربية، فلم ترد عليه ياسمين بكلمة وناولته الهاتف والسماعات وخرجت متجهة إلى المطبخ، وتركت أمين مندمجا مع الأغنية التي لم تكن بالنسبة إليه عادية لأنها كانت وكأن كاتبها قلبه وملحنها وجعه وموزعها حبه وهو يتأمل نفسه في اللوحات التي رسمتها أنامل حبيبته وهي طفلة صغيرة وما علقت لتشهد موهبتها بل لتشهد حبها، ولما تيقنت ياسمين بأنه قد اندمج مع الأغنية عادت إلى غرفتها خلسة وما إن أطلت بطرف عينها حتى انعكست صورته في المرآة وهو يبكي كالمرأة، فارتجفت لرؤيته في تلك الحالة فعادت جريا إلى المطبخ كي لا ينتبه أنها رأت دموعه، وقد عجزت عن إيجاد تفسير لا لنظراته ولا لعبراته، وبعد مرور أقل من عشر دقائق عادت ياسمين نحو غرفتها تمشي بخطى هادئة على أطراف أصابعها كراقصة بالي، فطلت برأسها من جديد لكنها لم تر لا أمين ولا طيفه فاعتدلت في وقفتها وهي تمسح الغرفة بنظرها لكنها لم تجد إلا الهاتف موصول بالسماعات، فجلست في مكان أمين وضعت السماعات في أذنيها وشغلت الأغنية من جديد وما إن بدأت حتى شعرت وكأنها تسمعها لأول مرة وبكت هي الأخرى ولطالما أبكتها كلماتها لكنها اليوم تبكي بكاء أمين وفقط.

أمسى أمين وهو متسطح على فراشه يتوسد ذراعه وتلك الكلمات لا تفارق مسامعه، لكن ما كان يشغله ليس الأغنية في حد ذاتها وإنما من يشغل قلب ياسمينته التي لم يكن حالها يختلف هن حاله ومخاوفها تختلف عن مخاوفه لأنها تعلم أن أختها وحبيبة قلبها هي التي تشغل قلبه وهذا ما جعله يقضي ليلة بيضاء مرصعة بنجوم السراب لذا لم يستطع التركيز في محاضراته لا سيما وأن إرهاقه تحول إلى قلق على ياسمين التي يعلم أنها لوحدها في المنزل، فاستسلم وقرر العودة.

ترجل أمين من سيارته وفجأة ارتسمت على وجهه ابتسامة شريرة ففتح الباب ببطء شديد وراح يمشي على أطراف رجليه ولسوء حظه أن باب الطابق السفلي كان مفتوحا فتطاير الشر من عينيه فواصل بنفس الخطى بعدما لم يجدها في المطبخ فواصل إلى غرفتها وهو يطل بطرف عينه، فوجدها توليه ظهرها وهي تصلي بخشوع، لكن صلاتها قد تشفع لها عند رب أمين لكنها لم تشفع لها عند أمين فألقى نظرة متفحصة ليتيقن أن لا خطر يحيط بها غيره، وما إن أفشت السلام حتى أعلن الحرب عليها بصرخة مدوية كالصاروخ اخترق جدران البيت قبل جدران قلب ياسمين التي تبعته بصدى لصرخته ولكن بعدة صرخات متصاعدة بعكس المعروف عن الصدى أنه يتناقص حتى يتلاشى، لكن ياسمين لم تهدأ وظلت تصرخ ومن خوفها لم تلتفت حتى لترى من الفاعل، مما أدى بالفاعل إلى الارتباك ولم يجد ما يفعله أمام هذا الموقف الذي وضع نفسه فيه فاستصغر عقله واستنفر قلبه.

ولما شعرت ياسمين بأن الخطر قد زال، هدأت واستدارت لتفاجأ بالمفاجئة الكبرى وأمين يقف على قارعة الباب وملامحه بين الدهشة والخجل، فلم تستوعب تصرفه ولوهلة ظنت أو تيقنت أنه ليس الفاعل لأنه أعقل من أن يفعل فعلا جنونيا وطفوليا كهذا خصوصا إن كانت هي المفعول به، لكن ضحكاته التي تحولت إلى قهقهات خيبت ظنونها وبقيت صامتة في دهشة لتحكم ما بقي لها من عقلها وهي تتساءل عن سبب فعله لتستنتج أنه لربما

يطبق إحدى دروسه لدراسة حالة مثل حالتها المتلعثمة التي تقضي بوجوب إحداث صدمة ليرجع المتلعثم إلى حالته الطبيعية.

لكن أمين هدأ عن ضحكاته المفتعلة لإخفاء خجله وأطرق رأسه ثم قال : ـ أعتذر...

فصرخت به ياسمين : ـ لن أقبل اعتذارك... ثم أردفت وقد زادت لعثمتها من أثر الخوف شدة : ـ سأثأر منك... أعدك بذلك...

فابتسم أمين وقال محاولا تغيير الموضوع ليجد نفسه في موضوع أحرج : ـ ما عنوان الأغنية التي سمعتها بالأمس ؟؟؟

فأجابته بإعراض وهي تنزع إسدال الصلاة التي لم تعد تذكر أي صلاة صلت الظهر أم العصر : ـ لا أدري...

فازداد أمين إحراجا وخجلا حتى احمرت أذناه فآثر الانصراف وحفظ ما بقي من ماء وجهه، فالتفتت ياسمين فلم تجده فهرولت خلفه وقالت وهو يهم بالصعود : ـ هي للمطرب فضل شاكر وعنوانها أول ما بشوفك... ولم تكمل الجملة لأن الكلمة الموالية كانت حبيبي، فانطفأت الجمرتين على جانبي رأسه ولما أحست أنها قست عليه أكثر مما قسى على نفسه فأردفت : ـ هل أرسلها لك ؟؟؟

فقال باقتضاب ولم تعجبه شفقتها عليه : ـ إن أردت طبعا...

فقالت والابتسامة تداعب محياها : ـ أكيـــــــد... لكن كن متأكدا أنني سأثأر منك، فكن مستعدا...

فرد عليها بابتسامة هو الآخر وقال متحديا : ـ أنا مستعد متى أردت ذلك، وستجدينني بانتظارك...

وهو يقول في نفسه : ـ سيكون أجمل ثأر وأروع انتقام...

فأرسلت له الأغنية وقالت له وقد أثار شفقتها لحد كبير كبر حبها : ـ أتريد شيئا آخر كالقهوة مثلا...

فرد عليها بتعب : ـ لا شكرا أريد أن أنـــــــام فقط... أغلقي الباب وإذا حدث أي شيء فيكفي صرخة منك...

وابتسم وهو يشير بإبهامه ويقول : ـ واااااااحدة فقط...

فتوردت ياسمين خجلا وهمت بالدخول، أما هو فاستلقى على فراشه وفراشات أحلامه تملأ واقعه، ومن شدة تعبه ونعاسه استسلم للنوم مباشرة، وقبل أن تزوره فراشات أحلام النوم استيقظ مفزوعا على أثر صرخات لا يعلم عددها لكنه متيقن من مصدرها، وقبل أن ينقطع الصراخ وجد نفسه أمام ياسمين وكأنه أسرع من سرعة الصوت، وياسمين لازلت في موجة صراخها وهي تهرول ولا تكاد تحط قدميها على الأرض وكأنها مفروشة بالجمر، ولولا مظهرها لظن أمين أنها تأخذ بثأرها منه، فأمسكها من كتفيها محاولا تهدئتها ولكنها كانت كالحمامة البيضاء التي ترتعش في يد صيادها، وما إن شعرت به ورأته قبالتها حتى هدأت واطمأنت، فقال أمين متعجبا : ـ مابك ؟؟؟

فأطرقت رأسها وقالت بهمس : ـ فأر...

فقال أمين بنبرة عالية : ـ مـــــــاذا ؟؟؟

فكررت بلعثمة زائدة : ـ فأر...

فضحك أمين بعفوية ثم ابتلعها لكي لا يحرجها أكثر ثم قال : ـ عجيب أمرك تهددين بالثأر وتخافين من الفأر...

وما إن أنهى جملته حتى شعر بتوعك في إحدى قدميه الحافيتين فانحنى نحوه وهو يضع يده على كاحله الذي التوى فقط على حد قوله وهو يطمأن ياسمين، فانحنت نحوه هي الأخرى نحوه وهي تهمس بارتباك : ـ أعتذر منك...

وراحت تمد يدها نحو مكان التورم، فسحب رجله بقوة احتراما لها لكنها ظنت أنه لا يريد أن تلمسه، وقال محاولا إخفاء ألمه : ـ لا عليك... أصبحنا متعادلين...

فتوجه نحو الباب وهو يعرج في مشيته فقالت ياسمين باقتضاب : ـ إلى أين أنت ذاهب ؟؟؟

فرد عليها دون أن يلتفت إليها : ـ لأناااااام...

ثم التفت إليها وأضاف : ـ لا تخافي، فمستحيل أن يعود بعد صراخك ويترك الهدوء الذي جاء منه...

وهو يقصد كوخ الخالة أم الخير رحمة الله عليها، وواصل ضاحكا : ـ هذا إن لم يكن قلبه قد انفجر من الخوف والرعب...

وصعد أمين السلالم وهو يبتسم ملأ شدقيه وياسمين تتابعه بعينيها وهي تترجاه ألا يتركها لوحدها أو بالأحرى مع الفأر لوحدها، استلقى أمين في فراشه من جديد لكنه لم يكن ينوي النوم فقد طار النعاس مع صراخ ياسمين واستلم هاتفه ووضع السماعات وشغل الأغنية التي أرسلتها له ياسمين وضغط زر التكرار وخفض الصوت لكي يتنسنى له سماع صراخ ياسمين مع أنه لا يشك في أنه سيسمعها ولو رفع الصوت، ولكنه استسلم للنوم من جديد قبل أن تتكرر الأغنية و لم يستيقظ لحسن حظه إلا على صوت أمه الدافئ وهي توقظه للعشاء.

****

خرج الثلاثة مع بعض لكن لكل وجهته وكانت الجامعة وجهة أمين ورحاب أما ياسمين فقد أعلمها آدم مساء الأمس بمعرض لرسامة يعلم أنها تعشق لوحاتها وأذن لها بالذهاب وقد طلب من أمين ايصالها وسيأتي لأخذها بنفسه، وبمجرد أن شغل أمين محرك السيارة حتى ارتفعت صوت القرآن الكريم يعطر أنفاسهم بنفحات إيمانية، وظلوا

يستمعون في صمت وخشوع إلى أن دبت مسامعهم رنين هاتف أحدهم، فأطفأت رحاب المذياع وقالت وهي تلتفت إلى ياسمين في الخلف : ـ هاتفك يرن...

وقد كانت ياسمين تهم باخراجه من حقيبتها، وقبل أن ترتد رحاب التي ظنت أن أمجد هو المتصل ردت عليها ياسمين متعجبة : ـ ليس هاتفي لم يتصل بي أحد...

فقال أمين بهدوء : ـ هو هاتفي إذن...

فسكتت ياسمين ولم تعقب بكلمة، أما رحاب فلم تكفها كل الكلمات وقالت له مذكرة : ـ ألم تقل أنك مستحيل أن تغير نغمة هاتفك المزعجة تلك !!! أقررت أن تخونها أخيـــــرا...

فابتسم وقال : ـ يهون علي خيانة نغمة الرنين وفاء لحبيبتي...

وأضمر اسمها في قلبه الذي كان يقول : ـ يهون علي خيانة نغمة الرنين وفاء لحبيبتي ياسمين...

فتعالت قهقهات رحاب ثم قالت ساخرة منه ومن حبه الذي لم يعترف به بعد : ـ ومن هي حبيبتك ؟؟؟

فنظر إلى ياسمين في المرآة العاكسة وقال مخاطبا إياها بكل جدية محاولا رد الاعتبار لحبه الذي جعلته رحاب مسخرة : ـ أنت...

فاحتقن الدم في شرايين ياسمين حتى كادت تنفجر خجلا وغيرة وقد وجدت نفسها دخيلة بين حبيبين ولما لاحظ أمين تلون وجهها حاول توضيح موقفه بعدما لم تشك ياسمين للحظة أنها المخاطبة ثم قال مخاطبا رحاب التي كانت لا تزال تضحك ملأ شدقيها : ـ لا تأخذي كلامي على محمل الجد...

فردت عليه وقد أوتغت بالضحك : ـ سآخذه على محمل العم أو الخال إن أردت...

في هذه الأثناء لم تجد ياسمين سندا لخيبتها غير زجاج نافذة السيارة وقد أسندت رأسها عليه وأغمضت عينيها وهي تقول في سريرتها : ـ حبك خنجر يذبح وقلبي في دمائه يسبح...

حبك نار تحرق وقلبي في رماد ناره دفن... حبك عذاب وقد خلع القلب أمامه كل باب وليس عليك في ذلك ذنب ولا عتاب...

أما أمين فبعد أن استفقد وجهها في المرآة راح يناديها ولما استيئس من ردها أصابه الذعر، فالتفت إليها مباشرة وهو يناديها بصوت مرتفع وهذا ما أدى إلى انحراف السيارة وسط صراخ رحاب المدوي، لكن أمين استدركها واستطاع السيطرة عليها وقبل أن يستقيم مسارها من جديد صفها جانبا أين استلمته رحاب بضربات على كتفه وهي تقول صارخة :

ـ كدت أن تقتلنا أيها المجنون...

فأمسك أمين بيدها بقوة وصرخ في وجهها : ـ كفـــــــى...

وترجل من السيارة مهرولا نحو ياسمين وفتح الباب الذي باتجاهها فوجدها شاخصة البصر معقودة اللسان فقال لها بلهفة وبصوت مرتعد : ـ مابك يا ياسمين ؟؟؟

فنظرت إليه وكأنها تحاول أن تقرأ حبه في عينيه وقبل أن يتجلى لها صدق الحروف كذبتها وهي تقول برعشة : ـ لا شيء فزعت فقط...

ووضعت يديها على وجهها ودخلت موجة بكاء وهي لا تبكي الموقف الأخير بل تبكي الذي سبقه، ولم ينتبه أمين لما يدور حوله إلا وهو راكع أمام مقعدها وقد احتضن يديها بقوة نحو وجهه وصار يبكي بحرقة وهو يقول : ـ سامحيني...

فكان مشهده يشبه لحد كبير مشهد محمد وهو يحضن ثرى أمه وهو يسألها أن تسامحه، ومشهده هذا كان كفيلا بجعل دموع ياسمين تتجمد في مقلتيها ولو أن دموعه كانت تنزل على قلبها كالجمرات، وكادت جمرة قلبها أن تنطفئ بين يديه، لكن رحاب أطفأت المشهد بحرارته وأبردت دموعه الحارقة وهي تقول : ـ نحن هنـــــــا...

فارتخت يدي أمين وسحبت ياسمين يديها من حضنه، فمسح هذا الأخير دموعه ورفع بصره نحوها وهو يقول بصوت خافت : ـ هل أنت بخير ؟؟؟

فبقيت ياسمين صامتة بعد أن عجزت عن تفسير ما يحدث معه، فأردف وقد ارتفعت نوبة قلقه وكذا ارتفعت نبرة صوته : ـ حبا بالله يا ياسمين ماذا أصابك ؟؟؟

فقالت وقد فكت عقدة لسانها بصعوبة : ـ أنا بخير... وأنت ؟؟؟

فوقف عائدا إلى مكانه خلف المقود وقال : ـ سأكون بخير، لا تقلقي...

عدل جلوسه ووضع حزام الأمان وطلب من رحاب أن تضعه هي الأخرى، فوضعته بتذمر وهي تشيح ببصرها عنه، فقال لها : ـ أعتذر لصراخي في وجهك...

فلم تلتفت رحاب نحوه وكأنها لم تسمع شيئا، فالتفت إلى ياسمين التي كانت تشغل عقله وقلبه وقال : ـ صرت أحسن ؟؟؟

فقالت بارتباك : ـ الحمد لله...

فرد عليها وكأنه صداها : ـ الحمد لله...

وانطلق من جديد وبصره لم يفارق وجه ياسمين، ولم يتجرأ أحد على النطق بكلمة إلى أن وصلوا إلى العنوان الذي أعطاه له آدم، فشكرته ياسمين وهي تهم بالنزول فقال أمين : ـ سأتصل بك للاطمئنان عليك...

فقالت : ـ شكرا لك...

وما إن دخلت قاعة العرض حتى اتجهت نحو النافذة ترقبهما، فرأت أمين يداعب رحاب وهو يبتسم ويضع يده على رأسها وكأنه يداعب شعرها محاولا استنطاقها، لكنها لم تنطق بكلمة إلا بعد أن اعتذر لها مرارا وتكرارا، فابتسمت في الأخير وقالت محاولة رد الاعتبار لنفسها : ـ لقد كنت مضحكا للغاية...

فتجهم وجهه من جديد وقال متحسرا ومتعجبا : ـ لا أدري ما أصابني... لوهلة ظننت أنها فارقت الحياة... صديقني كادت روحي أن تلحق بها في آنها...

فضحكت رحاب وقالت ساخرة : ـ أنت مجنون حقا، كدت أن تقتلنا جميعا بسبب جنون حبك...

فابتسم والتفت فرآها ترمقها بنظراتها الحزينة وابتسامتها البريئة وكأنها لوحة الموناليزا، فلوح لها مودعا وانطلق من جديد.

وفي المساء قضى أمين كل وقته في الأسفل وكأنه يشك في أن ياسمين ستموت وهو يحاول أن يقضي معها أطول وقت ممكن وظل يجالس آدم وهو منهمك في عمله بعد أن انسحبت ياسمين ورحاب من مجلسهما فخجل أمين من نفسه فحمل هاتفه الذي وضعه على الطاولة بعد اتصال أمه وهو الذي لم يعتد أن يضعه في غير جيبه واستأذن منصرفا، فاستحسن آدم ذلك لأنه لم يكن ينصف وجوده، وقبل العشاء رن الهاتف الموجود على الطاولة فناد آدم على ياسمين لكنها لم تسمعه، فاضطر للنهوض لأن صوت الهاتف شتت تركيزه، لكن اسم المتصل شد تركيزه وهو اسم لرجل، فشك أنه ليس هاتفها وربما يكون هاتف رحاب أو حتى أمين لكن نغمة الرنين تلك كانت لياسمين، فرد على المكالمة ليس شكا في أخلاق أخته وإنما توثيقا لتربيته، وبمجرد أن ضغط زر الرد حتى بادر المتصل بالكلام وهو يقول : ـ مرحبا يا صاح...

فرحب آدم به ثم عرف بنفسه وهو يعتذر منه لأن أمين قد نسي هاتفه في منزلهم، وقبل أن يفصل الخط كانت رحاب تقف أمامه، فقال آدم وهو يوجه الهاتف نحوها : ـ ظننته هاتف ياسمين... خذيه إليه وهاتي هاتف أختك، ليس معقول هواتف متشابهة ونفس نغمة الرنين أيضا...

طارت رحاب بالهاتف إلى أمين وهي تشهر صورة ياسمين التي كان يضعها خلفية لهاتفه، فارتجف أمين وأخرج هاتف ياسمين من جيبه وقال مذعورا : ـ هل رآها آدم أو ياسمين ؟؟؟

فقالت : ـ لقد أنقذتك هذه المرة...

فأخذ منها الهاتف وهو يتنفس الصعداء وأعطاها هاتف ياسمين، فقالت رحاب مستغلة الفرصة : ـ أنت مدين لي بواحدة إذن...

وأنصحك أن تغير النغمة ولو بالمزعجة التي كانت قبلها...

****

رفع أذان الفجر فقام أمين يتوضأ لعل الوضوء يطفئ نيران وساوسه وخرج إلى المسجد رفقة آدم كعادتهما، لكن آدم لاحظ أن أمين مشتت الفكر كغير عادته، وكلام كثير يشوب نظراته مع أن كلامه كان قليلا و بعد أداء صلاة الفجر ومع غياب العم منصور الذي ترك شغورا كبيرا بين صفوف المصلين وبين ثنايا قلب المصلي آدم خرج الجميع ولم يبق سوى آدم وهو يحترق بالدموع المتسللة من عيني أخيه كقطرات الندى التي تحاول أن تنعش حياة وردة ذابلة، فربت آدم على فخذ أمين وهو يقول : ـ ما بك يا أخي ؟؟؟

فانتفض أمين والتفت إليه وكأنه انتبه لوجوده للتو فانتابه الخوف من أن جليسه قد سمع بعض دعواته لربه أو قرأ بعض أفكاره، وبقي يحدق به وعقله يحثه أن يخبره بحالة رحاب لكن قلبه كان ينبض بشدة وهو يمنعه وكأنه يهدده أنه إن فضح سرها فسيتوقف، مع أن هذا أرحم لأمين من الحمل رحاب الثقيل، فرد بعد أن انتصر قلبه : ـ لا شيء...

فاحترم آدم رغبته وخصوصيته ولم يلح عليه أكثر واكتفى بقوله : ـ إذا احتجت للمساعدة فلا تنسى أن لك أخا...

فابتسم أمين وعيناه تترقرق دمعا وقلبه يصرخ وجعا وهو يقول : ـ بالتأكيد أخي العزيز...

خرج أمين إلى جامعته مهرولا بسبب تأخره بعدما لم توقظه لا أمه ولا رحاب، وما إن فنظر إلى الباب المغلق في الطابق السفلي حتى انفتحت أساريره بابتسامة عفوية مسحها بسرعة وغادر بسرعة أكبر، ولم يكن في برنامجه لهذا اليوم سوى محاضرتين فحضرهما مع

التأخر في المحاضرة الأولى، وفي طريق عودته إلى المنزل دبت مسامعه صرخات ياسمين فابتسم واتجه إلى إحدى المحلات مباشرة واشترى سم الفئران في حال ما عادت طبعا.

فتح أمين الباب فوجد الباب السفلي لا يزال موصدا فطرقه بلطف لكي لا يفزعها، ففتحت ياسمين بعد أن تأكدت من هويته طبعا وكأنها لا تدرك أن الفئران تتسلل من تحت الباب، فرحبت بأمين ودعته لتناول الغداء فقال بحسرة : ـ لا شكرا... أريد فنجان قهوة من فضلك...

وناولها الكيس وابتسم ابتسامة باهتة وهو يقول : ـ سما للفئران المسكينة التي أشك في أنها تفضل الموت بالسم على أن تموت من فزع صراخك...

فابتسمت ياسمين هي الأخرى وطأطأت رأسها وسألته عن حال قدمه، فطمأنها ومشى خطوات نحو السلالم وقال لها : ـ أنا أنتظرك في الخارج، أحضري القهوة وتعالي...

فأعدت له ياسمين القهوة وخرجت إليه وهي تمسك فنجانا واحدا من القهوة فهي رغم أنها كبرت إلا أنها لم تستطع تحمل مراراتها أو لربما لأنها تذكرها بالمر الذي تجرعته في صغرها، فقدمتها لأمين وهو يجلس على السلالم وبقيت هي واقفة، فطلب منها الجلوس بنبرة جد جدية فجلست بجانبه وهي تتوجس خيفة من جديته اللامعتادة، وازداد خوفها وتسارعت نبضات قلبها لما أضاف قائلا : ـ أريد أن أخبرك سرا ولن أطلب منك وعدا لتحفظيه، فأنا أثق بك أكثر من نفسي التي لم تتحمل هذا الحمل الثقيل ولم تجد غيرك لتشاركه...

وهو لا يقصد سره الذي لا ينوي أن يبوح به أبدا، بل يقصد سر رحاب الذي لو تركه سرا لكان سبب موتها علنا، لكنه قبل أن يشرع في الموضوع ولو بتلميح فتح الباب الذي نسيه أمين مفتوحا، فاشرئبت أنظارهما خصوصا وأن نظرات محمد كانت تطلق شرارا نحوهما، وما هي إلا ثوان حتى تحول الشرار إلى نار وقد انقض محمد على أمين كما ينقض الذئب على فريسته الذي كان يترصدها في كل حركاتها ولكمه لكمة قوية وهو يلذعه بوابل من الشتائم،

وما إن حاول أمين تحريك شفته بقول حتى أمسكه من قميصه ودفعه من أعلى السلالم إلى الإسفلت، فهرولت ياسمين خلفه وهي تصرخ ولعثمتها ألجمتها عن قول كلمة حتى ولو كانت اسم أمين، الذي نزل محمد عليه ركلا وياسمين تحاول أن تحيطه بذراعيها ودموعها تذرف سيولا عارمة وظل أمين يحاول صد ضرباته فقط وهو يحمي ياسمين ويبعدها عنه ولم يرد عليه بضربة ولم يدافع عن نفسه ولو بكلمة ليس لأنه خائر القوى، إنما لأنه يستحيل عليه أن يرفع يده في وجه أخيه الكبير الذي لم يشفي غليله بعد، بل راح يقذف حمم بركانه الذي لم يخمد بعد على أخته ياسمين التي سحبها من شعرها طول الرواق دون رأفة وهو يسبها بكلام فاحش ربما لم تسمع مثله في حياتها وهي تصرخ صرخات كادت أن تدفن أمين في أرضه التي اهتزت جدرانها وهي التي لم تسمع كهذا الصراخ الموجع منذ أن انقطعت فيه من سنين عديدة ليمر الزمن ويعاد المشهد وليس هناك منه مهرب، فأوصد محمد على أخته باب غرفتها ورماها على سريرها.

استجمع أمين قواه ووقف كالميت ثم هرول نحو غرفة ياسمين يحاول استرجاع روحه التي سلبت منه للتو، وبضربات متكررة اقتلع باب الغرفة ليجد محمد منهمكا في تكسير اللوحات المعلقة لتصبح جدران الغرفة كشجرة سقطت كل أوراقها فجأة وهي بكامل اخضرارها، فأسرع أمين باتجاه ياسمين التي كانت في دوامة من الصراخ، فطوقها في حضنه وما إن التفت محمد بعد أن لاحظ انقطاع صراخها حتى ثار كالوحش و أزاح أمين وصفع ياسمين بقوة، فلم يشعر محمد بنفسه و لا بقوته إلا وهو ساقط على الأرض و أمين يضربه بكل قوته، قوه لم يعهدها في جسمه الذي لم يجربه من قبل إلا في الحركات الرياضية ولكن عضلاته كانت وكأنها قد اكتسبت القوة من الضربات التي حضي بها منذ قليل من ذاك الجسد الذي أنهكته المهلوسات و المخذرات، وظل أمين يلكمه بهستيريا بكل ما أوتي من قوة ولم يوقفه إلا صراخ ياسمين الهستيري أيضا، فهرع إليها وعانقها بشدة وهو يخرجها

من الغرفة فاغتنم محمد الفرصة وانقض عليه كالضبع المخادع واستله من قدميه حتى جعله يخر أرضا ومن ثم خنقه بكلتا يديه و ياسمين تحاول جذبه نحوها بكل قوتها لكن لم يكن لها قوة إلا في الصراخ، في هذه الأثناء كانت عينا أمين قد جحظت و امتزجت زرقتها باحمرار قاني وصارتا كالبحر الهائج المتوهج بالشفق الأحمر تماما كذلك اليوم الذي كاد أن يفقد حياته بسبب ياسمين وهو صغيرا ليكون على وشك أن يفقدها اليوم وبسببها أيضا وهو كبيرا.

فوجئ آدم بالباب مفتوح على مصرعيه و ازداد دهشة بالقهوة المتدفقة أرضا والتي من دهشته ظن أنها دماء و الفوضى التي تعم البيت و الصراخ الذي يهز القلب قبل السمع، فسرت قشعريرة في جسده كادت أن تسقطه أرضا من أثر الصدمة لكن لم تسقط منه إلا حقيبته فهرول إلى الداخل ومشهد مقتل أمه يتمثل أمام عينيه وهو يجري لإنقاذها، فانقض آدم على محمد وراح يلكمه بقوة من شأنها أن تمنع مقتل أمه، أما أمين فقد كان يصارع أنفاسه المتقطعة في موجة سعال متواصلة وياسمين شاخصة به تماما كذلك اليوم الذي سبب لها لعثمة أبدية، وسط صرخات آدم التي كانت تتصاعد وهو يقول : ـ سأقتلك أيها القاتل....

وهو يصب وابلا من اللكمات على أخيه الذي فقد الوعي تماما، وما إن ازدرد أمين أنفاسه حتى التفت إلى آدم يحاول أن يوقفه لكنه كان كبركان خمد لسنوات لكنه لم يستطع التحمل فثار وسط ذهول أمين الذي ازداد حدة برؤية ياسمين التي هجرتها كل آثار الحياة وقد جحظت عيناها وفتحت فاها كمومياء فرعونية تقف على أرجلها وقد بدأت أصابع يديها بالانقباض عشوائيا، فلم يجد أمين طريقة يوقف بها آدم بعد أن حاول معه بكل الطرق غير صفعه بقوة فانتفض هذا الأخير وكأنه كان نائما في عز الشتاء وأيقظوه بدلو ماء بارد ، فوجد نفسه يحملق في الوجوه التي قبالته وكأنه يبحث عن روح أمه في الملامح التي اسودت بالحزن الدامي، وما إن رأى جسد أخيه المتهالك وكأنه جثة هامدة أمامه حتى ثبت نظره

عليه وكأنه لا يدري ما أصابه أو يتساءل مابه، أما أمين فأسرع لإسعاف محمد والذي ظن أنه ميت لولا أن نبضه أخبره بعكس ذلك، وماهي إلا دقائق معدودة حتى فتح محمد عيناه و أول ما رآه هو أخوه آدم جاث على ركبتيه ويمسك رأسه بكلتا يديه و كأنه سينفجر تماما كانفجار الذكريات المؤلمة الذي ظن أنه دفنها ولم يبق منها إلا حبه لأمه الذي لن يموت ولن يدفن أبدا وإن دفنت هي حبه وحب أختيه في قلبها كبذرة عقيمة زرعت في تربة عفنة فلا هي نبتت ولا هي أزهرت ولا هي أثمرت، وما إن سمع حشرجة أخيه حتى رفع رأسه لتتعانق نظراتهما و تتنافر أحضانهما و لما تأكد آدم بأن خطر الموت قد زال عن أخيه ساد صمت رهيب لبرهة قبل أن يكسره آدم بحقائق رهيبة وهو يقول بصوت من الصراخ مبحوح : ـ أجئت لتكمل مهمة أبيك الذي لم ترث عنه غير الهجران والطغيان أم أنك اشتقت لرائحة الدم التي سقانا بها أبوك قطرة قطرة إلى أن أغرقنا في فيضاناتها....

ثم انتبه لشيء كان يتظاهر بأنه قد نسيه فأردف قائلا : ـ آ نسيت لم تكن موجودا لأنك نسيت أن لك أخا وأنا أنظر إلى رأس أمي المعلق والدماء تقطر من نحرها المفصول وعيناها جاحظتان في ذهول وأنا واقف قبالته بجسد مخذول ليتحول الجسد إلى مجرد تمثال مخبول...

ثم بدأ يصرخ : ـ قل لي أين كنت؟؟؟ أين كنت ؟؟؟ أين كنت؟؟؟

لم تفكر أن لك أخا أصغر منك يصارع الكوابيس كل ليلة لتقفز أختاي الصغيرتان مفزوعتان من فزعي ولو كانتا تدريان ما رأيت لما اقتربتا مني خوفا من أن تغرقا في بحر الدم الذي كنت أغرق فيه...

أو أنك تظنني جبل من حجر لأتحمل كل هذا وحدي ألم تسأل نفسك ولو مرة كيف لذاك الطفل المشرد أن يعيل أختيه وعلى الفقر يتمرد...

ثم وقف من الغضب وهو يقول صارخا : ـ ولكنني أعلمك يااااا أخي أنني لم أكن وحدي فقد تركت لي أمي ثلاث إخوة ياسمين ورحاب وأميـــــــــــــن الذي أأتمنه على أختاي أكثر مما أأتمنك عليهما...

ثم أردف صارخا : ـ لماذا جئت ؟؟؟ ألأجل هذا ؟؟؟ أهذا ما تريده ؟؟؟

وأخرج كل ما تحويه جيوبه من نقود وراح يرميها عليه، وفجأة تعالت صرخات ياسمين مدوية وكأنها تعلن وجودها ورحيلها في آن واحد وقد انقبضت ألياف أطرافها وتلونت بمزيج من الزرقة والاخضرار وصارت كدمية المسرح التي شدت خيوطها بقوة.

ولكن ياسمين كانت تشبه شجرة الياسمين إلى حد كبير فهي تستطيع تحمل شح الماء، ولكنه عندما يفقد آخر عوامل الصمود تتكسر أغصانه اليابسة وتذبل الياسمينة وتجف لكن ياسمين رغم أنها تحملت الجفاء و الجفاف ورغم تيبس أطرافها ورغم أنها تبدو ذابلة وكأنها ميتة إلا أن الأمل بداخلها لا يذبل ولا يموت أبدا.

فحمل آدم أخته ياسمين كما يحمل الريح ورقة الشجر التي سقطت واصفر لونها وهرع بها إلى السيارة التي كاد أمين أن يقلعها قبل صعودهما وانطلق بسرعة البرق وياسمين ترعد قلبيها بصراخها الذي كان في تزايد وأطرافها تزداد انقباضا من قدميها إلى قفصها الصدري الذي دخل جزئه الأيسر في الأيمن وكأنه يعانقه وهذا مالم يتحمله آدم ودخل هو الآخر في موجة صراخ وهو يناجي ربه.

وصلوا إلى المستشفى وبالذات إلى قسم الاستعجالات وما كادوا أن يصلوا من خطر الحوادث التي كانوا على مشارفها وآخرها اصطدام أمين بالباب الحديدي الذي لم يستطع انتظاره حتى يفتح بالكامل، وقبل أن يتوقف بالكامل نزل آدم بسرعة وحمل أخته بين ذراعيه وقد أصبحت مقرفصة كورقة مسودة لا فائدة منها ثم مشى بها خطوات معدودة قبل أن تخور قواه وسقط على الأرض بركبتيه التي عجزت عن حمله وهو يحمل أخته وهي تحتضر

فهرع أمين إليهما وحمل ياسمين في حفنته وترك آدم ساقطا على الأرض وهو يضربها بقبضتيه المتورمتين وهو يرى أخته تغادره وهو يقف مكتوف الأيدي.

بعد حوالي ربع ساعة خرج أمين وهو يلتفت بحثا عن آدم فلم يجده إلا لما أطرق رأسه فوجده يركن على الأرض وهو مطرق الرأس فانحنى أمين نحوه يطمئنه وهو يقول : ـ لا تقلق هي بخير تم إعطاؤها جرعة من دواء كفيل بإرخاء عضلاتها و حقنوها بمهدئ وهي نائمة الآن...

وشده من يده مساعدا إياه على الوقوف وهو يقول : ـ يمكنك رؤيتها...

فوقف بصعوبة وتقدم بخطى متثاقلة ، وثقله يزداد بكل خطوة وكأنه لم يصدق أنها لا تزال حية ليجدها مستلقية على السرير كأنها الأميرة النائمة فألقى حمله على حافة السرير وهوى جالسا بجانبها ثم أمسك بيدها التي بدأت تعود لحالتها الطبيعية بعد أن ظن أن من تشابكها قبل قليل أنها ستبقى مشلولة للأبد وأخذ يقبلها وهو يهمس : ـ سامحيني حبيبتي...

وأخذ يكررها والدمع يغسل يد أخته وصوته يرتفع ويمتزج بشهقات، فلم يتحمل أمين ذلك المشهد فقد كانت دموع آدم كجمرات على قلبه وياسمين الساكنة في سريرها نارا ملتهبة تحرقه في سريرته فاتجه نحو الشرفة وقد سرت في جسده رجفة بكلمات آدم الذي لو لم يأتي صدفة لكان هو وياسمين في عداد الموتى ولم يسقى حبهما من الماء برشفة، فهاج بحر عينيه وفاض على شواطئه حاول أن يهدئه لكن مده كان أقوى من جزره فأغرقه وإذا بيد آدم تربت على كتفه ولم ينبس بكلمة فالتفت إليه وارتمى في حضنه وتمسك به كالغريق وقد ازداد هيجانه وصوت أمواجه يقول : ـ سامحني يا أخي...

قبل أن يتدارك طلبه ويقول : ـ ولو سامحتني فلن أسامح نفسي وليتني كنت ميتا أو لم أخلق في هذا الوجود على أن تمس شعرة من ياسمين أو رحاب في وجودي...

فدفعه آدم وشده من كتفيه بقوة وهو ينظر إلى عينيه التي كانت أكثر تورما من عينيه لكن أمين لم يجرؤ على النظر في عينيه فأشاح عنه إلى الأسفل فقال آدم بنبرة هادئة : ـ ارفع رأسك يا أخي...

ثم أحكم قبضته على ذراعيه وما إن رفع أمين رأسه حتى رمقه بابتسامة حضنته قبل أن يعاود احتضانه من جديد.

لكن حضن آدم لم يكن كفيلا بكفكفة دموع أمين التي كانت تتدفق كالشلال وآدم يحاول تهدئته ثم قال بنبرة حادة : ـ أعدك أنني لن أسامحه و سيدفع الثمن غاليا...

في هذه الأثناء طرق باب الغرفة فتقدم آدم ليفتحه أما أمين فقد انهمك في مسح دموعه التي فاضت، وما إن فتح آدم حتى فوجئ باثنين من عناصر الشرطة لكنه أخفى اندهاشه و تفاجؤه ورحب بهما وخرج إليهما وطلب من أمين البقاء في الغرفة وألا يفارق ياسمين فأومأ برأسه علامة الإيجاب.

قال الشرطي : ـ نريد أن نسألك بعض الأسئلة بخصوص الحادثة وسنأخذ إفادة الضحية حالما تستيقظ...

فابتسم آدم وهو يقول : ـ ربما حدث سوء فهم ليس هناك لا حادثة ولا قضية ولا ضحية وأخرج بطاقته المهنية من جيبه وقدمها له وهو يقول : أنا محام وهذه بطاقتي في حال احتجتم لأي شيء...

فاعتذر الشرطيان وانصرفا وهما يحييان المحامي آدم.

دخل آدم الغرفة فانتفض أمين وهو يقول : ـ أبلغت عنه؟؟؟

فرد آدم بهدوء : ـ لست بهذه الحقارة وشرفي أشرف من أن يدنس في المحاكم...

فطلب آدم من أمين العودة إلى المنزل قبل حلول الليل وكوثر ورحاب وحدهما والقلق ثالثهما، مع أن كوثر لم يهدأ لها بال وهي تسأل عن كل كبيرة وصغيرة، لتدخل بعدها في

سلسلة من الاتصالات المتكررة لأمين الذي تعمد تجاهلها أو بالأحرى تجاهل أسئلتها التي يجهل ما يرد عليها.

وحتى بعد أن دخلا في مفاوضات لم يصلا إلى حل يتفق عليه الاثنان وكل طرف متمسك برأيه فلا آدم تقبل فكرة أن يعود إلى البيت ويترك أخته وهو لم يرى بأم عينيه أنها قد فتحت عيناها ولا أمين أراد النقاش في أمر عودته إلى المنزل ولو أنه لم يتعود رفض طلب لآدم ولا تجاهل أمه بأمر، وختم النقاش باتصال هاتفي إلى أمه وهو يعتذر منها بحجة أنه قد نسي هاتفه على الوضع الصامت ويعتذر عن غيابه هذه الليلة لأنه سيقضيها مع آدم وياسمين في المستشفى ولم يترك لها المجال حتى للقبول أو الرفض وختم مكالمته وهو يوصيها على نفسها وعلى رحاب.

أرخى الليل سدوله فاستسلم له آدم أما أمين فظل يترقب أجفان ياسمين كما يترقب الطفل الصغير بزوغ فجر يوم العيد، وهو يتألم لألمها كيف لا وقد تسلقت شغاف قلبه والتف ساقها وأفرعها بشرايينه حتى امتزج دمه بياسمينها وظل يتأمل جمال هذه الزهرة المتفتحة حتى وهي نائمة فقد كانت زهرة متميزة عن كل الزهور بجمالها الذي فاق الحد وبرائحتها التي لا يختلف على سحرها أحد، بعد مرور منتصف الليل بساعات قليلة فتحت ياسمين عينيها وأول ما رأته هو أمين وهو يهمس حمدا لله على سلامتها ويطمئن عن حالها، فردت عليه بابتسامة واهية ثم راحت تمسح الغرفة بنظرها كأنها تبحث عن أحد أو أنها توجست من المكان ولا تدري أين هي، وما إن رأت آدم نائما على كرسيه وهو يكاد يسقط عنه فابتسمت ابتسامة أخرى فلم يكن شيء يفرح ياسمين أكثر من أن تستيقظ فتجد أحب رجلين في حياتها بالقرب منها أو هي فرحة مؤقتة بسبب الحبوب التي هي تحت تأثيرها وراحت تنثر ياسمينها في الغرفة بابتسامتها التي لطالما سحرت أمين ولا زالت تسحره في كل حالاتها وكأن ما يجري في شرايينه ياسمينا لا دما وإذا ما غابت عنه أصيب بفقر

الياسمين وأول ما يراها تحقنه جرعات كافية ولو ابتسمت لفاض حتى يكاد يخرج من مقلتيه فينكشف أمره.

مع شروق الشمس استيقظ آدم وياسمين أما أمين فقد شرقت شمسه في عز الليل وأمطرت سماؤه ياسمينا يمحي ظلمة كل الليالي، وماهي إلا لحظات حتى دخل أمين وهو يحمل في يديه أكياسا فسلم على آدم وياسمين اللذان كانا يتناولان فطورهما وقبل أن يجلس ليشاركهما ناول الأكياس لياسمين التي لم تصبر لترى ما في جعبتها ففتحتهم وهي لا تتوقع ما فيه ففوجئت بحجاب جميل وخمار أجمل فحضنته بنظراتها وطوقته بابتسامتها وشكرته بكلماتها أما آدم ابتسم ابتسامة تقدير وإجلال لصنيعه وهو يقول : ـ والله لم يخطر ببالي كيف ستخرج من هنا بدون حجاب ؟؟؟

ثم وضع يده على رأس أمين الذي ازداد خجلا وهو يخفي وراء ابتسامته الخجلة جرعة من الحب وجرعة زائدة من الغيرة على حبيبته ياسمين.

غادرت ياسمين المستشفى رفقة الرجلين الأحب إلى قلبها على الإطلاق والابتسامة ترسم على ملامحها البريئة وكأن دقات قلبها تدغدغها لكن هذه الابتسامة سرعان ما تلاشت وهي تدخل البيت وآدم يطوقها تحت ذراعه لأنه يعلم أن الحادث ترك في نفسيتها الجريحة جرحا بليغا ولكن بالرغم من نزيفه إلا أنه لم يستطع أن يخضب بياض قلبها وروحها، فاستقبلتها أختها رحاب والخالة كوثر بالأحضان وسورة الكهف تتلى لتنير الجمعة وما بينها.

مسح آدم ردهة البيت بحثا عن أي أثر قد يجعل قلب ياسمين يتعثر فاصطحبها عمدا إلى غرفة الضيوف مرورا بغرفتها التي كانت موصدة لكن جدرانها كانت تئن ألما ألم قلب ياسمين، فتسلل آدم إلى غرفتها يتحسس الوضع ففتحها بهدوء ليجدها مرتبة على عكس توقعه أما جدرانها فقد كانت عارية من كل الذكريات السعيدة التي كانت تجعل ياسمين

تبتسم لها كلما رأتها أما اليوم فهي مجرد ركام وضعته الخالة كوثر ورحاب في ركن من أركان الغرفة لأنهم يدركون غلاوتها على قلب ياسمين، فتقدم آدم نحوها يحاول انتشالها لكن ما لم يكن ممزقا كان بقطرات الدم ملطخا، وفجأة فتح باب الغرفة بهدوء فوثب آدم كأنه يريد أن يخفي وراءه ذاك الركام فدلف أمين وتفاجأ هو الآخر برؤيته في الغرفة فقال مرتبكا : ـ أعتذر لم أكن أعلم أنك هنا ظننتك في غرفتك...

فرد آدم : ـ لا عليك... جئت لأتفقد الوضع...

فقال أمين : ـ وهذا ما أتى بي أيضا... وأشار إلى الركام خلفه ثم راحا يتفقدانه ويلملمانه مع أنه لم يكن كثيرا فلوحات ياسمين لم تكن بالكثيرة فهي قد اعتزلت الرسم من بعد صدمة مقتل أمها وقد قتلت موهبتها وكلما حاولت الرسم تحولت كل ألوانها إلى الأحمر القاني فتصاب ياسمين برهاب الدم لكن محمد بفعلته قد حولها إلى رفات على عكس آدم الذي أراد أن يحييها كما حاول من قبل إحياء موهبتها لكنه فشل وخاب أمله، فاقترح أدم على أمين رميها والتخلص منها نهائيا لكنه اعترض بشدة وهو يقول : ـ لا سأحتفظ بها... وأردف بعد إذنك طبعا...

فصمت آدم لبرهة ثم قال : ـ لك ذلك لكن بشرط ألا تراها ياسمين على الأقل في هذه الفترة...

ليرد أمين مؤكدا : ـ بالتأكيد لا تقلق...

فجمعه بين ذراعيه كأنه يحمل قلبه المكسور بين يديه ولم يترك له أثرا لكن أماكنها كانت تصرخ من الفراغ.

تناول الجميع الغداء في جو عائلي باستثناء أمين الذي بعدما انتهى من بكاء رفاته راح يبحث عن لوحات تملأ الفراغ الذي تركته مع أنه يعلم أن لا شيء مناسب لذلك، وعاد قبيل صلاة الجمعة والنسوة منشغلات بتنظيف المطبخ وحتى ياسمين معهن بعد الحاحها

الشديد، فتسلل أمين بدون أن تنتبه إليه إحداهن ودخل الغرفة ووضع اللوحات فوق السرير وراح ينصب كل واحدة في فراغ من الفراغات فأصبحت الغرفة كفقرة مملوءة بكلمات غير مناسبة أو كمريض زرعوا له عضوا لم يتقبله جسمه، مع أن اللوحات الجديدة كانت غاية في الجمال تسحر قلب ناظرها قبل عينه إلا أنها لم تكن بمكانة اللوحات المكسورة التي لم تسلم حتى براويزها وكأنها انتحرت مع موت رسوماتها فالموت بالنسبة لها أفضل من أن تحتضن رسومات غير التي احتضنتها بأول ولادة لها فهي أمها التي احتضنتها وإن لم تكن من رحمها ولدتها ولو خانها الجدار الذي على صلبه حملها.

انتهى أمين و هم بالخروج وما إن فتح الباب حتى التقى وجها لوجه مع ياسمين ففتح الباب على مصرعيه ودعاها للدخول والابتسامة ترسم على محياه تماما كتلك التي كانت معلقة في إحدى اللوحات، فدخلت ياسمين بخطى متثاقلة وسالت دموعها متسارعة لكنها راحت تمسحها وترسم على محياها ابتسامة تقدير وإعجاب وهي تنادي على أختها وخالتها وأخيها ليشاركوها فرحتها المزعومة ودموعها لم تتوقف كاشفة ادعائها أنها باللوحات مغرمة ولكن غرامها أمين لم يستطع تحمل منظرها فانسحب وكأن دموعه دعته لتنفرد به.

مر يوم آخر وأمين معتكف في غرفته وهو منهمك في إلصاق اللوحات وإعادة ترميمها و كأنه يقوم بعملية جراحية لنفسه دون مخدر، ومساء ذلك اليوم اتصل الدكتور أمجد بياسمين يعلمها بانتهاء الإجازة لكن هذا الاتصال لم تكن تنتظره ياسمين أو كوثر التي تلقت قرار طلاقها رسميا بقدر ما كانت تنتظره رحاب التي طارت فرحا بهذه المكالمة.

في صباح اليوم التالي نزلت كوثر لاصطحاب ياسمين معها إلى العيادة التي كانت وجهتها الأولى هذا اليوم أما رحاب لم يكن لديها محاضرات في الساعات الأولى ومع هذا كانت مستيقظة وربما لم تنم الليل كله وهي تحلق كفراشة تجوب الحقول وكلها أحلام وردية وهي متشوقة للموعد الذي أعطته لنفسها هذا المساء.

لم تكن زيارة كوثر الثانية كالأولى التي كانت بها متزوجة فهي مطلقة بالإضافة إلى التفاعل المتبادل بينهما من أول جلسة إلى آخرها مع تحسن ملحوظ في نفسية كوثر وكأنها كانت تريد توثيق فراقها مع زوجها بعقد الطلاق، لكن رحاب كانت تصارع أنفاسها المتسارعة وكأنها ستقابل الدكتور أمجد لأول مرة، مرت الساعات بسرعة لكن ليس على رحاب التي كانت تعد الدقائق والثواني وكلها يقين بأن حبها أعظم الحقيقة.

رحب الدكتور أمجد برحاب و كأن شيئا لم يحدث لكن رحاب اغتنمت الفرصة أو بالأحرى أرادت أن تعطيه فرصة البوح بحبه فزادت نظراتها جرأة وهي تبحث في عينيه عن حبه المكبوت وبينما هو يشرح لها بعض النقاط أرادت هي وضع النقاط على الحروف فمدت يدها نحو يده وما إن لمسته حتى أسقط القلم وسحب يده بقوة وكأن صعقة كهربائية أصابته، لكنه واصل شرحه متظاهرا بعدم الانتباه واللامبالاة ليختم جلسته في الأخير وقد رسم ابتسامة على وجهه وهو يقول : ـ أتمنى أن أكون قد أجبت على كل الأسئلة بنيتي...

ولأنه يؤمن بأن كل ممنوع مرغوب أراد أن يبيح لها إحدى الممنوعات علها تسقط من قائمة رغباتها فمد يده نحوها ليصافحها فنظرت له نظرة ملؤها الغرور والكبرياء تاركة يده تسبح في الهواء وما إن أحست أنه سيسحبها احتضنتها وهي تبتسم ابتسامة انتصار ويبادلها غريمها وغرامها بابتسامة تملؤها الشفقة والحنان.

أحس أمين بحركة تدب أسفل البيت فوقف نحو المرآة يرى أثر الكدمات على وجهه التي لم يبق منها إلا هالة بنفسجية حول إحدى عينيه فنزل بخطوات ثابتة وما إن رمى رجله على الأرضية حتى لمح طيف ياسمين يختفي فجأة في الرواق وهي تدخل غرفتها مسرعة ورحاب تتقدم نحوه لكنه كان متفاجئا من تصرف ياسمين فسأل رحاب : ـ ما بها ؟؟؟

وهو يشير نحو ياسمين المختفية فرفعت يداها وحاجبها ومطت شفتها السفلية إلى الأعلى مشيرة أنها لا تدري، لكن أمين لم يستطيع كظم غيظه وآثر الانصراف وإذا بباب غرفة

ياسمين يفتح فجأة وهي تنادي عليه فالتفت على أمل أنه قد فهم الموضوع خطأ لكنه صعق بمنظرها وهي تلبس نفس الحجاب ونفس الخمار اللذان اشتراهما لها أول أمس فاشتاط غضبا حتى كاد ينفجر الدم منه وقد بلغ الاحمرار أذنيه وسائر وجهه لتهدئه رحاب بسؤاله لياسمين : ـ إلى أين أنت ذاهبة ؟؟؟

فهدأ أمين وأثلج الدم في شرايينه وراح يترقب جوابها لكن جوابها سرعان ما أثار به بركانا ثائرا وهي تقول : ـ لست ذاهبة إلى أي مكان...

فاندهشت رحاب والتفتت إلى أمين الذي كان يحترق احتراق حبيب رأى حبيبته مع غيره بنفس الملابس التي اشتراها لها في آخر موعد جمع بينهما وبقى ينظر إلى ياسمين بعينين غير مصدقتين ولم ينبس بكلمة وقلبه يعتصر ألما فانسحب كما سحبت منه روحه فلحقته ياسمين تحاول تضميد جروحه وهي تقول بلعثمة : ـ هكذا سيكون أفضل لكلينا...

فالتفت إليها ورمقها بنظرة محتقنة وصعد لتكون آخر الكلمات التي سمعها منها : سأظل أختك إلى الأبد...

لتضع الملح على الجروح وتردف مرطبة : ـ وستظل أخي الأصغر...

فاعتصر وكأنها وضعت على جرحه السم وتركته يتعذب لاهي قتلته ولا هي من سمومها أعتقته.

تبعته رحاب تهدؤه لكنه دخل غرفته وأوصد الباب بقوة لتتبعها سلسة من الضربات ممزوجة بصراخه وأصوات تكسير وصوت ارتطام الأشياء على الأرض وظلت رحاب تطرق عليه الباب إلى أن هدأ أو أجهده التعب، وعندما عادت أمه لم تخبرها لا رحاب ولا ياسمين بما حدث وعندما طرقت عليه باب غرفته لم يفتح ولم يرد فظنت أنه نائم فتركته في حضن فراشه وهي لا تعلم أن ابنها في حضن السكاكين تقطعه أشلاء لتجمعه وتعيد تقطيعه

إلى قطع أصغر في كل مرة، لم يتحمل أمين هذا الألم فقرر أن ينسحب إلى الأبد وأن يسافر بلا رجعة وهو الذي من قبل رفض توسلات أمه بالسفر لإكمال دراسته في الخارج.

في الصباح الباكر عقبت كوثر على غرفته فهيء لها أنه في فراشه المبثوث فخرجت متجهة إلى عملها كالعادة وما إن فتحت الباب الخارجي حتى فوجئت بملاك على الباب يغط في نومه وهو ملفوف ببطانية زرقاء فاتحة فحملته وهي تلتفت علها تجد له أما أو أبا فلم تجد إلا الضباب الذي اكتسح الشوارع، فدخلت به وراحت تتفحصه عله ابن مريض لإحدى العائلات الفقيرة وقصدوا وضعه عند بابها لمعالجته لكن هيئته لم تكن تدل على الفقر لترجح أنه ابن لقيط لتتراجع وهي تقول في نفسها لو كان كذلك لوضعوه عند باب المسجد لا عند بابي وبينما هي تتفحصه وتفحصه سمعت حسيس ورقة فتتبعته حتى أخرجتها وكلها فضول لمعرفة هوية هذا الطفل وما إن فتحتها حتى لفتها الخط الأنيق رغم أنها كانت بحروف لاتينية وما إن شرعت بالقراءة حتى أسدل التجهم أشرعته على وجهها لأن ما قرأته كان أعظم الصدمات وأكبرها فقد كان هذا الطفل ابن طليقها أحمد الذي كان لسنوات من حياتها زوجها الحبيب الذي كانت متيقنة من أنه سيختار الموت على خيانتها لأنها كانت متأكدة أنه يحبها أكثر من حياته.

وما إن أنهت قراءة المكتوب حتى دوت منها صرخة وهي تنادي على ابنها الوحيد أمين فخرجت ياسمين ورحاب مهرولتان لتفاجآ بخالتهما قابعة أسفل الدرج وبحجرها طفل يبكي من صراخها، حاولت ياسمين تهدئتها وفهم الأمر لكن خالتها ظلت تنادي على أمين تماما كالمتهم الذي يرفض قول أي كلمة إلى أن يأتي محاميه فأمين صار بالنسبة لكوثر دليلا على أن الذي عاشته لم يكن كذبا ولو كان زوجها في السجن ذليلا.

بقيت ياسمين قرب خالتها وهرولت رحاب حافية القدمين تنادي على أمين فطرقت باب غرفته مرارا وتكرارا لكنه لم يفتح، ففتحته هي وقبل أن تمد يدها نحوه لتوقظه أدركت

أنه ليس موجودا في فراشه، فهمت بالخروج عائدة إلى خالتها التي مازالت تنادي لكنها لمحت ورقة على الطاولة فالتقطتها وفتحت طياتها لتجدها بخط أمين وهو يقول بأول ما كتب أمي الحبيبة فتوقفت عن إكمال قراءتها ونزلت بها مسرعة، وما إن أطلت رحاب عليهم والورقة بيدها حتى هدأت كوثر كما تهدأ العاصفة لكن هدوئها لم يكن إلا الهدوء الذي يسبق العاصفة، ناولتها رحاب الورقة وهي تعلمها أنها لم تجده ولم تجد غير هذه الورقة التي كانت حروفها جد مختصرة إلا أن كوثر أطالت في قراءتها وهي تتوقف عند كل حرف وتتجرع مرارة الظرف وقد كانت رسالة أمين بهاته الكلمات :

أمي الحبيبة لأنك أردت أن أكون طبيبا متفوقا قررت أن أنفذ مرادك وأذهب إلى حيث أردت أن أذهب لأكمل دراستي هناك وأحقق لك حلمك... وسأتصل بك حالما أصل أحبك أمي.

وهي التي كانت تظن أن عينيها لم تخلق لتذرف الدموع هذه الكلمات كانت كفيلة بأن تفجر ينبوعا من مقلتيها وهي تعانق الورقة كأنها تعانق ابنها وهي تنوح : ـ لقد رحل أمين وتركنا...

صدمت ياسمين ورحاب على حد سواء وسحبت ياسمين الورقة من أحضان خالتها وكأن نفس الحروف لا تعطيها نفس المعاني فلم تزدها إلا معاناة وزادت الورق تبللا بدموعها التي كانت كالشلال خصوصا وأنها تعلم أنها السبب في رحيل أمين فارتمت في حضن خالتها كأنها تشم رائحته العالقة في أحضانها وهي تبكي بحرقة أما رحاب فلم تستطع قدماها حملها من أثر الصدمة فجلست بمحاذاة خالتها وهي تتوجس كيف سيكون حالها بدونه.

مر الوقت بسرعة ولم تنتبه إحداهن لمروره كما لم تنتبه واحدة منهن لسفر أمين قبلا فلا كوثر تزحزحت من مكانها ولا ياسمين تذكرت عملها ولا رحاب انتبهت لتأخرها، وظلت ياسمين ورحاب تجلسان بجانب خالتهما والصمت جليسهن والسائد على مجلسهن والطفل

الصغير يتربع على حجر كوثر كالملك وهكذا هم الملوك إذا دخلوا قرية ملكوها، وفجأة رن هاتف ياسمين في الداخل لكنها لم تسمعه لو لا أن رحاب سمعته وهي ليست متأكدة من رنينه نهضت ياسمين لتتأكد بنفسها فوجدته يرن وكان الدكتور أمجد هو المتصل فردت عليه وهي تحبس دمعها وهو يسأل عن سبب تأخرها فأخبرته بما حدث لأنها تعلم أن الخالة كوثر مريضة والمريض لا يخفي عن طبيبه شيئا فطلب من ياسمين أن تهدأ وأن تعطيه خالتها، فامتثلت لطلبه وخرجت نحو خالتها التي كانت تجلس لوحدها والطفل لا يزال في حجرها وقبل أن تناولها الهاتف وتخبرها من المتصل كادت رحاب أن تصطدم بها وهي تهرول نحو الباب خارجة بعد أن انتبهت لتأخرها.

دخلت الخالة كوثر رفقة ياسمين العيادة وهي بحالة مأساوية وبيدها الطفل الذي تأكدت من شرعيته من الأوراق والوثائق التي كانت في الحقيبة الجلدية المرفقة معه فقد كان اسمه إسلام دانيال ولقبه عبد الغفور نفس اللقب الذي يحمله ابنها وأب ابنها، فجلست كوثر في قاعة الانتظار وهي تشعر أن كل المريضات يرمقنها بنظرات الشفقة فتسقط دمعاتها كأنها تشتكي لهن ما فعل بها رجل حياتها الذي بعد أن دمرها وضع هذا الطفل على ركامها ليبني حياته فوقها، وما هي إلا دقيقة أو نصفها حتى أتت ياسمين وهي في غاية الحزن تستأذن المريضات بدخول خالتها فلم تعترض واحدة منهن ففتحت لها ياسمين باب المكتب أين كان الدكتور أمجد واقفا ينتظر دخولها بفارغ الصبر ولو لم تدخل عليه لخرج إليها.

سحب الدكتور أمجد الطفل من بين ذراعيها وسلمه لياسمين لتخرجه معها لكن كوثر اعترضت و افتكته منه واحتضنته بين ذراعيها شدة وكأن الطفل يحضنها لا هي تحضنه، فخرجت ياسمين بذراعين خاويين أما الدكتور أمجد فقد فاجأته ردة فعلها وبقي ينظر إليها يحاول فك شفرتها لكنه عجز وبقي مشدوها بجرعة الحنان المتدفقة مع فيض دمعها، فسألها وهو يعلم الجواب لكنه كان يحاول إخراج مكبوتاتها بغير الدموع : ـ من هذا الطفل ؟؟؟

فنظرت إليه وكأنها أدركت للتو أنها تحمل بين ذراعيها طفلا فصمت لبرهة ثم ردت باكية :ـ أخ إبني أمين...

وعلا نشيجها وهي تشير له إلى الرسالتين المحاذيتين للحقيبة على الطاولة فأمسك الدكتور برسالة من بين رسالتين فكانت الرسالة المرفقة مع الطفل والتي كان فحواها ما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم أختي في الله كوثر أنا أم الطفل الذي بين يديك وأنا أستودعه في حفظ الله الذي لا تضيع ودائعه وأودعه أمانه في قلبك قبل يدك وهو ثمرة لزواجي بزوجك على سنة الله ورسوله منذ سنتين ونصف وقد أسميته على بركة الله إسلام دانيال وها أنا أهبك إياه وقد وهبني المولى الإسلام أعظم ثمرة وسأحافظ عليه في قلبي أما فلذة كبدي إسلام فانا أخاف أن يحيط به غير الإسلام دينا فاخترتك لتكوني أنت له نعم الأم وأمين نعم الأخ والأب، وسأعود إلى وطني تاركة إبني في وطنه وأنا أدرك أن حضنك سيكون له أحن وطن...

وفي الأخير لا أوصيك على إبني فهو من هذه اللحظة إبنك بل أوصيك على نفسك وأرجو أن تسامحيني في يوم من الأيام...

أختك في الله عائشة كرستين.

تفاجأ الدكتور أمجد واندهش بموقف هذه الأم التي ضحت بابنها ليعيش في حضن الإسلام وتحتضن هي إسلامها في قلبها في بلد المسلم فيه مجرم.

فتعاطف مع تضحيتها ووقف وقفة احترام وتقدير لشخصها واتجه نحو ابنها وهو يناديه باسمه :ـ إسلام...

وهو يلوح بيديه أن يأتي إليه فأعطته كوثر إياه وهي تبكي إبنها أمين وهي تقول :ـ لقد رحل وتركني لوحدي...

فنظر إليها وقلبه يئن لألمها ويكاد يدفعه لاحتضانها فمنعه لكنه أجبره بالبوح ببعض حبه فقال : ـ أنا معك...

ثم ابتسم وأردف وإبنك إسلام معك أيضا.

فابتسمت كوثر من بين دموعها ابتسامة كلها أمل وهي تنظر إلى الهبة التي وهبها الله إياها... أدار الدكتور الرسالة الثانية بطرف أصبعه نحوه وقرأها دون أن يرفعها ليس لأنه يحمل بين يديه الصغير إسلام وإنما ليخفف على كوثر وقع الصدمة الكبير وقال مستبشرا : ـ لا تقلقي سيرجع وهو طبيب كبير، وأردف عندما يتصل بك أعلميني بمكانه ورقمه ولا تشغلي بالك أو قلبك بغير إسلام...

وهو يبتسم له وإسلام يردها عليه ببراءة ساحرة جعلت كوثر تبتسم وهي تستبشر خيرا.

لكن الهجرة لم يتخذها غير أمين سبيلا فقد كانت السبيل الذي اختاره محمد أيضا وإن كانت الوجهة والطريقة ليست بواحدة فقد كانت بالنسبة له حلما لكن المال الذي كان يجنيه وما يعطيه له آدم ولو كان وفيرا لا يكفي لسد حاجياته المتزايدة من الحبوب التي تنوعت أشكالها وأسعارها، لكن هذا الأخير اغتنم وجوده في البيت لوحده في ذلك اليوم الأسود ليسطو على مال أخيه ويأخذ ما يكفيه لملء جيوب مهربين البشر بمبلغ وإن كان كبيرا فهو لا يضمن لا وصولهم ولا سلامتهم ولو بنسبة ضئيلة...

حان اليوم أو بالأحرى الليل الموعود فتوافد الكثيرون على نفس الموعد بين شباب وكهول، نساء وأطفال ومن بين النسوة كانت هناك امرأة حامل وأخرى تحمل رضيعها بين يديها، ظل محمد ينظر في عدم تصديق وهو ينتظر فقط الإشارة لركوب القارب الذي كان بحجم صغير مقابل الحشد الغفير وحلمهم الكبير، بعد حوالي ساعتين في الخوف والبرد والترقب أعطى القائد إشارات ضوئية جعلت الكل يقف تأهبا واستعدادا قبل أن يأمرهم بالصعود إلى القارب وسط حراسة مشددة وأعين يملؤها الخوف من أن يكشف أمرهم

فيقون في البر، ويخشاها الرعب من البحر الذي كان يلبس الأسود الحالك وأمواجه تنذر كل من ينوي ركوبها أنه بين مدها وجزرها سيكون لا محال هالك.

اكتظ القارب على آخره مع بقاء البعض خارجه وبالطبع محمد كان من الراكبين فقد كان شغوفا بما وراء البحار وإن لم يركب البحر يوما، تدخل القائد وحراسه وهم يصرخون ويعنفون الركاب فتدافعوا حتى تراصوا كالجسد الواحد، فأعطى القائد إشارة الانطلاق وأبحر بمن عليه والكل يودع قبور الموت هربا إلى قصور الحياة.

بعد حوالي ساعة من المد والجزر أصيب الكثير بدوار البحر إلى درجة أن البعض أفرغوا ما في بطونهم ولو كانت خاوية ليستفرغ البعض الآخر وقد أصابهم القرف، لكن سرعان ما نسي الكل وضعهم المزري بعد أن شخصت أبصارهم في الغيوم التي تكاثفت بفعل الرياح الهوجاء التي هيجت الأمواج فتعالت وكأنها تراقصه في سهرة لم يدعوا لها أحد إلا من أتى بدون دعوة، فغدا حلمهم وحشا لا مهرب منه إلا لحضنه فارتفعت أبصارهم وقد أبصرت بصائرهم فعادوا إلى ربهم يناجونه وهم الذين قنطوا من رحمته في البر ولا غير رحمته يطمعون وهم في عرض البحر.

وفجأة تعالت صرخات المرأة الحامل ليس لأن المخاض قد جاءها بل لأنها تتألم من اثر الضغط والتدافع وما هي إلا صرخة أخرى حتى انقطعت صرخاتها تماما، فساد صمت رهيب رهبة الموت الذي بدأ يخطف الحياة من على ظهر ركاب قارب الموت والكل من الحياة يود أن يقترب حاله حال كل الركاب، حاله حال زوج المرأة الحامل الذي لم يتحمل مسؤوليتها في الحياة لكنه بمجرد أن شعر منها الموت حملها ورماها خارج القارب.

تمنى محمد لو أنه لم يكن للساعة عقارب ليتوقف الزمن عند أي لحظة لدغته في صحراء الجفاء ليصنع من سمومها دواء، وشريط ذكرياته الأليمة أمام عينيه تماما كالواقع الموحش الذي يعيشه الآن وأكثر الصور المتكررة هي صورة رميه لثيابه المخضبة بدماء

ليست دمائه في عرض البحر لكنه اليوم قد رمى نفسه في بحر من دمائه أما صورة أمه فغدت واقعا أمامه وهي تناديه إلى حضنها وهو ينظر إليها نظرات تجيبها قائلة :

أنا قادم إليك يا أمي...

عل حضوري يستطيع أن يقول ما عجز عليه فمي...

أنا قادم إليك يا أمي...

لأحتضنك إلى الأبد ففي حضنك يتلاشى همي...

أنا قادم إليك يا أمي...

فمذ هجرتك هجرت الابتسامة فؤادي ومبسمي...

أنا قادم إليك يا أمي...

فقد غزتني الجروح حتى كادت أن تهجرني الروح وكأنك كنت بلسمي...

أنا قادم إليك يا أمي...

بجسدي المتهالك الذي تجري في شرايينه السموم بدلا من دمي...

أنا قادم إليك يا أمي...

وسأقبل قدميك لكي لا تصديني فأنت جنتي وبعدك جحيمي...

أنا قادم إليك يا أمي...

وإن هجرتك برا ولم أكن لك بارا فها هي أمواج البحر تنصفك وتسلمك روحي وجسمي...

أنا قادم إليك يا أمي...

ولا أبغي في رحيلي لا نعش ولا كفن ولا قبر إليك يزفني...

أنا قادم إليك يا أمي...

وقد آثرت البحر إليك سبيلي لعل أمواجه تغسلني فتطهرني من جرمي...

أنا قادم إليك يا أمي...

وأتوسل إليك لا تسأليني عن إخوتي فبسؤلك تتمزق أحشائي وكأنني بيدي أمزق حبل رحمي...

أنا قادم إليك يا أمي...

ولم أكن أنوي وضع حدا لحياتي وإنما الحياة شاءت أن يكون حضنك لحدي...

أنا قادم إليك يا أمي...

فقد أنهكتني الحياة ولا راحة لي إلا بالموت الذي أخذك مني وتركني أكابد سقمي...

أنا قادم إليك يا أمي...

فالممات بأبشع طريقة أحن علي من الحياة على قبر يتمي...

أنا قادم إليك يا أمي...

فأن يلتهمني القرش لقمة واحدة أهون علي من أن أموت ببطئ بين براثن ألمي...

أنا قادم إليك يا أمي...

فقد أكرمتني الحياة بما يكفي وحان للموت أن يحضى ببعض كرمي...

أنا قادم إليك يا أمي...

وليست الغربة هدفي فلطالما كنت غريبا في وطني مذ أنجبتني ومذ آخر حضن به طوقتني فحضنك وطني والعودة إليه حلمي...

أنا قادم إليك يا أمي...

وأتمنى أن تعرفيني فبرحيلك كانت الحياة تطعمني السموم وبالمقابل تنهش لحمي وتكسر عظمي...

أنا قادم إليك يا أمي...

قادم إليك بجهلي فأنت تعلمين أنني اخترت تجارب الحياة في سبيل علمي...

أنا قادم إليك يا أمي...

مستسلما كما لم تعهديني مسلما بالقضاء والقدر كما عهدتني مسلما كما عاهدتك وعلم الإسلام علمي...

أنا قادم إليك يا أمي...

أشكيك الظلام الذي سود ليلي ونهاري فأفل شمسي وحجب قمري وطمس نجمي...

أنا قادم إليك يا أمي...

ولا تابوت إليك يحملني غير قارب موتي وليس لي غيرك قربي...

أنا قادم إليك يا أمي...

وإن لم يكن الطريق المستقيم في دنياي سبيلي فدعواتك أن يغفر لي الغفار زلتي ويثبت على الصراط قدمي...

أنا قادم إليك يا أمي...

مناجيا الخالق الذي خلق أبانا آدم وأمنا حواء أن يجمعني بك وبأختاي وبأخي آدم وأن يرحمني ويجعل الجنة دار الخلد لنا فأنا عبده الذي أنستني قساوة الأرض أنني مخلوق آدمي...

أنا قادم إليك يا أمي...

وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله خاتمة كلمي...

وفجأة تعالى نواح وعويل امرأة أخرى تنعي وفاة ابنها متأثرا بالحمى لينتشر سواد الموت وشحوبه على الكل كمرض معدي فتاك، وما هي إلا لحظات حتى كاد البرق يخطف الأبصار وقصف الرعد يكاد يصم الآذان ومع هطول الأمطار أمطرت عيون الجميع بين صياح ونواح كأنهم يفاوضون البحر بإضافة أدمعهم إلى مائه لكن ملوحة دمعهم لم تكن إلا كالملح على الجرح فهاجت جروحهم بهيجان البحر وانقلب القارب بلمحة بصر ليدخل كل

واحد منهم في حرب مع البحر وهو أعزل فيصارع لآخر نفس لإنقاذ نفسه وشعار الواحد منهم نفسي نفسي.

****

رن هاتف الخالة كوثر وهي تطعم الصغير إسلام الذي أعطى لحياتهم وبالأخص كوثر طعما آخرا وبعدما كانت تشتكي بسببه ألم الخيانة أصبحت تحمد الله أن وهبه لها أمانة، فطلبت من رحاب أن ترد، فأسرعت نحوه مجيبة ليقول أمين على الخط محاولا إخفاء حزنه :

ـ ألحقتي بي حتى هنا...

وضحك بصوت مرتفع وربما بكى بكاء لو كان للدمع صوت لصم سامعه.

فابتسمت رحاب وهي تقول بدهشة وفرحة : ـ أميـــــــــــن...

فرد باقتضاب : ـ نعم أمين...

وقبل أن يكمل صبت عليه وابلا من عتاب لتختم في الأخير بـ : ـ كيف حالك ؟؟؟

فابتسم وقال : ـ لا بأس...

وصمت وكأنه يشكي لها ما يعانيه من بأس الذي بلغ به حد اليأس، ثم زفر وأردف : ـ الحمد لله وأنتم؟؟؟

وما إن شعرت الخالة كوثر بأن أمين على الخط نزعت الهاتف من أذنها وأمطرت عليه حمما من التوبيخات ولكنها سرعان ما خمدت وهو يطمئنها عن حاله وأحواله وما إن سألها يطمأن عن حالها بشرته بأخ له من أبيه واسمه إسلام دانيال فاندهش أمين إلى درجة أنه لم يستوعب ما قالته حتى أعادت عليه مجريات اليوم من بدايته إلى اللحظة التي تحدثه بها الآن وإسلام قبالتها رفقة رحاب، ورغم اندهاش أمين إلا أنه تظاهر بالفرحة فقط لأنه شعر بها في صوت أمه وقد صارت تربي إبنا لم تنجبه ربما يعوضها غياب ابنها الذي أنجبته ولم تربه.

في مساء الغد وفي نفس التوقيت أعاد أمين الاتصال وتزامن اتصاله مع وجود أمه في بيت عمته أين كان الكل محاط بالصغير إسلام يداعبونه ويقبلونه وسط حرس شديد من الخالة كوثر خوفا من أن يسقط ورحاب تحاول أن تساعده في خطواته الأولى، ففرحت كوثر باتصاله خصوصا وأنه أخبرها بأن العم أمجد قد اتصل به صباح هذا اليوم وأرسله إلى أصدقاء له في الجامعة الذين قاموا بدورهم بتسهيل كل الإجراءات وابتداء من الأسبوع القادم سيباشر دراسته في ظروف جد عادية لا بل جيدة، وسرد لها كل ما حدث معه بالتفصيل ليطمأن قلبها لكنه لم يكن يسمعها من الفوضى المحيطة بها فسألها : ـ ما هذه الفوضى التي في أسمعها ؟؟؟

فأجابته مبتسمة : ـ أنا في الأسفل مع الشباب...

فنبض قلبه نبض الحنين وكأنه فارقهم منذ سنين فقال : ـ وماذا يفعلون؟؟؟

فقالت ضاحكة : ـ يداعبون أخاك إسلام...

فصمت ولم يقل كلمة واحدة وفي خلده كلمات لا تقال وصداها يكاد يصل إلى مسامع أمه وهي تقول له : ـ لقد أخذ هذا الطفل أو بالأحرى أخاك مكانك ولم يحزن لفراقك أحد...

فحاول إسكاتها وإخفاء غيرته بطلب محادثة آدم الذي استلم الهاتف وهو يسلم ويقول ممازحا : ـ أهلا بالهارب العائد...

فابتسم أمين وهو يقول : ـ أهلا بك أخي...

واستطرد بنبرة يحشوها الشوق والحنين : ـ مهما هربت فلا مهرب لي إلا لحضنكم.

وبينما أمين وآدم يتبادلان أطراف الحديث كانت رحاب والخالة كوثر مندمجان كليا مع الصغير إسلام أما ياسمين فقد كانت موجودة ظاهريا فقط أما باطنها فقد كان يخفق إلى ما وراء الجبال والبحار قبل أن يقاطعهم آدم وهو يشير إليهم بالهاتف فقامت ياسمين نحوه بعفوية واستلمته فلم يشأ آدم أن يحرجها خوفا أن يجرحها فناولها الهاتف لكنها ما إن

وضعت السماعة على أذنها حتى انفرجت أساريرها وكاد قلبها أن يبوح بسرها ولكنه سرعان ما دفن سره وكاد أن يدفن نبضه أيضا وهي تسمع أمين يقول بصوت جلي : ـ مرحبا رحاب...

فظلت ياسمين صامتة وأنفاسها تخرج وكأنها مدفونة تحاول الخروج من قبرها ليعاود أمين دفنها وهو ينادي على رحاب من جديد ظنا منه أنها لا تسمعه وهو يقول : ـ ألو رحاب رحـــــاب هل تسمعيني ؟؟؟

فسلمت الهاتف إلى رحاب وانسحبت إلى غرفتها فانتبه أمين بأن التي كانت على الخط ياسمين وقد استنشق عبيرها وإن لم تعبر، فراح يسأل رحاب بلهفة عن حال ياسمين قبل أن يسألها على حالها فردت رحاب بغضب : ـ أنت تتحدث مع رحاب أما ياسمين فيمكنك التحدث معها بدلا عني إن شأت ولعلمك فقد كانت معك على الخط للتو...

فابتسم أمين وهو يقول : ـ شعرت بذلك...وكيف حال رحاب ؟؟؟

فاستلمته لترد عليه : ـ بخير الحمد لله ثم أردفت : ـ من يرحل بلا وداع لا يحق له أن يسأل عن حال الأوجاع...

قال أمين متذمرا منها : ـ لم نسأل فغضبت... سألنا فتدللت... ماذا نفعل كي نرضيك...

ليردف بنبرة تعتصر خيبة : ـ أنت الوحيدة التي تعرف سبب رحيلي وصدقيني قلبي لم يتحمل، وأن يحترق بنار البعد أهون من أن يكتوي بنار القرب.

فقاطعته رحاب بدلال زائد : ـ وأنت الوحيد الذي تعرف سري ألم تفكر للحظة أنك تركتني لوحدي...

ثم أضافت : ـ لا عليك و لا تقلق بشأني، وإن كان أحد يجدر بك أن تقلق عليه فهو ياسمين... فانتفض قلقا : ـ وما بها ياسمين؟؟؟

فضحكت رحاب وهي تقول : ـ ذكرنا القلب فكاد أن يتوقف...

فصرخ أمين بها : ـ رحـــــــــاب...

فابتلعت ضحكتها وقالت منتصبة : ـ هي بخير كنت أمزح معك فقط...

وأردفت : ـ يمكنك التحدث معها إن أردت...

فقال باقتضاب : ـ كلا، لا أريد...

وودعها بنبره حزينة وهو يوصيها بياسمين دون أن يقرأها السلام حتى، وياسمين في غرفتها في حرب مع نفسها وهي مقرفصة في فراشها وتنتظر بأعين مترقبة دخول رحاب وهي تقدم الهاتف نحوها، لكن رحاب دخلت بدون هاتف وهي تهتف باسمها وتتفقدها لأن الجميع افتقدها ولكنها كانت تنتظر أن يفتقدها واحد يغنيها عن الجميع وهو ليس من بينهم.

كبر الحب بين كوثر وأمجد وكان إسلام وكأنه ثمرة حبهما وقد تغلغل حبه في شرايين أمجد وكأنه من صلبه مع أن لم يره إلا مرة واحد وكانت تلك المرة الأخيرة التي رأى فيها كوثر، وكان هذا لصالحه فقد كان يتجنب لقائها إلى حين عودة أمين مع أنه كان يدرك أن أمين سيطيل الغياب إلا أنه فضل الانتظار، لأنه يعلم أن الطرق القصيرة نهايتها قصيرة أيضا على عكس الطرق الطويلة التي تدوم سعادتها طويلا.

كان لياسمين عمل كثير ومستعجل مما استدعى تأخرها وكذا تعبها، فاتصلت بخالتها كوثر تطلب منها أن تعرج عليها لأخذها معها هي وأختها رحاب، ولحسن حظ ياسمين أن خالتها كانت في الطريق ولم تصل البيت بعد، وماهي إلا دقائق حتى دخلت كوثر وهي تحمل على ذراعها إسلام فسلمت على الجميع وهي تتحاشى التقاء نظراتها مع أمجد الذي كان قلبه قبل بصره قد تعلق بإسلام وقالت مخاطبة ياسمين : ـ كنت أتصل بك لتخرجا إلي...

فاعتذرت ياسمين وهي منغمسة في عملها وقالت : ـ دقيقة وسأنتهي...

فطلب أمجد منها أن تتفضل بالجلوس، فجلست وراح هو ينادي على إسلام الذي هرول إليه وارتمى في حضنه، وكان الجو عائلي بالنسبة للجميع باستثناء رحاب التي أصبحت تشعر بنظرات الحب بين كوثر وأمجد وهي ترى الانسجام التام بينهما إلى درجة أنه لو رآهما غريب لظن أنهما زوج وزوجة وإسلام أبنهما وهذا ما كان يثير غيرتها حد الجنون، أما الصغير إسلام فقد كانت سعادته بهذا الحضن الحنون لا تسع قلبه الصغير وقد استغنت كوثر من أجله عن بعض أناقتها وتخلت عن حقيبتها لتحمله شمال ذراعها بدلا منها وقد حجز لنفسه المكان الأكبر بشمال صدرها.

اغتنم أمجد الفرصة لفتح موضوع عائلي فالتفت إلى ياسمين وهو يقول : ـ ياسمين أتذكرين المريض عادل...

فصمتت لبرهة ثم مطت شفتاها وقالت بتذمر: ـ نعم...ما به؟؟؟

فتفاجأ من ردة فعلها وقال متسائلا : ـ وأنت ما بك؟؟؟ وما بال ملامحك قد تغيرت ؟؟؟ وأردف : ـ هل ذايقك بشيء؟؟؟

فقالت بنفس التذمر: ـ لا أبدا، لكن وجوده في حد ذاته يضايقني...

فابتسم أمجد وهو ينظر إلى كوثر التي بادلته الابتسامة ثم أردف وهو يوجه نظره نحو ياسمين : ـ هو ليس مريضا وقد كان يفتعل المرض لزيارة العيادة لرؤيتك فقط وقد صارحني اليوم بذلك وقد تفاجأت كما تفاجأتي، وهو يريد خطبتك رسميا ويريدني أن أكون همزة وصل بينه وبين وليك أي أخاك آدم...

تفاجأت ياسمين وظلت صامتة فتدخلت كوثر تحاول تخفيف المفاجأة على ياسمين قائلة : ـ على ما يبدو هو شاب جيد...

فقاطعها أمجد مؤكدا : ـ أنا أعرفه جيدا وأؤكد أنه جيد بحكم معرفتي بوالده...

ثم صمت لبرهة وأردف مبتسما : ـ لكن ما لم أكن أعرفه أنه يحب ياسمين لهذه الدرجة...

فطأطأت ياسمين رأسها وظاهرها خجل وباطنها خيبة، أما رحاب فقد ظلت صامتة وقلبها بركان ثائر من الغيرة وهي لا تعلم أن الرجل الذي أحبته ما هو إلا بركان من الحب ولو أجبر أن يخمده لسنين فقد ثار فجأة، ليجد أمجد نفسه في نفس النقطة وهو يعيش نفس اللحظات التي جمعته في الماضي مع حبيبته وبحب أكبر في الحاضر، حب يكبر يوما بعد يوم وكأنه يكبر في يوم مقدار يم، لكن بكبر حبه كبر تأنيب ضميره فقد كان حبه كحصان جامح أطلقوا سراحه فهاج لكن صاحبه وإن أطلقه فقد حدد بالسياج مساحة حريته.

فوجد أمجد نفسه بين سهاد قلبه وبين جهاد نفسه، وكان مستعدا لأن يحترق بنار حبه للمرة الثانية على أن تنتصر نفسه، ففكر كثيرا في زواجها إلا أنه وجد الوقت غير مناسب من كل النواحي، فمن ناحية كوثر لم يمض على طلاقها إلا أيام قليلة رغم انفصالها عن زوجها منذ شهور عديدة، وهذا ما كان يراه منافيا لأخلاقه ويتزوج بامرأة حديثة الطلاق بينما كان الكل يعتقد أنه لن يتزوج بعد عمره هذا، ومن ناحية أخرى غياب أمين الذي كان أمجد يتوق لتعويضه لكن ليس قبل أن يصبح زوجا لأمه على سنة الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، أما الناحية المعتمة والحاجز الأكبر والعائق الأعظم فقد كانت رحاب، فلم يكن ليتقدم إلى الأمام خطوة دون أن يميطها عن موطأ قلبه بسلام ودون أن يؤذيها، فصار بين سيفين سيف الحرب الباردة وسيف الحب الساخن.

لاحظ آدم غياب العم منصور في صلاة الجمعة وهو يعلم مسبقا أنه مريض لكن مرضه كان يمنعه من أداء الصلوات الخمس في المسجد لا صلاة الجمعة التي كان يكابد لحضورها ولو اعتصره الألم، وبعد الصلاة مباشرة استبشر آدم خيرا وقرر زيارته في بيته للاطمئنان عليه من جهة ورؤية خطيبته قمر من جهة أخرى، فعرج على البيت وأخذ أختيه معه لكي لا ينحرج لكن بمجرد أن رأى العم منصور لم يجد داعيا للإحراج فقد كانت حالته جد حرجة لكنه ألح على عدم إعلامه، وقد امتثلتا لطلبه الذي لم يكن إلا لحاجة في نفسه

لأنها تفهمتا رغبته الأخيرة في أنه لا يريد لفظ أنفاسه الأخيرة في غير بيته، وهذا ما لم يتفهمه أو يحاول فهمه آدم الذي هم بحمله على جناح السرعة إلى المستشفى، فأمسك يده و أجلسه بجانبه ببطء وهو يقول بصوت متعب : ـ لا تتعب نفسك فلن أذهب لأي مكان وأقسم على ذلك...

فنظر إليه آدم وكأنه يقول : ـ وأنا أيضا لا أريدك أن تذهب لأي مكان وأريدك أن تبقى معي في هذا المكان...

واغرورقت عيناه وتلألأت بالدمع فوثب يمنع سقوطها وأخرج هاتفه واتصل بالخالة كوثر لتعطيه رقم إحدى الأطباء ليأتي به.

خرج الطبيب من الغرفة فتبعه آدم والقلق يكاد يقتله ليقتله الطبيب بالإيماءة برأسه وهو يشير بأنه لا أمل من حياته واعتذر منصرفا، فنزل دمع آدم فمسحه بسرعة كي لا تلاحظ اللتان تهرعان إليه تسألانه أن يطمئنهما دموعه، ولكنهما لم تصدقاه فدخلتا على العم ليطمئنا عليه بأنفسهما، وبقي هو في الرواق يحاول حبس دموعه لكنها كانت بريئة فأجبرته على إطلاق سراحها بدون محاكمة، فخرجت عليه قمر وهي غارقة في دموعها وكأنها تبكي لكذبه عليها وهي تدعوه للدخول لأن أباها يطلبه، فمسح دمعه وهو ينظر لدموع قمر وهو عاجز أمامها يتمنى لو أنه استطاع مسحها أو منع سقوطها، فدخل الغرفة وجلس بجانب العم أو بالأحرى الأب وأمسك يده وهو يضمها إلى صدره و هو يصارع حشرجة صدره ليقول له بعض الكلمات يوصيه بقرة عينيه ويوصيه بالقوارير حتى نام على أثر المهدئات والمسكنات.

حل الليل وكأنه على موعد مع هذه الليلة أن يلبسها حلة سوداء ليس بلونه وإنما بلون الحزن، وبحلوله اضطر آدم لأخذ أختيه والمغادرة، فخرج وهو يوصي خطيبته به ويلح عليها أن تتصل به في أي ساعة من الليل إذا استدعى الأمر ذلك.

بات آدم الليل وهو يبكي كليلة شتاء ماطرة بغزارة تذرف آخر مطر في فصلها ليبرق هاتفه مضيئا ويرعد صوته رنينا، لتصم قمر آذان آدم وهي تبكي وتشهق وتطلب منه الحضور بسرعة، وصل آدم بسرعة وكأنه لا يعلم أن لا أحد قبله سابق الموت وفاز بالسباق، فتحت قمر وهي تشبه القمر لحد بعيد في حزنه وألمه ودموعه فدخل آدم مسرعا وهو لا يدري أيواسيها أو يواسي نفسه، فوجد زوجته تمسك بيد العم منصور وهي تقرأ عليه آيات من الذكر الحكيم وكلها صبر وجلد، فتهاوى على طرف السرير وأمسك يده ثم وضعها على جبينه ثم قبلها كأنه يستبرك به، ففتح العم عينيه المجفلتين وهو يحاول الكلام لكن ثقل لسانه أبكمه لكن عيناه باحت بكل الكلام وبكل الآلام، فنهض آدم وقبل جبينه فاقشعر بدنه ببرودته فانتفض وأسرع يلقنه الشهادتين لتكون أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله آخر وأعظم كلمتين جمعت وفرقت بينهما وسط دموع قمر التي لم تتوقف للحظة، ودموع زوجة العم منصور التي لم تستطع أن تحبس للحظة أخرى بعد أن ارتمت في حضنه لتذوب فيه كقطعة جليد وتتبعه قبل مرور أربعينية وفاته لتكون له خليلة في الموت كما كانت في الحياة.

حزنت قمر على رحيل والديها وطلبت من آدم الذي لم يكن أقل حزنا منها تأجيل تاريخ زواجهما الذي عمد هذا الأخير لتعجيله لكي يكون سندا لها، لكنها لم تشأ أن يكون تاريخ دخول آدم إلى حياتها مقترنا بخروج والديها منه فلم يعترض آدم وترك لها حرية تحديد التاريخ وودعها لتسافر مع أبوها البيولوجي الذي كان أخ العم منصور رحمة الله عليه لعل حضن أبوها وزوجته التي طالما لم تشعر توأمها سحر بأنها تختلف عن باقي أبناءها وقد تزوج أبوهما بعد أن توفيت أمهما وهي تنجبهما فكان للعم منصور وزوجته إحدى التوأمين المسماة قمر وتزوج أبوهما بامرأة أخرى لتعوض سحر أمها فكانت لها أحن أم.

حتى هذا المصاب لم ينقص من عزيمة عادل الذي ظل يلح على آدم لتعجيل موعد الزفاف وياسمين لم تبدو على ملامحها وتصرفاتها علامات العروس بعد، وقد وافقت عليه بعد أن مدحه الكل وبالنسبة لها كل الرجال سواسية مادام الرجل الذي كان يصنع الاختلاف تركها ورحل وقطع أواصر المحبة والأخوة التي كانت تجمعهما ولم يتنازل عن كبريائه ويحدثها أو يسأل عنها حتى، لكن ما خفي عليها ليس سؤاله عنها في كل اتصال بل حبه الذي لم تره وهو معها في نفس الدار وهي تلومه بعد أن عبر البحار، إلا أن أمين كان يتابع كل أخبارها أو بالأحرى ما أخبروه به ولم يتعمدوا أن يخفوه، فأمه لم تكن تخبره بشيء لأنه مجبر أن يخبرها بما يحدث معه كل يوم وبالتفصيل ويكون هو المتكلم وهي المستمعة ولا يتبادلون الأدوار إلا في نهاية المكالمة وهي تلقنه بعض الوصايا، وتترك لرحاب شرف إخباره بكل المستجدات ولكن رحاب لم تتشرف بإخباره بنبأ زواج ياسمين وأخفت عليه الأمر وكلما سألها عنها وعن أخبارها طمأنته وهي تخفي الكثير.

وأمام الحاح عادل وانقطاع الأمل بالنسبة لياسمين بعودة أمين والذي وإن عاد فهناك أختها تنتظره وسعادة أختها هي سعادتها ولو أتيحت لها الفرصة بسرقتها منها لما فعلت فيستحيل على قلبها تذوق سعادة افتكها من قلب غيرها ولن يغير مبدأه ولو مات حزنا، اتفق الجميع على موعد الزفاف الذي سيكون بعد أسبوع وياسمين لم تعترض ولم تبدي موافقتها وهذا ما لم ينتبه له آدم وأول تصرفاتها أنها مجرد خجل عروس ليس إلا.

استيقظت كوثر مبكرة ليست كعادتها في أيام العطل ونزلت توقظ ياسمين ففتح آدم الباب وهو جاهز للخروج أيضا فمنذ خطوبة ياسمين وهو يبحث عن أخيه محمد ليزف أخته بصفته الأخ الأكبر لكنه لم يجد غير الخيبة والتعب وجرعة زائدة من الندم لعتابه على غيابه ليعاقبه في الأخير بالغياب الأبدي.

طلبت منه الخالة كوثر اصطحاب ياسمين لشراء بعض المستلزمات فوافق وهو يخرج إلى مهمته التي كانت تبدو شبه مستحيلة وكأنه يبحث عن إبرة في كومة قش، دخلت الخالة لتجد ياسمين مازالت نائمة ولا تريد أن تستيقظ فقد كان حماس العروس بداخلها نائم نوما عميقا وهي تتكاسل وتطلب من رحاب الذهاب مكانها، فلم تتمكن كوثر من عناد ياسمين لولا تدخل رحاب التي أيقظتها عنوة، فاستسلمت ونهضت متذمرة، ثم اقتربت الخالة كوثر من رحاب وراحت توشوش في أذنها وتخبرها بالمفاجئة المتمثلة في اختيار فستان الزفاف فابتسمت رحاب ابتسامة باهتة وقد أثر ذبول ياسمين فيها خصوصا وأنها لا تدري سببه وهي تدرك أن ذبول الورد لا يكون إلا بسبب ساقيه لكن ما لم تكن تدركه أن ساقي ياسمين هو نفسه أمين الذي لو علم بخبر زواجها لمات عطشا.

جهزت ياسمين نفسها ولبست نفس الملابس التي اعتادت لبسها منذ رحيل أمين وهي نفس الملابس الذي اشتراها لها منذ رحيله وكأن خزانتها لا تحمل غير هذه الملابس، فخرجتا وكوثر توصيها بإسلام النائم في غرفته، وبينما رحاب توضب البيت وتتفقد استيقاظ إسلام بين الفينة والأخرى تذكرت شيئا وهي في غرفة ياسمين فيما يخص ذلك اليوم الذي دخلت عليها فاربكتها كأنها تخفي شيئا مهما، فهرعت تبحث في كل مكان وبالأخص في خزانتها وهي لا تعلم عن ماذا تبحث بالتحديد، وبعد بحث كثيف اندهشت بوجود مذكرة لم ترها من قبل عند ياسمين لأنها كانت ملفوفة بين ملابسها وقبل أن تفتحها أدركت أنها نفس الشيء الذي خبأته ياسمين ذلك اليوم وهي نفس الشيء الذي تبحث عنه هي اليوم،فجلست على حافة السرير حيث كانت ياسمين تجلس وفتحت مذكراتها وكأنها هي أو كأنها خاصتها، وما إن بدأت بقراءة الصفحة الأولى حتى شهقت أنفاسها وتلألأت عيناها وتوردت وجنتاها من أول سطر وهي تقرأ ما خطته أختها بخط يدها و قد كتبت :

إلى حبيبي أمين...

فتعالت قهقهاتها فرحا وقرت عيناها حبا، ولم تسطع مواصلة قراءة الصفحة الأولى فقلبتها لتقرأ في الثانية : ـ إلى صغيري أمين... وفي الثالثة : ـ إلى قلبي أمين.... والرابعة والخامسة... فابرنشقت رحاب وأشرقت أساريرها بفرحة لا تضاهيها إلا فرحة باحث بوجود كنزه، لأنه يعلم أن الكنز إن ظل مدفونا فلا قيمة له، فراحت تقفز على سرير أختها والمذكرة بيدها، لكنها خرجت من الغرفة مسرعة بمجرد أن تذكرت إسلام النائم فوق والذي نسيت وجوده تماما في لحظة ما، فهرعت تتفقده وهي تحمل في يدها كنز ياسمين الثمين.

بعد الظهيرة عادت الخالة كوثر وياسمين فوجدت رحاب وإسلام في ردهة البيت يلعبان لعبة القط والفأر الصغير ولكن إسلام ما إن رأى أمه انسحب من اللعبة وفر إلى حضنها الكبير، أما ياسمين تركت كل المشتريات ودخلت خاوية اليد إلا من خاتم طوق بنصرها وحلمها، فراحت رحاب تبحث على المفاجئة التي لا يبدو أنها فاجأت ياسمين أو أفرحتها فأوقفتها الخالة قائلة : ـ لا تبحثي كثيرا فلم يعجبها أي فستان من الفساتين ولن تقبل أن تجرب ولا واحدا منها مع أنها كانت جميلة بل رائعة.

دخل آدم بعدهما متثاقل الخطى متهالك القوى وحذا حذو أخته ودخل غرفته وأوصد الباب وفتح صمام دموعه التي حبسها أمام صديق أخاه المزعوم وهو يؤكد له أن أخاه قد ركب قارب الموت وأن كل من كانوا على متنه قد ماتوا وابتلعهم البحر أو رماهم على إحدى شواطئه وهذا ما شاع بين تجار البشر آنذاك وألغوا كل الرحلات وقتها ليس خوفا على سلعتهم وإنما خوفا من أن يكشف أمرهم فتخسر تجارتهم ، أما خسارة آدم فقد كانت جسيمة وقد خسر أخاه مرتان مرة في صغره ومرة في كبره، لكن ما باله يشعر بأخيه وهو يمسك يده وفجأة اختفي محمد وتركه ساقطا على الأرض وقد استحالت صورته إلى سواد معتم.

فكان آدم في غرفته وكأنه في زنزانة مقرفة من تراكم الذكريات المتعفنة وهو شمعة مشتعلة تحترق لتضيء ظلمة من حولها لكنها ذابت وتكاد تنطفئ وهي تبكي فرقة الغوالي واحدا تلو الآخر، وبعد أن أعلمت رحاب ياسمين بحال أخيها أتت تطرق بابه وتناديه كأنها تريد أن تعطر ذكرياته بالياسمين لكنه ارتأى أن يجعل أختيه في منأى عن الحدث على الأقل إلى ما بعد زفاف الطارقة، فإن هو لم يتحمل فكيف لصغيرتيه أن تتحملا، ليس لأن محمد كان الحلقة الضائعة من سلسال الدم الملفوف حول نحرهم بل لأن محمد كان يسري به نفس الدم الذي استبيح على هذه الأرض المخضبة ونفس الدم الذي يسري في أوردتهم التي بالألم مشبعة، مع أنه اختار لدمائه أن تستباح في عرض البحر ويكون طعاما لسمك القرش أو يكون من بين الجثث التي لم يجد لها مكانا في بطنه فهشمها بوحشية وهو يراقصها فرحا بتقديم نفسها وجبة سائغة له ليرميها في الأخير بعد أن نال منه التعب وهو على موعد مع غنائم تهب نفسها له كل ليلة.

ظل آدم معتكفا في غرفته وياسمين ورحاب قلقتان عليه ووصل بهما القلق لاستدعاء الخالة كوثر عله يرضخ لمكانتها ويفتح لهن الباب، لكنها ظلت تطرق وتطرق ولا أحد رد، لأن آدم لم تخنه قواه فحسب بل خانته حتى كلماته وهو يدرك أن ملامحه ستكون كفيلة بنعي أخيه الذي حرمه حتى من أن يواري سوءته، وظلت كوثر واقفة على أعتاب الباب الموصد تنتظر أن يفتح إلى أن رن هاتفها وكان أمين المتصل كدأبه في نفس الوقت فتراجعت تكلمه وبعد أن اطمأن على الجميع باستثناء آدم الذي تعمدت الخالة أن تفتح معه مواضيع ليس من عادتها أن تتحدث معه فيها لتخفي القلق الذي انتابها حيال حالته فراحت تحدثه عن المستجدات السعيدة وهي تقول بعفوية : ـ ذهبنا اليوم لاختيار فستان الزفاف لكن للأسف لم يعجبها أي واحد...

فاندهش أمين وقال متعجبا : ـ فستان الزفاف... زفاف من؟؟؟

فردت أمه ببرود : ـ زفاف ياسمين...

وراحت تواصل حديثها لكن هذه الكلمة كانت كعيار ناري أصابت القلب فانفجر دما أو بالأحرى ياسمينا فقلب أمين ليس فيه غير الياسمين فاختنقت أنفاسه ودمعت عيناه لكن أمه لم تلحظ شيئا كعادتها وآخر ما قالت أو آخر ما سمع أمين مبتسمة : ـ لم يبق على الزفاف سوى أسبوع...

احتقن أمين حد الاختناق، واختنق حد الاحتراق، وجحظت عيناه حتى كادت تخرج محجريها وهو يشد عليهما بجفنيه، واستجمع قواه وهو يشد على قبضته وقد اشتد انقباض عضلة قلبه المجروح وقال بصوت من الغصة مبحوح : ـ أعطني رحاب...

فامتثلت كوثر وأعطت الهاتف لرحاب التي كانت لا تزال تترقب مع ياسمين أن يفتح لهما أخوهما البيت لكن رحاب سرعان ما امتلأت عيناها بالدموع لاهي سقطت ولا هي ثبتت وقد أمطر عليها أمين بوابل من العبارات و العبرات وهو يقول باكيا بكاء حبيب لم يكتب لحبه الحياة، كبكاء أم أنجبت طفلها وقبل أن تسمع له صرخة فارقها وفارق الحياة : ـ قد أسامح ياسمين لكنني لن أسامحك ماحييت... ولو خانني الجميع لما تألمت كما أتألم لخيانتك...

وظل أمين يجرمها بجرم الخيانة وهو ضحيتها فلم تقاطعه وهو يقطع أشلائها إلى أن صمت وهدأ إلا من شهقاته ثم قالت منفعلة : ـ أنا لم أخنك ولن أخنك ما حييت...

أتدري لما لم أخبرك بزواج ياسمين لأنني الوحيدة التي تدري أن هذا الخبر سيؤلمك فإن كان خوفي على مشاعرك خيانة... فأنا خائنة...

واستطردت باكية : ـ ماذا تريدني أن أفعل؟؟؟ تريد أن أخبر ياسمين مثلا أو أن أخبر آدم أم تريدني أن أخبر أمك... قل لي فقط وسأفعل ما تريد لكن اعلم شيئا واحدا فقط أنت وحدك

من حكمت على حبك بالإعدام فلا تقتله وتبكيه حزنا، و إن سلمته للغير فسيدعوا لك الغير بالخير...

أما إذا أردت له الحياة فالوقت مازال مبكرا، بشرط أن تستيقظ وتبحث عن الأسباب وبح به ولا تهتم إن مات أو عاش، وإن لم تكتب له الحياة فعلى الأقل لن يدفن حيا بيديك...

وأتمنى لحبك أن ينبض بالحياة يوما ما وأتمنى يومها أن تدرك أنني لم أخنك...

فقال أمين بنبرة هادئة وحزينة : ـ أعتذر...

وساد بينهما صمت إلا من دموعهما التي لم تستطع أن تصمد، وقال أمين وقد شعر بحدة الخنجر الذي ضرب به رحاب : ـ سامحيني لقد انهرت كليا ولم أزن كلامي فلا تزيدي آلامي بتألمك... فردت بتفهم : ـ لا عليك تعودنا على الألم، لكن أرجوك لا تكن سببا في ألم قلبك و ألم من تحب ومن يحبونك، وبقدر الألم الذي أعانيه والذي عانيته والذي سأعانيه أتمنى ألا تتألم يوما، فأنت أخي الحبيب الذي ليس لي غيره طبيب...

فرد عليها أمين : ـ وأنت أختي التوأم التي لم يجمعني بها حبل سري، لكنها توأم روحي وبئر سري ومنبع الحنان العائلي والأسري...

ثم صمت لبرهة كأنه يفكر في أمر ما ثم أردف : سأفاجئكم بمجيئي كما فاجأتكم برحيلي..

فكانت رحاب لقوله مصححة : ـ أنت لم ترحل، أنت انسحبت، أنت هربت، أنت تنازلت...

فقاطعها أمين : ـ بالله عليك يا رحاب لقد دفعت الثمن غاليا فلا تدفعيني مالا ثمن لدي عليه فقالت رحاب : ـ لديك ما هو أثمن، لديك حب ياسمين إن كنت تعتبره ثمينا، والحب لا يسمى حبا إن كان دفينا...

أغلقت رحاب الخط وعادت إلى عزلتها في معزل عن الجميع باستثناء إسلام الذي استطاع أن يسرقها من وحدتها، واستطاع رسم الابتسامة على وجنتاها، ولم تعد تحضر

مجالسهم إلا بعد إلحاح آدم الذي رجح حالة اكتئابها إلى رحيل أمين الذي هي واقعة في غرامه، ولا يدري أن أخته وقعت في غرام الشخص الخطأ ستدفع عليه غرامة غالية وإن لم تنسحب مخيرة فستغرم مرغمة.

جهزت ياسمين العشاء ونادت رحاب وراحت تنادي آدم وهي تشك في أنه سيجيب لندائها وما إن طرقت الباب حتى فتحه وهو يفرك عينيه ليوهمها أنه كان نائما واعتذر عن العشاء بحجة أنه متعب ويريد فقط أن ينام فقلقت ياسمين لحاله ومدت يدها إلى جبينه تتحسس حرارته فطمأنها قائلا : ـ لا تقلقي أنا متعب فقط ولست مريضا...

ثم ابتسم بقهر وقال : ـ ليتني كنت مريضا فلمسة من يدك تشفيني...

وطبع قبلة على جبينها وتركها تذهب مطمئنة القلب مشغولة البال.

جلس الأربعة على مائدة العشاء فانشغلت كوثر بإطعام الشمعة التي أضاءت حياتها وإسلام يشدو بكلمة أمي ولا يقصد بها غيرها، وقد كانت أهلا لها بكل المقاييس مع تدارك ما غفلت عنه فيما مضى، أما ياسمين ورحاب فكانتا منتصبتان على الكرسي كشمعتان على الشمعدان وهما أقرب منهما للإنطفاء ورغم هذا فحالهما كان أفضل من حالة الشمعة التي كانت في الغرفة تبكي على الشمعة التي انطفأت ولكن بكاءها عليها لم يكن ليرجع النور لأختها فكانت كشمعة تحترق لتضيء غرفة ضرير، وفجأة ارتفع صراخ آدم وهو يتوجع ألما من جرح ظن أنه التئم، ولكن مجرد اتصال هاتفي كان كفيلا أن يوقظ مواجعه، كان المتصل والد عادل أو بالأحرى العريس المزعوم، فوثبت ياسمين ورحاب وهرولت نحو الغرفة والخالة تتبعهما وهي تحمل إسلام في ذراعها، فطرقتا عليه الباب بشدة فهدأ آدم وأقفل الخط لكي لا تسمع أختيه بما سيرد، وفتح الباب محتقنا وخرج دون أن تخرج من حلقه كلمة وترك النسوة يلتحفن الخوف والقلق، وما هي إلا دقائق معدودة حتى دخل عليهن واتخذ لنفسه

مجلسا بالقرب من ياسمين وأمسك يدها وكأنه يشعرها بالأمان وقال بصوت يملؤه الحنان :

ـ أريد أن أخبرك أمرا...

فقالت بتوجس : ـ أنا أسمعك خيرا إن شاء الله...

فرد مؤكدا : ـ هو خير بإذن الله...

واستطرد وهو يتابع تغيرات ملامحها والخالة ورحاب تتابعان ما يقول بقلق : ـ اتصل بي والد خطيبك قبل قليل...

ثم صمت قليلا وشد قبضته على يد أخته وأردف : ـ وقد ألغى زواجكما...

فأزهرت وأنارت ياسمين بابتسامة لم تستطع كبحها وتلألأت وقرت عيناها بالدموع ولم تستطع حبسها، وارتمت في حضن أخيها واحتضنته بنفس القوة التي كان يحتضن بها يدها للتو، فتفاجأ آدم ودفعها عنه بقوة ونظر في وجهها المشرق نظرة محتقنة وشدها من كتفيها وهزها صارخا بها : ـ إن لم تكوني تريدينه فكيف ولماذا قبلت به؟؟؟

فطأطأت رأسها لكن شمسها أبت أن تأفل وقالت بخجل : ـ لا أدري...

فرمقها آدم بنظرات يملؤها الحب والرضا وجذبها نحو حضنه وطوقها بذراعيها، فانفجرت باكية بكاء المحكوم عليه بالإعدام الذي ثبتت براءته في آخر لحظة بعد أن لف الحبل حول عنقه، ففرح الكل لفرح ياسمين خصوصا رحاب التي كانت فرحتها فرحتان فرحة لياسمين وفرحة لأمين،

ولحسن حظ آدم أنه لا ياسمين ولا رحاب سألت عن السبب مادام النتيجة فيها سعادة لياسمين وأمين على حد سواء، ولكن الخالة كوثر بالرغم من سعادتها بالنتيجة إلا أن الأسباب كانت محل اهتمامها، فسألت آدم عن سبب إلغاء الزواج خصوصا وأنها تعلم أن ذلك الشاب ظل لشهور وهو يتعقبها بحجة أنه مريض حتى أصبح بحبها مريض ولكن أبوه أثار أن يعيش إبنه بقلب سليم وهذا بالنسبة له القرار السليم، فتجاهل آدم سؤالها

ووجه حديثه إلى ياسمين ورحاب وهو يطلب منهما أن تحضرا الشاي أو القهوة احتفالا بالخبر وما إن خرجتا حتى التفت إلى خالته معتذرا وراح يجيبها عن سؤالها قائلا : ـ لقد ألغي الزواج من طرف أب الشاب بعد أن أدرك أن نسبنا لا يشرفه...

فصمتت كوثر ولم تجد ما تقول وكأنها تشاركه الرأي وبالفعل كان رأيها من رأيه وهي تقول في نفسها: ـ معه حق ولو أن أمين تقدم لخطبة رحاب أو حتى ياسمين لما قبلت...

وكأنها نسيت هوية أب أمين وأين هو في الوقت الحالي، فإن كان أب ياسمين ورحاب قاتل فعلى الأقل هو في مصحة الأمراض العقلية مغيب العقل على عكس زوجها وأب إبنها المسجون الذي ارتكب جرائمه وهو بكامل قواه العقلية وكان سببا في غياب عقول الكثيرين وإن غاب العقل صار الإنسان مجرم في حق نفسه وغيره وهذا ما غفلت أو تغافلت عنه كوثر فإن اعتبرت منذر مجرم بجريمة القتل فجريمة قتل العقل أبشع جريمة، أما كوثر فقد كانت تدرك كل هذا ورغم علمها وثقافتها إلا أنها لم تكن تختلف عن بعض الأمهات التي يخيرن لأبنائهن بنات الحلال وهي تعلم أن إبنها غارق في الحرام بحجة أنه إذا تزوج سيعقل وكأن الزواج هو عملية زراعة عقل ليزرع في عقل زوجته المشاكل حد الجنون.

لكن كوثر كانت متيقنة من عقل ابنها ورجاحته وأنه سيحسن الاختيار وظلت صامتة ولكن آدم قال الكثير وهو يواصل ما لم تسمعه وهو يقول : ـ ليس الفتى من يقول كان أبي، إن الفتى من يقول ها أنا ذا...

فالنسب لا يورث بل يصنع وإن صنعت الظروف من أبي قاتلا فسأقاتل الظروف لأصنع المجد لي ولأختاي، ولن أنتظر من زوجيهما أن يمجدانهما ولن أسمح لابن آدم أن يستصغرهما، فالصغير من استصغر غيره مهما كبر شأنه.

طأطأت كوثر رأسها وكأن آدم يوجه كلامه لها بعد أن سمع ما كان يدور في خلدها فاستصغرت نفسها بصغر فكرها وأرائها.

دخلتا ياسمين ورحاب بالشاي والحلوى فقال آدم منهيا الموضوع : ـ لم يخطأ نزار قباني عندما قال أن الحب خلق للأقوياء أما الجبناء فتزوجهم أمهاتهم...

وضحك ضحكة مفتعلة ليفتعل الابتسامة على ثغر أختيه أما كوثر فابتسمت ابتسامة استياء وازدراء رداءة فكرها الذي لا أشك في أنها ستبقى متمسكة به بعدما سمعته من آدم، انقضى اليوم الذي كان حافلا بالنسبة للجميع وهذا ما انعكس على رحاب التي قررت الاعتراف بحبها والمحاربة من أجله وهي لا تعلم أنها في حرب ضد نفسها أما الرجل الذي تحبه فقد كان يعيش ربيع عمره في ظل إزهار ورود حبه، وقضت الليل وهي تنتظر بزوغ الفجر وهي تحسب الوقت بالثانية والدقيقة لتصارحه بالحقيقة التي كان يعرفها تمام المعرفة ويحاول تغييرها بأية طريقة.

****

دخلت عليه رحاب المكتب متحججة بدفاترها كالعادة لكن نظراتها كانت مدججة أكثر من العادة فرحب بها الدكتور أما ياسمين فهمت بالانصراف لتحديد بعض المواعيد العالقة فطلب منها الدكتور أمجد البقاء تجنبا لبقائه وحده مع أختها ليس خوفا عليها منه وإنما خوفا عليها من نفسها، فارتبكت رحاب وما إن همت ياسمين بالجلوس حتى رن الهاتف الخارجي فاضطرت ياسمين للخروج، فتنفست رحاب الصعداء فطلب أمجد من رحاب إخراج دفاترها قبل أن تقدم على فعل شيء فقالت وهي تمعن النظر فيه : ـ حبي ليس مكتوب في الدفاتر بل هو بين جدران القلب مكبوت...

اندهش أمجد من قولها الذي دق ناقوس الخطر في قلبه حتى تسارعت دقاته، ولم يستطع قول كلمة فواصلت رحاب كلامها موضحة : ـ أنا أحبك أمجد...

فحدجها بنظرات ممزوجة بالشفقة والحنان ثم قال دون تفكير فعقله كان عاجزا تماما : ـ وأنا أيضا أحبك صغيرتي...

فنظرت إليه نظرات المنتصرة لكنه كان انتصار مؤقت بعد أن استدرك أمجد واستطرد حديثه : ـ تماما كما أحب أختك ياسمين...

فقاطعته وقد انكسرت نظراتها : ـ لا تكمل وكفاك تجاهلا لمشاعري فأنا لست صغيرة...

وانفجرت باكية حاول الدكتور السيطرة على الوضع لكن خبرته خانته فارتبك خوفا من جرح مشاعرها أكثر مما جرحتها بخنجرها ولكنه وجد نفسه في صمت مطبق إلا من شهقات رحاب التي كانت تمزق نياطه وطرقات أنامله على سطح المكتب وسط قلق وتوتر شديدين ثم قال مهدئا إياها : ـ أنت تحبيني حقيقة، لكن حقيقة حبك لي لا يتعدى حب الابنة لأبيها الذي فقدت حبه وهي تبحث عنه في حضن كل رجل تراه فيه...

فقاطعته رحاب مرة أخرى ولم تزدها كلماته إلا غضبا وقالت باحتقان وهي تصرخ باكية : ـ ومن قال لك أنني أحب أبي ؟؟؟ أنا أكرهه أكرهه أكرهه...

حاول أمجد تهدءتها من جديد لكن الوضع قد خرج عن السيطرة والأحوال تنبؤ بعاصفة هوجاء، فقال بصوته الرخيم وبنبرة هادئة : ـ حبك لي خطأ كبير وستدركين ذلك...

فقاطعته مرة أخرى وربما الأخيرة وهي تصرخ بهستيريا : ـ أنا لست خطأ... لست خطأ...

وخرجت مهرولة واصطدمت بذراع أختها حتى كادت توقعها وقد كانت تهم بالدخول على أثر صراخها، وبقيت ياسمين مدهوشة من حالة أختها التي لا تعلم ما الذي حدث لها ومن ماذا وإلى أين هي هاربة؟؟؟

ومن حالة الدكتور الذي كان يشد رأسه وكأنه سينفجر فسألته ياسمين بلعثمة مرتجفة : ـ ماذا يجري ؟؟؟

فطلب منها أن تلحق بأختها، فهرولت ياسمين خلفها مسرعة تاركة الدكتور في متاهته وكأنه يعاني كل إضطرابات مرضاه وقد عجز عن تهدئة نفسية مراهقة وهو الذي أفنى عمره في طب النفس.

وصلت ياسمين البيت مسرعة فدخلت مستعجلة وهي تنادي على أختها وقد اشتدت لعثمتها وتسارعت نبضات قلبها، وراحت تبحث عنها في الغرف مرورا بالمطبخ فلم تجدها، فتهاوت على الأريكة وأخرجت هاتفها تطلبها وما هي إلا ثوان حتى سمعت رنين الهاتف آت من المطبخ، فتفاجأت وهرولت نحوه ظنا منها أنها نسيته ولكنها سرعان ما صمت مسامعها بالصوت الغريب الذي يشبه صوت خروف لم يذبح جيدا، فاقشعر جسدها وشلت حركتها وانقبض قلبها، ولكنها استجمعت قواها وتقدمت إلى الأمام بخطى مرتجفة وهي تتمنى أن ترجعها إلى الخلف قبل أن يتراءى لها ما خلف المائدة، ففزعت ياسمين برؤية أرجل تهتز اهتزازا يثير الرعب لكن ما زاد رعبها هو أن تلك الأرجل كانت تنتعل نفس حذاء أختها، وما ذلك الجسد الذي كان يتخبط احتضارا إلا جسد أختها، فارتجف جسد ياسمين وصرخت بقوة ثم جثت على أختها خائرة القوى وقلبت جسدها وكأنها تريد أن ترى غير وجه أختها، لكن الذي رأته لم يكن إلا وجه أختها لكنه بملامح بشعة طمست منه كل ملامح الحياة وكل أثر الجمال والزبد الخارج من فمها يغطي بعضه، فجحظت عينا ياسمين جحوظ عيني أختها اللتان كانت توشك على الخروج من محجريهما قبل خروج روحها، فصدمت ياسمين صدمة جعلتها تدخل في موجة صراخ عنيفة لتغرق بعدها في دوامة قيء كادت تفقدها الوعي.

نزلت كوثر مسرعة وقد صم مسامعها صراخ ياسمين الذي توقف فجأة لتفاجأ بجسد رحاب الذي لم يكن يختلف عن الجثة إلا بالإهتزازات والذبذبات التي كانت تحركه والزبد الذي كان يخرج بغزارة، فشهقت كوثر شهقة كادت تفجر رئتيها وهي لا تدري ما الذي يحدث وما الذي ستفعله قبل أن تتوضح لها الأحداث برؤية علبة سم الفئران مرمية وبعض محتواها على الأرض، فانحنت بسرعة نحو عنقها تتحسس نبضها وياسمين تتوسل الله ألا تكون قد ماتت، حملت الخالة وياسمين رحاب إلى السيارة بصعوبة وانطلقت كوثر

نحو المستشفى بسرعة وتركت إسلام نائم أو بالأحرى نسيته، تمالكت ياسمين نفسها وهي تمسح على رأس أختها المستند على كتفها قبل أن تسمع همسات منها وهي تقول : ـ أنا لست خطأ... أنا لست خطأ...

فحاولت ياسمين أن تصحح بعض خطأ أختها وهي تتوسل إليها أن تستغفر الله، لكن رحاب أبت وأعرضت ولم يسمع لها غير تلك الكلمات المتكررة، وما إن سمعتها كوثر حتى طار فكرها إلى ذلك اليوم الذي اعترفت لها المرحومة مريم ببعض أسرارها ومن بينها أن قدوم رحاب إلى الحياة لم يكن إلا خطأ فأدركت بعد أن تأكدت شكوكها أن رحاب قد سمعت كل ما قالته أمها، فزادت كوثر السرعة مع أنها كانت تقود بسرعة جنونية، أما ياسمين فظلت تلح وتتوسل لها أن تستغفر الله وهي تقبل جبينها حينا وتمسح العرق عنه حينا آخر، لكنها لم تسمع لصوت استغفارها صدى وكأن قلب أختها قد غدا صخرة فجأة، لكن المسكينة رحاب كانت تظن أنها باستغفارها ستعود إلى الحياة وهكذا سيفشل مخططها بإصلاح الخطأ الذي ارتكبته أمها، ازدادت رجفة رحاب فلم تتمالك ياسمين نفسها فعادت إلى نوبة الصراخ باسم أختها رحاب وكأنها بصراخها ستنقضها فزادت كوثر السرعة لتبلغ أقصاها وهي ترتعش، وفجأة سكنت رحاب فهدأت ياسمين وهي تتحسس نبضها لتسمع همس رحاب من جديد وبكلام جديد أيضا وهي تقول سامحني أمين... وكأنها تذكرت للتو أنها خانت الوعد الذي قطعت له وهي لا تدرك أنها خانت عهد ربها ومن يخلف عهد أمين يخلف عهد رب أمين، لتعاود رحاب إرتجافتها وترنحها وبقوة أكبر ثم سكنت فجأة، فأطلقت ياسمين صرخة مدوية جعلت كوثر تفقد السيطرة على السيارة فخرجت عن المسار واصطدمت بالجدار الذي لولاه لما توقفت إلا بعد أن تحصد أرواحا كثيرة، فضربت كوثر رأسها بالمقود وفقدت الوعي، أما ياسمين فاحتضنت جثة أختها الباردة بقوة وكأنها تريد أن تحميها من الموت الذي يسكنها وقد اختارته سكنا لروحها وهي لا تدرك أن الموت قد يكون

سكون وراحة، ولا تدرك أن الانتحار مستحيل أن يكون كذلك، إلا إذا تغمدهم الرحيم برحمة منه وهو أرحم بعبده من نفسه ومن أمه وأبيه.

احتشد الناس حولهم محاولين نجدتهم وأخرجوا كوثر بصعوبة ووضعوها على حافة الطريق ومن ثم هرعوا إلى إخراج البقية فاستصعب عليهم الأمر لأن ياسمين كانت تتشبث في جثة أختها وهي تصرخ باسمها محاولة إيقاظها، ولما يئسو من أنها ستفلتها أخرجوها بالقوة فخرجت فتاتين لا واحدة، حاولوا نزعها من أحضانها لإبعادها عن السيارة التي كانت توشك على الإنفجار لكنهم فشلوا فسحبوهما معا قبل أن تنفجر السيارة وكأنها قنبلة موقوتة.

فتح آدم الباب الخارجي وقبل أن يدخل هيج مسامعه صوت بكاء إسلام الذي لم يسمعه بهذا الشكل من قبل، فانتابه إحساس بأن أمرا ما يحدث، فكوثر لا تترك إسلام يبكي بهذه الطريقة أبدا فصعد بسرعة وهو ينادي على خالته لكنه اكتشف أنها ليست موجودة ففتح غرفة إسلام فوجده غارقا في بركة دموعه خلف الباب، فانحنى نحوه ومسح دموعه وحمله على ذراعه ونزل به إلى أختيه اللتان استغرب عدم سماعهما لبكائه.

فدخل وهو ينادي على أختيه وهو يقول : ـ ياسميـــــن... رحـــــاب...

إسلام يناديكما أين أنتما؟؟؟

لكن لا واحدة منهما ردت عليه لم ترد عليه قبل أن ينتبه إلى الصمت الرهيب الذي كان يخيم على البيت فدب القلق فيه، فاتصل بياسمين فسمع هاتفها يرن في غرفة الضيوف فانقبض قلبه واتصل برحاب فسمع رنينه في المطبخ هو الآخر، فتسارعت نبضات قلبه سرعة عداء يوشك على الوصول إلى نقطة النهاية وهو لا يدرك أن إحدى أختيه قد وضعت لحياتها نهاية، فأخذ يستغفر الله ليقرر في الأخير الاتصال بخالته فسمعه يرن فخاف أن يكون هو أيضا في الأعلى فصعد يتحسس الصوت وقبل أن يصل وصله صوت على الخط ليخترق

صوته شغاف القلب قبل السمع والممرض يخبره بأن عائلته في المستشفى بعد تعرضهم لحادث مرور وأعطاه العنوان وهو يعزيه في مصابه الجلل، فارتعب آدم وارتبك خوفا وحمل إسلام وانطلق مسرعا بسيارته ولم يتوقف فكره إلا بسيارة خالته على الرصيف وهي محترقة بالكامل ولم يبق إلا هيكلها وحشد من رجال الإطفاء والناس حولها، فاحترق قلبه بنار لا يطفؤها إلا رؤية أختيه بخير.

في غضون دقائق وصل آدم ودخل المستشفى وهو يحمل إسلام في يده وتوجه مهرولا إلى خدمة الاستعجالات وهو لا يدري اسم من يعطيهم ولا يدري من المصاب وما المصاب الذي أصابهم وما إن لمح للحادث وقبل أن يكمل ساعدته الممرضة ووجهته إلى آخر الرواق، وما إن ظهر آدم أوله حتى هرولت كوثر نحوه تاركة ياسمين التي كانت تحتضنها بحضن الأم لا الخالة، فتفاجأ آدم بها وهي مضمدة الرأس فسلمها إسلام وهرول نحو ياسمين التي استحالت إلى ورقة خريف صفراء باهت لونها فجثي على ركبتيه وهو يسألها عن رحاب التي لم ير لها أثرا فلم يجد جوابا لا من ياسمين ولا من خالته، فكرر السؤال مرة ومرتين فثلاثا وأربعا وهو يرفع صوته بالتدريج حتى تحول إلى صراخ ولم يسكته إلا خروج الطبيب الذي هرول نحوه لعله يجيبه عن سؤاله لكنه لم يستطع التلفظ بكلمة فاختصر الطبيب عليه الطريق ونزع الكمامة عن فمه وقال باقتضاب : ـ البقاء لله إن لله وإن إليه راجعون... وانصرف.

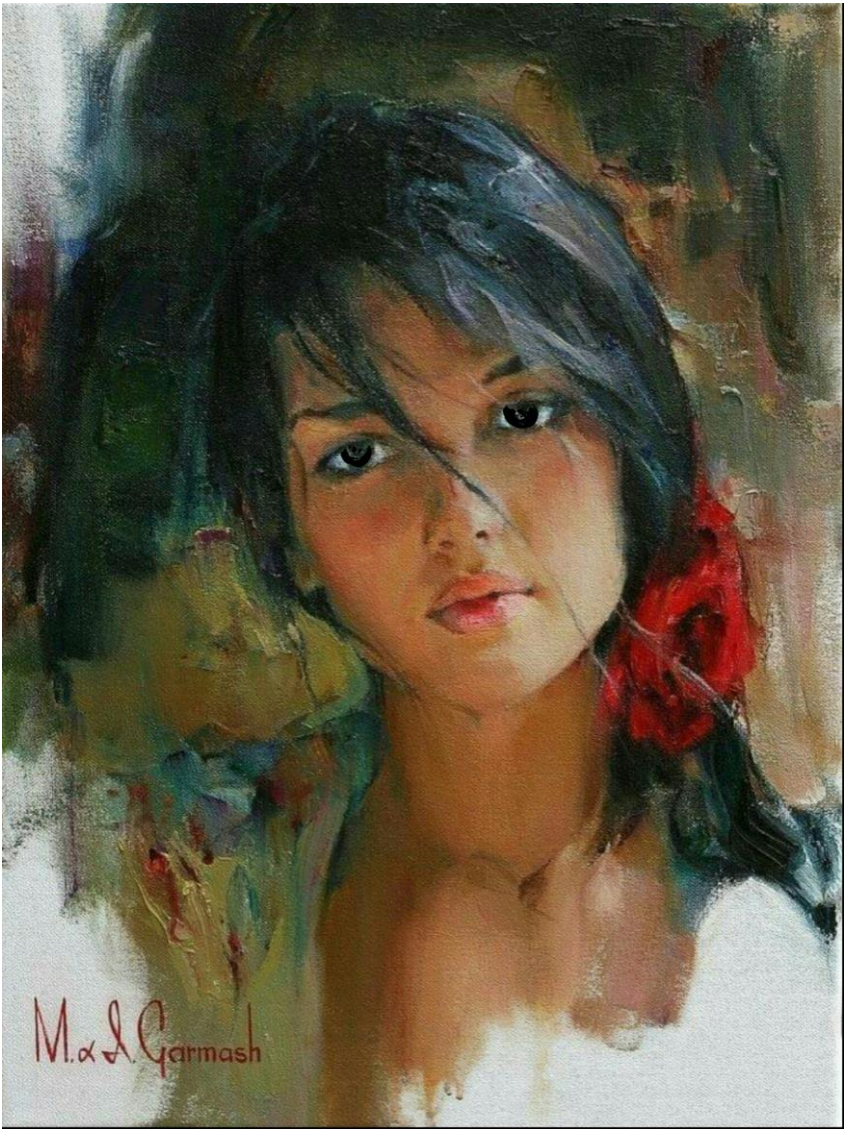

في قلبي حبٌ دفين (225)

. رحـــاب .

صعق آدم وصرخت ياسمين صرخة تهاوت بعدها مغشيا عليها فهرولت كوثر نحوها، وهرول آدم نحو الغرفة يقتحمها فلم يجد غير سرير مغطى بالأبيض، فانقض عليه ورفع الغطاء ليرى وجه أخته كما تمنى أن يراها في يوم من الأيام وهو يزفها عروسا لكن الموت خطفها من حضنه قبل أن يسلمها لحضن زوجها وهو لا يعلم أنها خانت حضنه الذي كان بالنسبة لها حياة وارتمت في أحضان الموت، فبكى عليها بكاء الأم لفراق ابنتها فقد كانت ياسمين ورحاب ابنتي قلبه وقد تبنى أمومتهما وأبوتهما بكل ما لقلبه من نبض ولم يشك للحظة أن إحداهما أو كلاهما ستؤلمان ذلك القلب وتجعلانه بغير الألم لا ينضب، ليتحول بكائه إلى نشيج وقد تذكر فقيده الآخر فبكى بكاء الأم لفقدان ابنها البكر وابنتها الصغرى فكبر الوجع وتوسع الجرح و ازداد عمقا، فانهار كليا وأخذ يحتضن جثة أخته ويحاول أن يوقظها بكل الطرق وهو يقبلها تارة ويهزها تارة ويصفعها حتى تارة أخرى وهو الذي لم يرفع يده في وجهها يوما وهي حية وسط نواحه وعويله الهستيري.

استيقظ آدم بعد زوال أثر المهدئ وياسمين تجلس بجانبه باكية ولكن نظره لم يتوقف عندها بل راح يبحث في الأسرة الفارغة عن طيف أخته، ليثبت في الأخير نظره على ياسمين وقد أدرك أنها آخر وكل ما تبقى له من رحم أمه فأمسك رأسه بقوة وكأنه سينفجر قبل أن تنفجر مقلتيه دمعا وكأنه عن موتهم مسؤول، فاقتربت ياسمين منه واحتضنته بقواها الخائرة فطوقها بكل بقي له من قوة وهو يبكي بحرقة.

شيع آدم جثة أخته الصغيرة بقلب ممزق النياط وروح مجلودة بالسياط، ووارى صغيرته الثرى وكأنه يغرس فسيلة وسقاها بدمعة على أمل أن تزهر يوما مع أنها ستبقى في قلبه زهرة لن تذبل ولن تموت، وعاد إلى البيت وحيدا ودخل بخطى متثاقلة ثقل حمله على

عكس خفة خطوات أخته الراحلة التي كانت تجوب البيت كنحلة فتضع عسلها أينما حطت لتجرع اليوم علقم فراقها في كل ركن من أركان هذا البيت وفي كل نفس تحاول ذكراها أن تسرقه فتطرحه على الأرض مخنوقا حتى تتأكد أنه ميت، فاستقبلته خالته محاولة ملأ الشغور الذي فاض به الشعور وهي تواسيه، لكنه كان كالجبل في صبره، وطلب منها أن تأخذ له طريق ليرى أخته ياسمين المتبقية الوحيدة فقالت : ـ لا يوجد غريب فقد رحل الكل ولم تبق إلا خطيبتك وأهلها...

فأشار بيده أن تمشي قبله وهو خلفها فدخل وسلم على الجميع بنبرة حزينة فنهضت زوجة أب خطيبته تعزيه كما عزته قبل أقل من شهرين في الأب الروحي له ولخطيبته التي كانت تجلس بيمين أخته وأختها التوأم بشمالها، وكان الشبه بينهما إلى حد كبير ويصعب التمييز بينهما لكن ليس على آدم الذي لم ينتبه لتشابههما أصلا وهو يسأل خطيبته عن حال أخته النائمة وهي تطمئنه ثم تطمأن عن حاله مع أن حاله كان يحكي مصابه، تقدم نحو أخته بخطوة فرن هاتفه فرد باقتضاب وأقفل الخط وهو يقول لخطيبته قمر: ـ عمك ينتظركم في الخارج...

فهو لم يتقبل لها أبا غير المرحوم الذي فقده هو الآخر كأب، فغادرت قمر وأختها سحر وزوجة أبيها وهم يدعون الله أن يلهمهم الصبر والسلوان، ليغدو البيت قبرا لأهله وهم ينعون موت أهاليهم الواحد تلو الآخر وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت.

انحنى آدم على أخته وقبل جبينها وهي طريحة الفراش وتهذي طول الوقت وكأن الألم يحكي ماذا فعل بهذا الجسد الذي يسكنه أو بالأحرى يستعمره وهو يسلبه كل من يحب ويسكنهم في قبر أو ينفيهم بالهجر، وبعد أن أفقد أباها عقله وقد قتل أمها حبيبة قلبه وضاع أخوها الأكبر بينهما، وبعد أن أحرقها بنار فراق حبيبها ها هو اليوم يجعل من قلبها محرقة أضرمتها به أختها الصغيرة وكأنها كانت تلعب بعود ثقاب في حين غفلة أختها الكبيرة وهي

لا تدري أنها بهذا قد تحرق نفسها وتحرق قلوب من يحبونها باحتراقها، وكان أهون على ياسمين أن تحرق أختها قلبها بنار أمين لأنها متيقنة أنها وإن أحرقت قلبها فستكون على سكانه بردا وسلاما، ولكن أختها أحرقتها بنارها فحولت بياضها إلى رماد فخر جذع الياسمين وذبل استسلاما.

تهاوى آدم بجانب أخته وقد سبقته دموعه المنهمرة بخرير وكأنها تسقي الياسمين الذابل على السرير، فتقربت منه كوثر وهي تربت على كتفه و تقول : ـ صبرا يا بني فإن الله مع الصابرين...

فهزت هذه الكلمات صبره فارتمى في حضن أخته النصف الميتة، وعلا صوت بكائه وشهقاته وكأنه ينعي أخته المتبقية الأخيرة هي الأخرى فارتخت في حضنه كحمامة جريحة، وقد أيقظها عويله أو أحرقتها عبراته، فلفته بذراعيها الواهنة القوى ودخلت في نوبة بكاء قوية مرة أخرى، فاعتصر آدم وكأنه طعن بخنجر حاد في ظهره، فكبت شهقاته وحبس دموعه وانسحب من حضنها البارد المرتعش رعشة الموت التي دبت في سائر جسدها مذ فارقت حضن أختها، ونهض يعدل لها الوسادة على ظهرها ويجلسها ومن ثمة يجلس قربها ثم يسندها بذراعه وهو يمسح دمعها المتصبب كالشلال عن وجنتيها حينا ويقبل جبينها حينا آخر، فلا دموعها توقفت ولا دموع آدم كبتت ولا حتى دموع كوثر احتبست ولا دموع الصغير إسلام تماسكت وببراءة سقطت.

حاول آدم أن يطفئ نار أخته التي أحرقته أكثر مما أحرقتها فقال لها بصوت متحشرج : ـ ادعي لها بالرحمة...

فانتفضت ياسمين وأخذت تصرخ متلعثمة بقوة : ـ كيف لله أن يرحمها وهي لم ترحم نفسها؟؟؟

كيف لله أن يرحمها وهي لم تستغفر لذنبها؟؟؟

كيف لله أن يرحمها وهي لم ترحمنا؟؟؟ لم ترحمنـــــا...

وغطت وجهها بكلتا يديها وغرقت في نواح خيبتها، لكن خيبة آدم كانت أعظم وقد صعقته كلماتها التي لم يفهم معناها، فاجذوذى متوجسا، فقالت الخالة كوثر محاولة تهدئة الوضع : ـ لا تقولي هذا يا حبيبتي إن الله غفور رحيم ادعي لها بالرحمة والله بعباده رحيم...

استجمع آدم أفكاره المبعثرة ثم قال بصوت أقرب منه إلى الهمس وكأنه يفكر بصوت مرتفع : ـ رحاب ماتت في حادث السيارة أليس كذلك؟؟؟

وهو ينظر إلى خالته وكأنه يوجه لها أصابع الاتهام، فأطرقت رأسها وكأنها تخفي أمرا أما ياسمين فبقيت تنظر إليه مندهشة فأعاد السؤال بصيغة أخرى ونبرة أخرى : ـ كيف ماتت رحـــــاب؟؟؟

فاضطربت الخالة واضطرت لإجابته وقالت باقتضاب : ـ انتحرت...

هي كلمة واحدة كانت كفيلة بأن تسقط آدم أرضا فخر على ركبتيه من وقر ما سمع، وأغمس رأسه في سرير أخته وأخذ يضرب بكلتا قبضتيه وينشج : ـ لمـــاذا لمـــــاذا لمـــــــاذا ؟؟؟

ثم واصل : ـ لماذا يعاقبني إخوتي بهذا الشكل ألم يكفي عقاب محمد في حياته وموته لتعاقبني هي الأخرى بانتحارها لمـــاذا لمـــاذا لمـــــــاذا؟؟؟

جحظت ياسمين عيناها وشهقت الخالة كوثر قائلة بتعجب : ـ محمد مـــــات ؟؟؟

فسكت آدم ومن ثمة سكن وكأنه أدرك للتو عظم ما قال لكن الكلام كالسيف إذا خرج مزق بدون أن يرفق أو يفرق ويستحيل أن يعود إلى غمده.

فرفع آدم رأسه واحتضن يدي أخته بكلتا يديه وكأنه خائف من أن تؤذي نفسها بيديها هي الأخرى وقال بصوت منخفض : ـ محمد انتحر بطريقة أخرى...

فانتفضت ياسمين وحاولت أن تنزع يديها من يديه لكنه كان يحتضنها بقوة ثم أردف موضحا : ـ محمد اختار الهجرة الغير شرعية فلم توصله إلا لضفة الموت وحتى في موته خالف الشريعة ثم قال وقد سكتت دموعه : ـ سامحيني ياسمين لم أشأ أن أخبرك بسبب زفافك...

فترقرقت عينا ياسمين بالدموع وهي لا تزال مشدوهة وكأنها تعاتبه لأنه رد عليها الصاع صاعين، وقبل أن تنزل من دمعها قطرة بكاء على محمد وقف آدم وانحنى نحوها واقترب منها ووضع عينيه في محور عيناها ثم قال بصوت مخنوق : ـ أقصرت معكما يوما ما؟؟؟ فحركت رأسها يمينا وشمالا وارتمت في حضنه باكية فبكى هو الآخر ودموعه تقول الكثير قليله :

سامحوني يا من سلبتم روحي...

فقد نسيت أنني أخوكم وسلمتكم روحي...

سامحوني يا من سلبتم روحي...

فقد كنت منشغلا بتضميد جروحكم بينما كانت تتعفن جروحي...

سامحوني يا من سلبتم روحي...

لأنني أهديتكم زهرة حياتي فقتلتموها وقلتم لزهرة موتي فوحي...

سامحوني يا من سلبتم روحي...

لأنني كنت أجبر جروحي على الابتسامة في وجوههم ولا شيئ يجبر باطن قروحي...

سامحوني يا من سلبتم روحي...

لأنني كنت أعقد في حضرتكم لسان روحي وأنا أحوج منه لبوحي...

سامحوني يا من سلبتم روحي...

وسامحيني يا روحي وكفاك أنينا ونوحي...

سامحوني يا من سلبتم روحي...

وأقرؤوا السلام لأمي وقولوا لها سامحيني لأنني لم أسطع أن أعوضكم حضنها وقولوا لها بلساني أنا بحاجة إليك فهلا حضنتني مرة واحدة ثم بطيفك لوحي...

سامحوني يا من سلبتم روحي...

لأنني أخوكم ويا ليتكم رميتموني في غيابت الجب كما فعل بيوسف إخوته ولم تخنقوني بصروحي...

سامحوني يا من سلبتم روحي...

لأنني أشعر أنني جرحتكم للتو بصراحتي ووضوحي...

سامحوني يا سبب جراحي...

لأنني لن أنساكم لحظة وكلما تذكرتكم كانت ذكراكم ملحا لجراحي...

سامحوني يا سبب جراحي...

لأنني حاربت الحياة لأجلكم ونسيت أنكم سلاحي...

سامحوني يا سبب جراحي...

لأنني قيدت الطفل بداخلي وهو يتوسل إلي ببرائته أن أطلق سراحي...

سامحوني يا سبب جراحي...

لأنني بفراقكم سأجعل من شمال الصدر ضريحي...

سامحوني يا سبب جراحي...

لأنني رأيت في المنام أن أمي تناديكم فأفزعتكم بصياحي...

سامحوني يا سبب جراحي...

لأنه بغروب شمسكم لا شمس ستشرق على صباحي...

سامحوني يا سبب جراحي...

لأنه لا شيئ سيملأ فراغكم إلا السم ملأ أقداحي...

سامحوني يا سبب جراحي...

لأنني استعجلت فرحكم وأجلت إلى يوم غير معلوم أفراحي...

سامحوني يا سبب جراحي...

لأنه برحيلكم ستقرع في كل يوم طبول أقراحي...

سامحوني يا سبب جراحي...

لأنني كنت أترنح ليلا بينما كنت أدثركم بالأمن والطمأنينة ولم أشعركم لا صيفا ولا شتاء بعواصفي ورياحي...

سامحوني يا سبب جراحي...

فلقد كنت كالفلاح الذي يزرع بكد وجد ولكن بذوره كانت ميتة ولكنه قد يحييها إن سقاها لكن موتكم قتل الأمل في حياتي وفلاحي...

فسامحوني يا من سلبتم روحي ويا من كنتم سبب جروحي وسامحيني يا روحي.

فصل الربيع
البداية

مرت خمسة أيام على انتحار رحاب ولم يصدق لا آدم ولا ياسمين أن أختها قد رحلت وتركتهما، أما أمين فمنذ آخر اتصال جمع بينه وبين رحاب وهو طريح الفراش تلفحه حرارة جسمه وكأنها تعاقبه على كتمان حبه بحمى الفراق ولا أحد يعلم بمرضه غير زميله في الغرفة الذي سهر عليه، وقد أخفى آدم ذلك حتى عن أمه الذي كان يعرض على الاتصال بها في اليومين الأولى، وحتى هي لم تتصل به إلا بعد ثلاثة أيام باتصال قصير، وهذا ما كان لصالح أمين الذي خاف أن تعلم بأمر مرضه فتقلق، ولكنه لم يكن يدري أنها كانت تخفي عنه أمرا جللا هي الأخرى.

قضى أمين ليلة أخرى تشبه سابقتها ألما لكن قمرها كان يشع أملا، وقد قرر قبل بزوغ فجر يوم الغد العودة إلى النقطة التي توقف فيها، مع أن الحياة لم تتوقف عند تلك النقطة، وقد عزم على تغيير نقطة النهاية التي استعجل وضعها قبل أوانها ويضع مكانها فاصلة والمواصلة ولو أن نسبة الوصول كانت ضئيلة أو منعدمة تماما، لا سيما أن هذا اليوم بالنسبة له وليلياسمين ليس كسائر الأيام، فقد كان تاريخ زفاف حبيبته مع رجل غيره، وعاد إلى أرض الوطن فجأة كما رحل منها فجأة وبقرار فجائي فاجئه صاحبه بالدرجة الأولى وهو لا يعلم من المسؤول عن هذا القرار، قلبه الذي يريد حرق رماده، أو عقله الذي يريد أن ينتقم من قلبه، لكن المؤكد أن قراره لم يكن لأبابة لوطنه وإنما لصبابة لموطنه.

تسارعت خطوات أمين بتسارع نبضات قلبه التي كادت أن تتوقف قبل أن يصل إلى بيتهم، وما إن أصبح على مشارف حبهما أو بالأحرى حبه لم يجد غير الجدران تجاوره ولا أحد من أهله أو حتى جيرانه، فانقبض فؤاده ظنا منه أن الحفل قد انتهى أو أنهم أقاموه في إحدى قاعات الحفلات، فهرول نحو الباب يطرقه بشدة، ومن شدة الطرق كاد أن يخلع الباب ولكن رغم طرقاته الشديدة إلا أنه لا أحد فتح ولا أحد رد، ولما بلغ اليأس منه مبلغ الحزن خر على عتبة الباب ينعي جروحه وهو يعزي جوارحه قبلا، فسمع وقع خطوات من

داخل البيت تقترب نحوه، وبمجرد أن فتح الباب انتصب الأمل في قلبه وارتخى في حضن أمه، لكنه شعر وكأنه فيه غريب لأنه لم يكن يختلف عن الغربة في شيء، وكأن أمه لم تفرح بعودته لأنها تتجنب ألمه، ومن ثمة احتضن البيت بروحه لكن البيت الذي خرج منه ذلك اليوم ليس هو البيت الذي يدخله اليوم، فاقترب من باب الطابق السفلي الذي كان موصدا كغير عادته في مثل هذا الوقت أملا منه أن يسمع حسيس خطوات رحاب أو حتى ياسمين، فأمسكته أمه من معصمه وقالت : ـ دعنا نصعد لترتاح قليلا...

فشعر أنها تخفي عنه شيئا فقال بحسرة : ـ هل تزوجت ياسمين؟؟؟

فأجابته مباشرة وقد استيسرت سؤله : ـ لا لقد ألغي الزواج...

فتوهجت أسارير وجهه وارتمى في حضن أمه من جديد وهو يردد : الحمد لله...

ولم يأبه لردة فعل أمه التي أدهشها حمده وكل موقفه، ثم تراجع إلى الخلف و أردف متسائلا : ـ أين هم إذن؟؟؟

فقد كان الوقت متأخرا عن العمل وعن الدراسة وقد كانت الشمس توشك على الغروب ولكن لا شمس غربت إلا شمس رحاب فكرر أمين : ـ أين الجميع إذن؟؟؟

فأجابته وهي تخفي ملامح الموت في جوابها : ـ لقد غادروا؟؟؟

فتسمر أمين في مكانه وأمطر عليها وابلا من الأسئلة : ـ إلى أين ؟؟؟ ولماذا؟؟؟ ومتى؟؟؟

فدعته للصعود مجددا ومن ثمة ستخبره بكل شيء بعدما يرتاح فقال : ـ لن أرتاح حتى أعلم ما حدث...

فقالت وهي تهم بالصعود وتسحبه من معصمه : ـ سأخبرك بكل شيء فقط دعنا نصعد...

وما إن رمى أمين رجله في منزلهم حتى رأى أمه تحتضن أحدا غيره وهي ترحب بالضيف على لسان الصغير : ـ مرحبا بك يا أخي...

فتذكر أنه قد أصبح له أخا، ولكن ما فاجأه هو تعلق أمه به وتعلق ذاك الأخير بأمه...

حاول أمين التعامل معه كأخ كبير فمد يديه نحوه قائلا : ـ تعالى يا...

لكنه نسي اسمه فقالت أمه مذكرة : ـ إسلام...

وهي تعطيه إياه لكن الصغير لم يتقبل هذا الغريب وتشبث في حضن أمه وهو ينظر إليه بنظرات تملؤها الحيرة ويبادله أمين بنظرات مليئة بالغيرة، ولكن الأخ الكبير كان يدرك أنه لا تثريب على الأخ الصغير فقال محاولا إخفاء غيرته : ـ كأنه يشبهني قليلا...

فردت أمه تخالفه الرأي : ـ لا... لا يشبهك

فقال مغيرا رأيه : ـ لكنه يشبه أبي كثيرا...

فقالت كوثر ممتعضة وكأنها تذكرت أنه ثمرة خيانة زوجها لها : ـ بل يشبه أمه.

فقال أمين محاولا إثارة غيرتها كما أثارتها هي في نفسه : ـ لا يشبهك أبدا...

فردت كوثر وقد انتبهت لحيلته : ـ أقصد أمه التي ولدته ووهبتني إياه...

غير أمين مسار الحديث فجأة وقال سائلا : ـ إلى أين غادروا ؟؟؟

فباغت كوثر سؤاله وقالت متسائلة : ـ من؟؟؟

فقال وقد لاحظ تغيرات وجهها : ـ أنت تخفين عني شيئا يا أمي ماذا جرى هل حدث مشكل بينكم لا سمح الله...

فقالت وقد ارتسم الحزن على ملامحها وقد قررت إخباره لأنها تدرك أنه لن يهدأ حتى يعرف الحقيقة : ـ ليتهم غادروا لهذا السبب.

فانقبض أمين ولم يشعر إلا بقبضتي أمه تشد كتفيه، ومن ثمة أرفقت عدني أن تكون صبورا فجرى الدم بسرعة في شرايينه فتسارعت نبضات قلبه وتثاقلت عضلاته ثم قال باستعسار: ـ ماذا حدث أرجـــوك؟؟؟

فقالت بهدوء : ـ إن لله وإن إليه راجعون...

وقبل أن تكمل قولها كان جسد أمين قد انزلق بين يديها كالزئبق ولم تبق إلا نظراته معلقة كأنه يقول لأمه : ـ تطلبين مني أن أكون صبارا وتغرزين في قلبي أشواك الصبار...

وسقط أرضا فلا جسده الذي أنهكه السفر تحمل، ولا روحه التي سلبها الخبر تمسكت، ولا القلب الذي وري القبر تجلد، فهرولت أمه تحاول إيقاظه وتمنت لو أنها لم تخبره لكنها تدري أنه سيعلم عاجلا أم آجلا وفي كلتا الحالتين سيتألم.

فعندما استيئست كوثر من إعادته إلى وعيه دب الخوف في قلبها فأسرعت إلى حقيبتها وقاست ضغطه ومن ثمة نسبة سكر في جسمه، فتنفست الصعداء وحمدت رب السماء وهي تحاول إيقاظه من جديد و تمسح على وجهه المقفر بالماء، ففتح عيناه المجفلتان وهو ينظر إليها وكأنه يترجاها ويتوسل إليها أن تسحب ما قالت لكنها كانت كسحابة ليست بعابرة وإنما ماطرة ولكن غيثها لم يكن مطرا بل كان جمرا، فأمسكت أمه بيده وهي تمسح عليها مواسية فلم تجد الكلمات التي تواسيه وأمين لا يزال ينظر إليها في حالة عدم تصديق ولا يقوى على النطق بمنطوق وكأنه يحتضر ويسارع لنطق الشهادتين فقال بصعوبة : ـ مات الجميع...

فالجميع كان يعني له الكثير فآدم أخوه وسنده الأكبر وياسمين حبه الأكبر ورحاب توأمه، فتداركت أمه مصححة وقد انتبهت إلى خطأها الذي عظم المصاب أكثر مما هو عظيم : ـ رحاب هي التي ماتت... وآدم وياسمين غيرا مكان سكناهم...

فصرخ أمين صرخة ارتجفت لها أمه وصرخ لها إسلام باكيا، ثم صمت فجأة وانقض على كتفي أمه وهو يقول بقلب محزون : ـ ماتت أو انتحرت ؟؟؟

فاندهشت أمه من سؤاله وتوقعه الذي أصاب الهدف من أول محاولة فأردف مؤكدا احتماله : ـ انتحرت هذا صحيح يا أمي...

فازدادت دهشة كوثر التي لم تملك ردا عليه غير الإيماءة برأسها أن نعم، فثار أمين كالبركان وانفجرت مدامعه وعلت صرخاته وهو يقول : ـ أنا السبب... أنا السبب... أنا السبب...

وهو يلطم وجهه بكلتا راحتيه حينا ويضرب صدره بقبضتيه حينا آخر وهو يترنح على فراشه كالنسر الجريح، حاولت أمه تهدئته لكنها لم تستطع فاضطرت لحقنه بمهدئ ولم يشعر حتى بوخز الإبرة فمن غرز سكين بصدره لن تألمه إبرة في خصره.

بعد دقائق خمد ولم يبق إلا صوت بكاء إسلام الذي لم تنتبه أمه لبكائه إلا بعد هدوء أمين الذي استسلم للمهدئ، ولكن لم يكن إلا الهدوء الذي يسبق العاصفة.

أضجعت كوثر إسلام واتجهت نحو أمين تقيس حرارته وتمسح على وجهه وتقبل جبينه وتنتظر نهوضه لكن النوم غلبها حتى نامت، استيقظ أمين ونهض ببطء وقد انتبه إلى وجود أمه في الغرفة فتسلل خارجا قبل أن تستيقظ.

كان أمجد يغط في نوم عميق ولم يوقظه إلا جرس بيته الذي رن رنات متتالية جعلته يهرول إلى الباب يفتحه ولم يأبه حتى للساعة المتأخرة التي كانت حوالي الثانية صباحا، وقبل أن يصل إلى الباب كان الجرس قد توقف وعوضته لكمات وركلات قوية، وما إن فتح أمجد الباب حتى تفاجأ برؤية أمين يقف على عتبة الباب كالشبح وهو يلهث بعينين محمرتين، ويتصبب منه العرق فجف جسم أمجد من السطح إلى أوغل العرق، وعلى حد علمه أن أمين خارج الوطن، فانتابه الشك أن الذي يعيشه مجرد كابوس لكن لكمة من أمين جعلته يدرك أن الذي يحدث معه هو واقع وسيجعله يتمنى لو أنه مجرد كابوس، ولم يفكر أمجد بلحظة بأن يرد الهجوم عليه لكن جيرانه هجموا على أمين دون أن يعلموا ظالما أو مظلوما، فقبض اثنان على أمين الذي كان في عروة ثورته، وراح الثالث يلكمه، فصاح أمجد وهو يمسك بجاره : ـ لا لا...

فامتثل لأمره أما الاثنان الآخران لا يزالان يكبلانه كالأصفاد، فوقف أمجد وجها لوجه مع أمين الذي كان الشرار يتطاير من عينيه، فطلب أمجد من جاريه إطلاق سراحه فامتثل واحد وسأله الآخر يريد تأكيد ما سمعه ولم يفك أسره إلا بعد أن أكد أمجد طلبه فأفلته، وهو

يشكرهم على وقفتهم معه وأوضح لهم أنه قد حدث سوء فهم للموقف فقط، فخرجوا من بيته وهم على أهبة الاستعداد للتدخل من جديد إذا استدعى الأمر ذلك.

تقدم أمجد نحو الباب فأغلقه وأدار مفتاح القفل ثلاثا وتقدم نحو أمين بخطوات ثابتة حتى أثار هدوئه خجل واضطراب أمين الذي لم ينبس بكلمة بعد، فقال أمجد بنبرة الطبيب النفسي الهادئ : ـ أنا أسمعك هات ما عندك...

فارتبك أمين وهو يشيح بنظره عن وجه غريمه الذي كاد أن يهشمه ثم قال بصوت الضحية : ـ أنت قتلت روحي...

فاقشعر جسد أمجد وقد شعر بناقوس الخطر يدق قلبه فحاول إخفاء انفعاله والتحكم في ردة فعله والمحافظة على هدوء الوضع فقال : ـ اجلس...

فجلس أمين على الأريكة وكأنه منوم مغناطيسيا وجلس أمجد على المائدة ليكون مقابلا له وقريبا منه في نفس الوقت ومد يده يربت على كتف أمين الذي أغمس رأسه بين راحتيه وليس للراحة علامة على وجهه فانتفض ورمى بيد الطبيب عرض الحائط، فنزع أمجد يده ورفعها مستسلما وكأنه يرفع الأذى الذي سببه بلمسته تلك، وما إن عاد أمين إلى هدوءه إلا من أنفاسه التي لو أصابت مخلوقا لأحرقته حتى استغل أمجد هدوءه الذي كان ينبؤ بعاصفة فقرر تبادل الأدوار وقال بنبرة دافئة : ـ سأحكي لك كل شيء بحذافيره والله على ما سأقول شهيد وإن كنت القاتل فلك أن تقتص لروحك وتقتلني...

حكا أمجد لأمين كل شيء بتفاصيله الصغرى والكبرى وكل محاولاته الفاشلة بإقناع رحاب، ومع ظهور خيوط الفجر الأولى ظهر استنتاج أمين جليا، وهو أن أمجد إن كان مسؤولا على انتحار رحاب فمسؤوليته لا تتعدى أنه لم يستطع إقناعها بأن حبها له خطيئة، ولا مسؤول عن انتحارها غيره وقد شهد محاولتها الأولى وقد كان مخبولا عندما صدقها وأمنها على نفسها التي حاولت من قبل إزهاقها.

قام أمين بروح مزهقة وأنفاس مرهقة متجها نحو الباب فأمسك أمجد بيده وقال : ـ لم أكمل بعد وسأحكي لك حكايتي إذ لم تمانع...

فامتثل أمين وجلس من جديد ولم يبدو على ملامحه التشوق لسماع الحكاية الذي استبعد أنها تهمه، فبدأ أمجد يحكي قصته وكأنها لم تحدث في زمن مضى وإنما تحدث الآن أمام عينيه أو أنها فيلم سينمائي يتفرج عليه أو أنها رواية يقرأ تفاصيلها حرفا حرفا، وبشروق الشمس بدت لأمين شمس الرواية مشرقة التي وإن غربت يوما فلنا في الغد موعد مع شروق آخر، لكن لم يرد أمين أن يبدي لأمجد أنه قد قرأ كل أوراقه التي كشفها هذا الأخير أمامه قصدا وهو يقصد مقصودا غير الذي نطق به.

****

دخل أمين غرفته التي لم يدخلها منذ شهور ليكون اليوم الذي دخلها فيه أسوأ من اليوم الذي ودعها فيه، وكأن الحياة قد تلخصت في أحد دروس الرياضيات الذي يهتم بالمتتاليات وكأن هاته الأخيرة محض متتالية متصاعدة أساسها الألم، أو أنها معادلة حتمية حقيقتها أن اليوم الآتي أقسى من اليوم الماضي.

ارتمى أمين على سريره وانهار باكيا وأمه خلف الباب تتحسس شهقاته المتقطعة المتصاعدة حينا والمتنازلة حينا آخر ونياط قلبها يتمزق وكبدها يحترق، وهي تدرك أن ابنها قد غدا نارا حطبها ذكرياته وإن تدخلت لإطفائها فلن تزيدها إلا لهيبها، فتركته لذكرياته تلسعه وهو يستحضر الواحدة تلو الأخرى، والتي ما إن استحضر واحدة كانت فيها رحاب كالظل فكيف للظل أن يغادر صاحبه ؟؟؟

ظل أمين مستلقيا على السرير وقد ارتخت دموعه في خرير وانقبض قلبه وقد تجرع الحزن المرير وشردت عيناه في الحائط وليس لهما حظ من القرير مع أن الحائط كان مزينا بحطام لوحاته التي قرت عيناه يوما لكنه اليوم أمامها كالضرير.

كان صوت رحاب عالقا في مسامعه وخصوصا آخر حديث جمع بينهما، فأراد استحضار صورتها ليضمحل طيفها، فاتجه نحو خزانته بخطى واهية وأخذ يبحث بقوى واهنة عن ألبوم الصور الذي كانت آخر مرة يراه فيه هو عشية سفره، عندما كان يود أن يأخذه معه لكنه في آخر لحظة تركه لأنه كان يظن أنه إن غاب الألبوم غابت الصور وهو لا يدرك أنها معلقة في شغاف القلب قبل جدار الذاكرة.

حين استيئس من وجوده نكص على عقبيه وتهاوى على سريره وقبل أن يستلقي من جديد مد يده إلى الدرج الذي كان بجانبه فتراءى له الألبوم وربما ترائت له الصور التي يحويها قبل أن يفتحه، فأشاح المذكرة التي كانت فوقه وفتحه والألم يعتصر من جروحه التي لا تزال تنزف بشدة، لكنه ما فتئ أن يفتحه حتى أغلقه وأعاده إلى مكانه و قبل أن يضعه لمح شيئا غريبا وهو نفس تلك المذكرة التي لم تلفت انتباهه عندما فتح الدرج، فتناولها وما إن فتحها حتى جحظت عيناه المتورمتان ولم يتوقع أنها لياسمين بل كان كل توقعاته أنها لرحاب بل كان متأكدا من ذلك، ولكن بعد اكتشافه أنها لياسمين من خطها، لم يتوقع أن رحاب من أهدته إياها إلا من الورقة التي سقطت منها بخط رحاب وقد كتبت : ـ هذه هديتي إليك، وأتمنى ألا تصلك متأخرة...

ولم يكن ليقرأ حرفا مما كتبت أنامل ياسمين لولا أنه لمح اسمه في إحدى الصفحات وبالتحديد في أول السطور فأخذ يقرؤها بلهفة وقلبه يكاد يتوقف من الرجفة من أول جملة :

ـ إلى حبيبي أمين الذي آثر الهجران على الغفران...

مر على فراقنا أسبوع...

وعيني لم تزل تذرف الدموع...

كأنها انفجرت من الأرض ينبوع...

فانطفأت بغيابك كل الشموع...

حتى عمت الظلمة كل الربوع...

وكأن مراسيم جنازة على وشك الشروع...

فقد انحنى ظهري كأنه في ركوع...

أتبعه لرب الوجود بسجود كله خشوع...

علها ترضى الروح من جسدي الطلوع...

فكل أعضائي تنتظر التوقف في جموع...

وقد أجتث من الدنيا وجذورك ليس لها من قلبي خلوع...

فهذا القلب بغير حبك ليس قنوع...

وإن أفلت شمسي فكفاني نورا أنك قمري الذي يزداد بالغياب سطوع...

فهل من سبيل للرجوع ؟؟؟

أم أن كبريائك يأبى الخنوع !!!

فأكمل ما كتبت وهو في حالة ذهول وعدم تصديق وقد خفق قلبه بكل حرف وانقبض بكل شدة وانكسر بكل كسرة ففتح فاه من أثر الصدمة وبين الكسرة والفتحة تخطفه ضمة لتلقي به من غياهب الشك إلى سماء اليقين ولازال يقلب صفحاتها الواحدة تلوى الأخرى فيقرأ اسمه في كل البداية وينتهي بتوقيع اسم ياسمين.

اختلطت المشاعر على أمين بين حزنه المدقع وبين الفرحة التي فجرت قلبه كقذيفة مدفع، فانفجر ضاحكا ليتصاعد الضحك إلى قهقهات وفجأة اجذوى على ركبتيه وانغمس وجهه بين طيات مذكرة ياسمين لتتحول قهقهاته إلى بكاء.

ارتبكت كوثر خلف الباب وكأنها ارتكبت جرما بإخباره واشتد قلقها ولم تجد شيئا تفعله غير طرق الباب الذي كاد أن يرأف لحالها ويفتح بدون مفتاح، وعندما استيأست من أنه سيفتح الباب ظنا منها أن عقله قد فارقه مع فراق روحه اضطرت لاستعمال المفتاح

الإضافي ففتحت عليه الغرفة لتجده غارقا في بحر دمع دافئ ممزوجا بين دموع الحزن ودموع الفرح ووجهه مدفون في المذكرة وكأنه صفحة من صفحاتها مع أنه كان يطغى على كل صفحاتها، ولم ينتبه حتى لدخول أمه إلا بعدما ربتت على كتفه وهي تصبره وتقويه فانتفض ورفع رأسه وكأنه كان يريد شاهدا على الذي يحدث معه وهو يقول بلهفة وهو يمسك بكتفيها ويهزها وهو يقول : رحاب لم تمت يا أمي... أنظري ماذا أهدتني... ياسمين تحبني... ياسمين تحبني... ياسمين تحبني يا أمـــــــــــي...

لم تستوعب كوثر كلمة مما قاله وبقيت شاخصة فيه وكأنها تبحث عن عقله علها تجبره أو تجبره على العودة ولكن أمين كان كالمجنون الذي استيأس من شفائه وظل يردد كلمات وجملا لم تفهمها وإن حاولت ذلك خانها عقلها هي الأخرى، ولما لاحظ أمين انعدام أي ردة فعل منها أخذ المذكرة وناولها إياها وهو يقول : ـ اقرئيها يا أمي...

فأمسكتها كوثر وأخذت إحدى صفحاتها في عجل وما إن انتهت نظرت إلى أمين ثم قالت في تعجب : ـ ياسميـــــــــن ؟؟؟

فقال مؤكدا : ـ نعم ياسمين...

فانعقد لسانها من جديد وعادت بها ذاكرتها إلى الحدث الذي ليس ببعيد وأعادت على مسامعها كل ما قاله آدم في ذلك اليوم الذي كان بالنسبة لياسمين أكثر من السعيد لتنفرج عقدة لسانها وقد تحذلق عقلها مستغلا المعطيات وتقول : ـ لكنها أكبر منك سنا و....

فقاطعها قائلا : ـ إن كانت أكبر مني سنا فحبي أكبر من أن يقيسه عمرا...

فسكتت كوثر ورفعت الراية البيضاء ليس استسلاما وإنما سلاما، ثم قالت : ـ أتحبها لهذا الحد...

فأجاب وعيناه تشع عشقا : ـ حبي لها ليس له حد وإن لم يعرف به من قبل أحد إلا رفيقة المهد التي اختارت اللحد...

فقالت : ـ ولماذا لم تخبرنا أو تخبرها على الأقل...

فرد بنبرة تملؤها التضحية : ـ لأنني كنت أظن أنها لا تراني إلا أخا وخفت إن صارحتها خسرتها...

فتذكرت كوثر أمجد وحبه الذي دفنه تحت برنوس الأخوة الذي خلعته عن السنين التي لم تزده إلا شوقا وحنينا، ونظرت إليه نظرات يملؤها الشك والريب وقالت : ـ وكيف وصلت مذكرة ياسمين إليك...

فأطرق أمين رأسه حزنا وقال هامسا : ـ رحاب...

ثم سكت قليلا وأردف وكأنه تذكر أنها فارقت عالمه وأضاف : ـ رحمها الله وغفر لها وإن غفر الله لها فلن أغفر لنفسي...

وأجهش باكيا فاحتضنته أمه وهي تقول : ـ لا أحد مسؤول على انتحارها مع الكل مسؤول عن الدعاء لها...

فقال : ـ رحمها الله وأسكنها فسيح جنانه...

فأمنت أمه على دعائه واستطردت قائلة : ـ اتفقت أنا وآدم أن يكون هذا البيت دارا للأيتام صدقة على روح مريم ومحمد ورحاب...

فانتفض أمين وقال مندهشا وكأنه يصحح خطأها : ـ محمد؟؟؟

فأجابته بحسرة : ـ نعم محمد مات وهو يهاجر بطريقة غير شرعية...

فقال أمين الذي صعق بموت رحاب ليصعقه الحزن بفجيعة أخرى : ـ متى حدث هذا ولماذا لم تخبروني؟؟؟

فقالت : ـ لا أدري متى بالتحديد لكننا لم نسمع خبر وفاته إلا في جنازة رحاب حيث انهار آدم وانهار الجدار الذي كان يشيده لحماية أختيه من زلزال الخبر لكن رحاب زلزلت كيانه بانتحارها...

حزن أمين حزنا لا يعزيه فيه إلا مذكرة ياسمين التي اعتكف طول اليوم في قراءتها صفحة صفحة،جملة جملة، كلمة كلمة، حرفا حرفا حتى حفظها عن ظهر قلب ربما.

خرج أمين من غرفته صباح اليوم التالي و اتجه إلى المطبخ أين كانت أمه تطعم إسلام الذي ما إن رآه حتى توقفت اللقمة في حلقه، فتجاهله أمين وصبح على أمه وكله للحزن قبرا وبعضه للحب نورا وقال : ـ أريد زيارة قبر رحاب ومنزل آدم الجديد...

فالتفتت إليه وقالت : ـ سأرافقك...

فقال : ـ جهزي نفسك إذن، وأنا سأحاول إطعام الصغير...

فابتسمت وهي تقول : ـ لم يتعود عليك بعد...

فقال : ـ أتشكين في قدراتي، أتركيه وستجدين الصحن فارغا...

فناولته الصحن وانصرفت وإسلام يرقبها بعينيه المتلألئتين، فأمسك أمين الصحن وملأ الملعقة الصغيرة ووجهها نحو فم أخيه وهو يقلد صوت السيارة، ففتح إسلام فمه من أول محاولة وبين الملعقة والثانية كان يبتسم ابتسامة تبرز اللؤلؤ القليل المرصع لفكيه، وهكذا أنهى صحنه إلى آخر ملعقة، فمسح أمين فمه وما إن وقف حتى رفع إسلام يديه يلوح نحوه لكي يحمله، فحمله وهو يقول : ـ تعالى عندي يا أخي الصغير...

واتجه نحو غرفة أمه التي خرجت قبل أن يدخل عليها ولتفاجأه قبل أن يفاجأها فقالت : ـ ما شاء الله تعود عليك بسرعة...

فرد عليها وهو غير مصدق لما تراه عينيه : ـ وستتعودين على الحجاب أسرع مما تتوقعين...

وقبل جبينها وأضاف : ـ صدقيني حبيبتي...

فابتسمت وقالت : ـ لا تقلق تعودت عليه قبل أن ألبسه وأحببته في ابنتي عمتك...

وتأبطت ذراعه الثانية وخرج الثلاثة معا...

توقف أمين عند باب المقبرة وقد تسارعت دقات قلبه فقال بصوت يترجم بكاء روحه وتمزق فؤاده : ـ انتظروني هنا...

فقالت أمه معترضة : ـ سأرافقك...

فرد باقتضاب : ـ لا سأدخل وحدي...

دخل باب المقبرة فهب عليه نسيم بارد اقشعر له سائر جسده وما إن خطى الخطوة الأولى حتى خانته الثانية وتثاقلت وكأنه لا يدوس على الأرض بل يدوس على البشر الذين يسكنون تحتها حتى زعزع سكونهم، فترنح وسكن لبرهة قبل أن يواصل في نفس الطريق وأنفاسه تضيق وكأنها قد بلغت الترقوة، فاغرورقت عيناه بالدموع ثم فاضت في حضن التراب بانهياره على قبر أخته بعد أن قد قرأ اسمها عليه، فسلم عليها وكأنه يراها وقبل ثراها وكأنه يقبل جبينها ثم قال بصوت هادئ وهو يبكي كليلة شتاء ماطرة هادئة : ـ لن أعاتبك، ولن أوبخك، وسأكتفي بالدعاء لك مادمت حيا...

ورفع يديه لقراءة الفاتحة على روحها فامتلأت بالدمع وكأنه يغترفها ليسقي بها تراب قبرها الذي لم يجف بعد، ثم قال بنبرة ممزوجة بالألم والأمل : ـ شكرا لك على هديتك... وصلت في وقتها، وأعدك أنني لن أتوانى في وصلها...

ثم واصل : ـ لا تتخيلين حجم الألم الذي اعتصرني بفراقك ولا تتخيلين السعادة التي اجتاحتني، لا تتخيلين كيف كنت، كنت كجسم متجمد بقلب منصهر، كنت كخريف غزاه الربيع، كنت كسماء تمطر ثلجا وأرض تتقد نارا لا تتخيلين ذلك...

صمت وقد شدت ذاكرته الرحال إلى ماض ليس ببعيد ثم قال من بين دموعه : ـ تدرين أنني خنتك مرة وخنت آدم وياسمين مرتين...

ثم أردف موضحا وهو يمسح دموعه : ـ نعم أنا خائن، كان علي ألا أوفي بوعد لك، كان علي أن أخبر آدم أو حتى ياسمين بمحاولة انتحارك الأولى، مع أنني حاولت إخبار ياسمين

في ذلك اليوم المشؤوم، كان ضربا من الغباء أن أصدقك وضربا من الجنون أن أكون وفيا لك، فبعض العهود في خيانتها وفاء كبير لمن تعهدنا لهم.

ثم شعر بالثقل في كل أعضائه وكأنه صار عاجزا عن الحركة فانتشل نفسه ووقف ورفع يديه من جديد وقرأ عليها فاتحة الكتاب وهو يدعو الله أن يعتقها من العقاب ومسح وجهه فمسح دموعه وانصرف بدون أن يلتفت خلفه، وكأنه يخشى أن تمنعه من الرحيل كما خاف ذاك اليوم الذي رحل فيه وهو يتمنى لو أنه لم يرحل ليعود ويجد توأم روحه قد رحلت للأبد.

أشارت أمه إلى الاتجاه وهو لا يزال يحاول مواساة نفسه قبل أن تشير له من جديد إلى العمارة التي استأجر فيها آدم، فتوقف أمين وترجلت أمه حاملة أخاه، لكن أمين لم يتزحزح من مكانه فأطلت عليه كوثر فوجدته يسند رأسه إلى المقود فقالت بقلق وهي ترفع رأسه إليها :ـ ما بك يا بني ؟؟؟

فرفع رأسه وقال :ـ أنا بخير، لا تقلقي...

وكل شيء فيه يقول عكس ذلك وخوفه من البوح يكاد يذبحه، سبقته أمه وهو يمشي خلفها وما إن رنت الجرس حتى فتح آدم الباب وكأنه كان ينتظر أحدا ليؤنس وحشته هو وأخته الوحيدة التي لا تزال طريحة الفراش وقد تركت سكرات موت أختها في روحها قبل جسدها رعشة لا تفارقها وإن فارقتها للأبد أختها، فسلم آدم على خالته وقبل وجنة الصغير إسلام، وما إن دخلا حتى تراءى له طيف أمين في الرواق فكبل عقله كل حواسه عنه أما روحه فقد طارت إليه تعانقه.

ولوهلة ظن أنه يتخيل لولا أن أمين تقدم نحوه وصار قبالته وجها لوجه، لكن آدم ما إن تأكد من أنه واقع أشاح وجهه عنه، فمد أمين يده نحوه ليصافحه فنظر إليها آدم وكأنه يحتقرها فاحتقن وجه أمين وانقبض قلبه قبل أن يتنازل آدم ويمد يده ويصافحه ببرود قاتل،

فشد أمين على قبضته وجذبه نحو حضنه لكن حضن آدم كان أبرد من يده فآثر الانسحاب وترك حاضنه واقفا على عتبة الباب من غير ترحيب، لكن أمين داس على كرامته ودخل واعتبر الذي حدث أول عائق أمامه ويجب أن يتخطاه ظنا منه أن أخاه يعاقبه على غيابه فقط، فأغلق الباب خلفه واتخذ لنفسه مكانا ولم يقل شيئا حتى أن آدم لم يحدثه ولم يلتفت له وكأنه غير موجود تماما، فساد الصمت بينهم إلا من بعض الحوارات القصيرة بين كوثر وآدم وحركات إسلام وكلماته الغير مفهومة، لكن إعفاء أمين من الحوار كان لصالحه فقد كان غائبا تماما وهو يبحث في أرجاء المكان الصغير عن ياسمين حبه الكبير، وفجأة سمع حثيث خطوات تنسحب على الأرض فظل يترقب حتى دخلت ياسمين وهي تتكئ على الحائط فهرول آدم نحوها يسندها لكن أمين سبقه إليها، فاندهشت ياسمين لرؤيته وتلألأت عيناها ولولا أنه كان يمسك بيدها لظنته هي الأخرى حلما وستستيقظ منه بعد قليل، فلم تتمالك نفسها وقد تسارعت أنفاسها بتسارع دقات قلبها وارتمت في حضنه باكية، تبكي فراق الحبيب العائد وتبكي فراق حبيبة لن تعود أبدا وكأنها تشم بين ثناياه رائحة أختها وقد غرست رأسها في قلبه وكأنها تتأكد من عدم وجود أخرى في قلبه غير الراحلة، ولا تدرك أن فؤاده ينبض لها حنينا وكأنها في أحشائه جنين لم يخلق ليولد وإنما ليحيا داخله ويكبر ويظل طول العمر وعرض السنين، فاحتضنها أمين بشدة إلى درجة أنه لم يعد يشعر بجسدها الذي اختلج جسده فصار كالجسد الواحد إذ تألم منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، فبكى أمين وهو لا يبكي غيرها في حضنها ولكن دموعها كانت وكأنها تسقي شجرة الياسمين التي جذعها أمين وأزهارها ياسمين.

هدأت ياسمين وسكنت وكأنها اكتشفت أنها في قلبه سكنت، لكن أزهار الياسمين البيضاء سرعان ما احمرت خجلا وهي لا تدري كيف وجدت نفسها تعانق هذا الجذع الذي جذوره متوغلة في قلبها منذ ولادته، ولكن الخجل اجتاحها من حاضنها ومن أم خاضها

ومن أخيها الذي لم تحضن من قبل رجلا غيره، وما زاد خجلها هو أنها شعرت وكأنها لبثت في حضنه وقتا طويلا وكأن عقارب الساعة قد تحولت إلى فراشات، بالإضافة إلى الصمت الذي ساد وكأن الأرض قد توقفت عن الدوران فسكن كل شيء إلا قلبها وقلب حبيبها الذي كان ينبض بشدة وكأنه يبوح لها في ذاك الوقت الوجيز أنها في قلبه أعز عزيز.

فناداها أخوها من خلفها أن لماذا قمت من سريرك وكأنه يسألها عما تخفيه في سريرتها.

فأفلتها أمين وكأنه أفلت نصفه الثاني، والذي لم يكن غير ياسمين التي تعرت منه كالشجرة التي تساقطت أوراقها في غير خريف فقالت بلعثمة زائدة : ـ سمعت الخالة كوثر، فارتأيت أن أسلم عليها...

فقال بهدوء وكأنه قد حذف المشهد الذي رآه لتوه ويريد أن يحذفه من عقلها وعقل أمين أيضا : ـ سلمي عليها وعودي إلى فراشك إذن...

فنهضت الخالة كوثر وهي تهم بالسلام عليها وتقول : ـ إن ظلت في الفراش فلن تتعافى أبدا... فسلمت عليها وأجلستها قربها وهي تحضن يدها بيد وتربت على كتفها باليد الأخرى، أما أمين فقد اتخذ لنفسه مكانا قصيا وقد أقصاه الكل من الجلسة وكأنه غريب تسلل إلى البيت خلسة.

فحاول أن يكسر جدار الصمت الذي كان حائلا بينه وبين الكلام وعيناه لم تفارقا ياسمين التي سرق الحزن بياضها وهو يقول في خلده : ـ ستبقين ياسمينة قلبي البيضاء وإن سود الحزن قلبك...

فانتبهت أمه لارتباكه محاولة إشراكه في الحوار فقالت له في الأخير بعد أن قالت الكثير: ـ أليس كذلك يا أمين؟؟؟

فانتفض أمين وقال بارتباك : ـ ماذا ؟؟؟ لم أسمعك؟؟؟

فتسلمه آدم وقال باستفزاز: ـ ضمير أمين مشغول ربما؟؟؟

فالتفت إليه أمين وقد اعتصرت بالغيظ ملامحه وقال : ـ ماذا تقصد يا آدم ؟؟؟

فرد عليه باستنكار : ـ أنت تفهم ما أقصد جيدا...

فاحتقن وجه أمين بشدة ثم قال باقتضاب : ـ وإن قلت لك لم أفهم قصدك.

فنظر إليه آدم نظرة ثاقبة حارقة وقال متهما : ـ أنت سبب انتحار أختي رحاب...

فصعق أمين صعقة جعلته يقف منتصبا ووقفت أمه خلفه تحاول أن تهدئه وتجلسه، فجلس ثم قال بهدوء : ـ حبي لرحاب رحمها الله لم يكن إلا كحبك لها... وقد أخبرتك بذلك قبلا.

صمت الجميع في جو مكهرب ونظراتهم تصعق بعضها بعضا باتهامات لاذغة لكن الكل كان يعرف أسرارا يحتفظ بها حفاظا على مكانة صاحبها لكن ياسمين نطقت وباحت وأفصحت عن سر أختها التي اكتشفته يوم انتحارها وقالت : رحاب كانت تحب الدكتور أمجد...

فنظر إليها أمين وقد كان يظن أنه الوحيد وأمجد من يعرفان سر رحاب وقد اتفقا أن يدفناه معها في قبرها.

فانقبضت أوردة كوثر وجحظ آدم مندهشا وقال مشككا : ماذا تقولين ؟؟؟

ظنا منه أنها تهذي، فقال أمين مهدئا : ـ اهدأ يا أخي ولا تفهم الموضوع خطأ...

فارتخت أعصاب كوثر قليلا وكأن الحديث موجه إليها، وأردف أمين قائلا : ـ أنا مثلك فهمت الموضوع خطأ وذهبت إليه ليلة البارحة وكنت سأقتله لولا تدخل جيرانه...

فشهقت كوثر وهي تضع يدها على فمها وياسمين من الدهشة فمهما مفتوح، أما آدم فقد كان منفعلا وقال بانفعال : ـ وماذا فعلت له ؟؟؟

فقال أمين بنبرة حزينة : ـ لم أفعل شيئا فرحاب اخترقت كذبة لنفسها وصدقتها على حساب أنفاسها، وقد حاول الدكتور أمجد أن يشرح لها فعاندت وقد.....

فقاطعته ياسمين متلعثمة : ـ لقد سمعت آخر حوار جرى بينهما وقد كان آخر حوار لها قبل انتحارها ولا أتهم العم أمجد فلم أره يوما يعاملها إلا كما يعاملني تماما لكن في الآونة الأخيرة لاحظت أنه كان يتحاشاها ويتحاشى الإنفراد بها ولا يحدثها إلا بوجودي كما حدث في ذلك اليوم المشؤوم وقد سمعتها خلف الباب عندما كنت أهم بالدخول فأوقفتني كلماتها وهي تصارحه بحبها وهو يحاول أن يشرح لها الوضع وأن شعورها ذاك لم يكن إلا لغياب الأب في حياتها الذي وجدته فيه ربما، لكن هذا جعل رحاب تشتاط غضبا قبل أن تنفجر عندما قال لها أن حبك لي خطأ فزلزلت العيادة بصرخاتها وهي تقول أنا لست خطأ وفتحت الباب وهرولت إلى البيت مسرعة فتبعتها...

فحشرج صوت ياسمين واختنق ثم أجهشت باكية...

فبكى آدم وأمين اللذان يسمعان تفاصيل انتحارها لأول مرة...

أما كوثر فتوقف فكرها عند آخر ما قالت رحاب " أنا لست خطأ "

ثم ترددت قليلا وحسمت أمرها وقالت : ـ رحاب تظن أن وجودها هو أكبر خطا وقد سمعت ذلك من أمها مريم رحمها الله...

فاندهش الثلاثة واحتبس الدمع في محجرهم، وواصلت كوثر تصريحاتها التي كانت قاسية عليهم فكيف على المسكينة رحاب وقالت : ـ لقد صارحتني بذلك وعلى ما أعتقد كانت رحاب في العاشرة من عمرها، وقد تأكدت من أن رحاب قد سمعت كل ما قالته مريم وهي تخبرني بأنها لم تكن تريد ولادتها وقد حاولت إجهاضها بشتى الطرق وفشلت حتى أنها امتنعت عن ارضاعها بعد ولادتها وحجتها في ذلك هو خوفها عليها من الألم وهي لا تعلم أنها آلمتها حد الموت...

ثم صمتت وأضافت : ـ قد شككت في أنها قد سمعت حديثنا عندما رفضت حضور عيد ميلاد أمين وعيدها الذي كان بعد شهور من تصريح مريم...

ثم التفتت إلى أمين وياسمين وقالت : ـ أتذكران ؟؟؟

لكنهما كانا تحت أثر الصدمة التي فاقتها صدمة آدم، ثم ختمت كوثر : ـ رحمهما الله... ولم أكن لأخبركم لولا أنكم أشهرتم السيوف في وجه بعضكم البعض معلنين عن حرب لا منتصر فيها، فإذا كان الكل مسؤول عن انتحارها بنسبة ضئيلة فالمرحومة مريم هي المسؤولة الكبيرة لكن رحاب هي المسؤولة الأكبر، ويبقى الله أكبر من ذنبهما مهما كبر، فرحمة الله عليهما وغفر الله ذنبهما...

فردد الكل بهمس : ـ آميـــن...

وهكذا وضعت النقاط على الحروف رغم قساوة الظروف، فساد الصمت من جديد والكل منهمك في ترتيب الفوضى التي اجتاحت عقله وهو يصفي حساباته مع نفسه قبل غيره، وكان آدم أول من رتب فوضاه مع أنه كان أكبرهم تضررا وقد استنتج أن بعض الآثار تلازم القلوب إلى أن تدخل معهم القبور وعزاؤه في ذلك أنه حاول بكل الوسائل التي كثيرا ما كان يرفضها عقله إلا أن قلبه فرضها عليه لإسعاد أخته رحاب وحتى أخوه محمد، فقام نحو أمين الذي كان منتكس الرأس، ولم يخرج من دوامته إلا ويد آدم تحاول مساعدته وهو يمدها نحوه مصافحا، وما إن رفع أمين بصره نحوه حتى رمقه بابتسامة رغم برودتها إلا أنه لم يتأثر على صدقها، فوقف أمين وصافحه بيد وحضن يده باليد الأخرى، فجذبه آدم نحوه واحتضنه بقوة وهو يقول : ـ مرحبا بعودتك أخي...

وراح كلاهما يربت على كتف الآخر بحرارة لعله ينفض عن كاهل أخيه برودة الحزن التي ألبسته ثوب المرارة، وجلسا بمحاذاة بعضهما البعض، وياسمين وكوثر ترمقهما بابتسامة رضا، فاغتنم أمين الفرصة لأنه يدرك كما يدرك الكل أن الحياة لا تتوقف عند رحيل أحد مهما كان محبوبا خصوصا إن رحل عنها هذا الأحد بمحض إرادته ويجب أن تستمر رحلة

البحث عن كنز السعادة وإتباع شعاع الأمل أينما أشع، فربت على فخذ آدم وقال : ـ ألم تتزوج بعد ؟؟؟

فرد آدم بحزن : ـ ليس قبل أن يفارق الحزن قلوبنا...

فقال أمين مواسيا : ـ إن لم يفارقك فكن مفارقه...

فقال آدم : جعلها الله آخر الأحزان يـــــــــارب...

فردد الكل وراءه : ـ يارب...

ثم ساد الصمت لبرهة ثم قال أمين مبتسما : ـ أنا في انتظار قرارك لأننا سنقيم زفافا واحدا أنا وأنت...

فاندهش آدم لقوله وصعقت ياسمين بقراره لتزداد صعقة بقوله : ـ وإلا سبقتك، وأعذر من أنذر...

فضحك الثلاثة أما ياسمين فارتبكت وقد دق قلبها ناقوس الخطر وهو يستعد للطعنة الأخيرة القاتلة، فسأله آدم وقد توهجت أساريره المعتمة : ـ ومن سعيـــــــدة الحظ ؟؟؟

فقال أمين مصححا : ـ ليست هي سعيدة الحظ بل أنا المحظوظ إن كانت من نصيبي...

ونظراته تتصبب حبا نحو ياسمين التي اكفهر وجهها حد الذبول وهي تشيح بنظرها على الجميع وتصبه على إسلام فقط، فأضاف آدم سؤالا آخرا وكله فضول : ـ وهل لنا الشرف بمعرفتها ؟؟؟ أو بالأحرى هل نعرفها ؟؟؟

فابتسم أمين ابتسامة زرعت في وجوه الآخرين ابتسامة مثلها إلا وجه ياسمين الذي اصفر كصحراء قاحلة لتصيبها زوبعة عاتية برد أمين : ـ بالتأكيد...

فاندهش آدم وسأله بتلهف : ـ من ؟؟؟

فقال أمين بهدوء : ـ ياسميـــن...

فثارت الدماء في شرايين ياسمين، فأردف آدم بدهشة ولم يصدق ما سمعه : ـ ياسمين أختي !!!

فرد أمين مؤكدا : ـ نعم ياسمين أختك...

فأزهرت ياسمين وأينعت فجأة وكأن الربيع احتضنها وطبع قبلة على وجنتاها، أما آدم فارتسمت على وجهه ابتسامة مشكوك في أمرها وعيناه تبحث في عيناي أخته عن طيف حبيب وكله شك وريب ثم أفصح عن شكوكه وقال : ـ لكن ياسمين أكبر منك سنا...

فرد أمين مبتسما : ـ لهذا أنا أحبها منذ ولادتي...

فضحك آدم وضرب على فخذ أمين وهو يقول : ـ هي ياسمين إذن...

فابتسم أمين وهو ينظر إلى ياسمين التي لبست الأبيض قبل موعد زفافهما وقال : ـ إن قبلت طبعا...

فالتفت آدم إلى أخته وسألها : ـ ما رأيك يا ياسمين ؟؟؟

فبقيت صامتة ولم تقل شيئا، فارتبك أمين وكرر آدم سؤاله بطريقة أخرى : ـ ياسمين... هل تقبلين بأمين زوجا لك على سنة الله ورسوله عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم...

فرفعت ياسمين بصرها نحو أخيها وابتسمت ثم أطرقت رأسها من جديد، فتدخلت الخالة كوثر مبشرة : ـ السكوت علامة الرضا...

وعانقت ياسمين وهي تهنؤها بحرارة، لكن آدم اعترض قائلا : ـ ليس بعد يا خالتي...

فانتفض أمين وأمه وحتى ياسمين مندهشين، واستطرد آدم موضحا : ـ أريد أن أسمع رأيها حديثا لا سكوتا، فقد سكتت من قبل وهي ليست على قبول...

فتوجهت أنظار الجميع نحو ياسمين التي توهجت كالقمر بعد خسوفه وصمتت كليل في ثله الأخير، فأردف آدم، وأمين على وشك أن يفقد صبره وهو يشابك أصابع يديه ويضغط عليها بشدة : ـ نحن ننتظر يا ياسمين...

وقبل أن يكمل لفظ اسمها انفتحت عقدة لسانها وتلفظت بسرعة خوفا من أن ينعقد من جديد : ـ نعم أقبل...

فانتصب أمين ولو لم تسبقه أمه باحتضانه لكان قد سبق آدم باحتضان ياسمين، لكن عيناه كانت تحضنها بشدة وكأنها لم تفارق حضنه منذ آخر حضن بينهما مع كان يتوق لحضن يجمع بينهما للأبد، فقال موجها كلامه لآدم : ـ أتمنى أن نقرأ فاتحة الكتاب على نية البركة...

فرد آدم : ـ لك ما تمنيت يا أخي... وسنقرؤها بعد صلاة المغرب بإذن الله، وبارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما بالخير...

فأمن أمين وأمه على دعائه أما ياسمين فمتعودة أن يدق قلبها بأمين دونما دعاء،أما أمين فقد كان مغموسا في ساعته ثم قال : ـ بقي حوالي عشرين دقيقة على الأذان...

فابتسم آدم وقال : ـ يمكنك الانتظار؟؟؟

فرد عليه أمين بابتسامة وهو يقول : ـ من انتظر عشرون سنة تهون عليه العشرون دقيقة...

شرد أمين كأنه تذكر شيئا ثم قال بنبرة جد حزينة : ـ حقيقة لم أكن أنوي طرح الموضوع في هذه الفترة...

فقاطعه آدم وهو يقول عكس ما يشعر به : ـ لا بالعكس هذه أنسب فترة علها تكون خطوة من الحزن إلى الفرح فالحياة تستمر ولا أحد يقف عند موقف، كان على رحاب و أن تتمسك بالحياة وتثبت لها أنها ليست خطأ، كان عليها أن تستغل وجودنا معها وحبنا لها لكنها اختزلت حياتها في خطأ كبير وأصلحته بخطأ أكبر منه بكثير، ولم يهمها حتى النتائج التي ستصل إليها ولا الآثار التي تركتها في قلوبنا، وكذلك الأمر بالنسبة لمحمد...

ثم وقف وهو يدعو أمين للذهاب إلى المسجد على أن يجتمع الجميع على العشاء واقترح أن يطلبه من إحدى المطاعم فاعترضت كوثر قائلة : ـ هذه مناسبة لا يرقى لها الاحتفال إلا بعشاء تقليدي وسأجهزه بنفسي...

فرحب آدم بالفكرة واستأذن منصرفا وقد تذكر أمين الذي ينتظره في الخارج.

بعد أقل من ساعة عاد آدم برفقة أمين الذي وقف لأول مرة على أعتاب هذا الباب وهو غير مرحب به ليدخله للمرة الثانية وهو من أهله وقد أصبح زوج المرأة التي لم يحب غيرها في حياته بانتظار أن يوثق زواجهما بعقد وإشهاره بزفاف، وما إن دخلا الاثنين حتى غزت رائحة الطعام أنف آدم أما لأمين فلم تفارق رائحة الياسمين أنفه، فاستقبلتهم كوثر بالتهنيئات والتبريكات ولولا الحداد لتعالت منها زغردات ولو أنها لم تجربها يوما في حياتها، فسألها آدم بعد أن استفقد ياسمين : ـ وأين العروس؟؟؟

فأشارت كوثر أنها في غرفتها فاتجه آدم نحوها وتبعته كوثر ومن ثمة أمين بخطوات تلامس الأرض وهو يطير في السماء.

دخل آدم بعد أن استأذن الدخول من ياسمين فوجدها تجلس على حافة السرير وقد غيرت لباس الألم والسقم ولبست ثوب الأمل والحلم، ومع أنها كانت مطأطئة الرأس إلا أن تورد وجهها كان يظهر جليا، فانحنى آدم نحوها ووضع يديه على وردتي خديها وقبل جبينها وهو يقول لها بحنان الأب والأم والأخت والأخ : ـ مبروك حبيبتي...

فوقفت ياسمين تقديرا وإجلالا له وارتمت في حضنه ولم تستطع حبس قرير عينيها، ولما شعر آدم ببرودته انتفض وسحبها من حضنه برفق ثم قال مبتسما : ـ غريب أمرك يا صغيرتي، الحزن يبكيك والفرح يبكيك...

فتلألأت أسنانها بابتسامة مرصعة بالدموع فغدا وجهها كغرفة عريسين مفروشة بالأبيض ومضاءة بالشموع، فقالت الخالة كوثر من خلفه : ـ لا بأس إن كانت دموع الفرح...

ففسح آدم لها المجال، فقبلت وجنتاها وهي تقول : ـ مبروك يا كنتي الصغيرة...

ثم أردفت : ـ مع أنني سأعفيك من قانون الحماة والكنة، ولن نكون غير أم وابنتها...

فانحنت ياسمين تقبل يدها، فسحبت كوثر يدها ووضعتها على رأسها مباركة إياها، فتنحنح أمين من خلفها فتنحت جانبا، فتقدم أمين بخطوة هيجت أمواج حب ياسمين حتى كادت أن تغرقه في بحر حضنها لولا أنه مد يده مصافحا، فسارعت للإمساك بها قبل أن يتبع مده جزرا، فحضن يدها بيده الأخرى وقال : ـ مبروك علينا ياسمنتي...

فاحمرت خجلا وطأطأت حياء، فمد أمين يده نحو ذقنها ورفع رأسها ثم قال : ـ وهل تتفتح الأزهار بعد الغروب ؟؟؟

فضحك الكل واكتفت هي بابتسامة تزيد توردها، فأضاف أمين : ـ ولأنك تختلفين عن كل الزهور اختارك القلب لرياضه ياسمينا...

فقال آدم : ـ نحن هنا يا أخي...

فرد أمين دون أن يرفع نظره عن ياسمين : ـ ولأنكم هنا أنا أقول هذا الكلام...

فابتسم آدم ونظر إلى خالته وقال : ـ أنا جائع ويبدو أن العشاء قد احترق...

فشهقت كوثر وهرولت إلى المطبخ، وتبعها آدم وهو يحمل إسلام في ذراعه، فرفعت ياسمين عيناها نحو أمين وارتمت في بحر عيونه غارقة، فقال أمين محاولا استنطاقها : ـ وإن بخلت علينا بكلمة، فعيناك تقول الكثير...

فابتسمت مرة أخرى ونطقت بالارتباك أخيرا : ـ أتذكر يوم قلت لك أنني أعشق البحر ؟؟؟

فعقد أمين حاجباه وقال ببرود : ـ بالتأكيد أذكر، ولو أن غيرتي لا تقبل أن تعشقي غيري...

فأزهرت خجلا وقالت موضحة وهي لا تزال تنظر إلى عينه : ـ لا بحر أعشقه...

فانعقد لسانها خجلا، فأومأ أمين برأسه وهو يحثها على المواصلة، فتشجعت وقال بسرعة : ـ لا بحر أعشقه غير بحر عينك...

فهاجت أمواج أمين واحتضنها بقوة حتى كادت تختنق لولا أنه كان أكسجين حياتها، فهمست من بين أضلعه : ـ كنت أتوق للارتماء في بحر حضنك، فأكمل معها بصوت واحد : ـ وركوب أمواج أنفاسك...

فاجتثت نفسها من بين أنفاسه وقالت مندهشة : ـ كيف أتممتها ؟؟؟

فابتسم ابتسامة تحدي وقال : ـ قولي غيرها...

فصمتت وهي تشك في قدراته ثم قالت بخجل : ـ أكثر ما يغريني

فقاطعها أمين وقد ازداد عرض كتفيه : ـ أكثر ما يغريني في جسمك هو حضنك...

فلا أصحوا إلا وأنا أسيرة في حصنك...

وأردف بغرور : ـ لا تتحدين في ذلك...

فردت متحدية : ـ بل أتحداك، فهذه وليدة اللحظة...

وصمتت لبرهة واستطردت بصوت سلس لا تشوبه لعثمة : ـ لا أقول أحببتك وانتهى الأمر...

بل أقول عشقتك وابتدأ العمر...

فابتسم أمين ابتسامة عريضة وقال مستسلما : ـ كسبت الجولة ولم تكسبي الرهان...

ثم قبل جبينها وهمس : ـ أنت العمر كله حبيبتي...

فردت عليه ضاحكة : ـ وأنت العمر كله ناقص منه عامان...

تقصد العامان اللذان تكبره بهما، فضحك أمين وفجأة قاطعته ياسمين وباغتته بسؤالها : ـ من أين لك أن تشاركني حرفي وأنت لم تشاركني ظرفي ؟؟؟

فارتبك وحاول تغيير مجرى الموضوع ثم قال : ـ بعض الكنوز صندوقها من حطب، والبعض الآخر صندوقها القلب...

فابتسمت وقد انتقلا من لغة العيون إلى لغة القلوب وقال : ـ قلبك الذهب الخالص...

ثم عادت إلى سؤالها وقالت من جديد : ـ وكيف وصل كنزي إلى قلبك ؟؟؟

فحاول التملص من سؤالها لكن عيونها حاصرته فقال وهو يمسك بذراعيها مواسيا : ـ رحاب أهدتني إياه...

فجحظت عيناها، ثم قالت وقد كادت الدهشة أن تسرق الحروف منها : ـ أختي الحبيبة لم تمت إلا وأهدتني الحياة... رحمها الله وأسكنها فسيح جنانه...

فأردف أمين : ـ رحمة الله عليها...

ورغم ألم الموت إلا أنها مرت ليلة من أروع الليالي وأسعدها إلى درجة أن سواد الليل قد لبس الأبيض سعادة بأمين وياسمين.

لم تكن ليلة أمجد تختلف عن ليلتهم في لونها وقد أضاء القمر سماء حبه مع أنه لم يأفل يوما، وانقضت الليلة ببياضها وما إن أشرقت الشمس حتى زادتها نورا على نور، وقبل بلوغها منتصف الأرض كان أمين وعائلته قد عادوا إلى بيتهم تاركا ياسمين في حضن أمين.

بعد صلاة الظهر أهجعت كوثر إسلام في فراشه بينما استلقى أمين هو الآخر في غرفته، وفجأة طرق الباب فنزل أمين يفتحه رغم أن الطرق قد توقف ما جعله يظن أن الطارق قد غادر، وما إن فتحه حتى وجد أمجد واقفا كجبل مزهر ولا ينوي التزحزح من مكانه إلا لداخل البيت، فتفاجأ أمين به والخجل يغطي ملامحه وهو يرى أثر لكمته على وجهه الوقور، فقال أمجد ممازحا : ـ من الأدب أن أرد الزيارة أليس كذلك ؟؟؟

فمد أمين يده مرحبا به وقال : ـ مرحبا بك البيت بيتك...

دخل أمجد إلى غرفة الضيوف فأطل إسلام بطرف عينه فنداه أمين فاتحا ذراعيه له، فهرول نحوه، لكنه ما إن رأى الضيف الجالس على الأريكة حتى غير اتجاهه وارتمى في حضنه، فاندهش أمين وقال ممازحا : ـ لا داعي لوجودي إذن...

واستأذن منصرفا يعلم أمه بالوافد الجديد ولكنها رأته وهو يصعد السلالم معه وهي تتهيأ في غرفتها لاستقباله، فطرق الباب عليها وهو يهمس : ـ لدينا ضيوف يا أمي...

ففتحت له الباب وقالت مستغربة : ـ ما الذي أتى به ؟؟؟ أبينكما موعد ؟؟؟

فأجابها باقتضاب : ـ لا أبدا...

ثم أضاف بعد أن تذكر باقة الورد التي جاء بها الضيف : ـ أفضل الأشياء في هاته الحياة هي التي تأتينا بلا مواعيد مسبقة...

وانصرف وأغلق الباب خلفه، وما هي إلا دقائق حتى لحقت به، فاندهش أمجد بطلتها الجديدة حتى انعقد لسانه، على عكس أمين الذي قال متفاخرا بأمه : ـ وأخيرا تنازلت الملكة ولبست الثوب الملكي...

فطأطأت رأسها متحصرة وقالت : ـ لقد تأخرت كثيرا...

فقال أمجد : ـ عفا الله عما سلف...

فلفتها منظر إسلام الذي كان يجلس في حجر أمجد وهو ينظر إليها بغرابة، لأنه لم يعتد على مظهرها بعد، فابتسمت وانحنت تناديه وفتحت ذراعيها وهي تقول : ـ تعالى عند أمك... ألم تعرفني يا بني...

فقهقه ملأ شدقيه وجرى إلى حضنها، فحملته وهي تحضنه بشدة وقالت : ـ يمكنك أن تفتخر بأمك يا إسلام، ومن اليوم فصاعدا يمكنني القول بأنني أم إسلام بعزة وأن ديني الإسلام بكل فخر.

هذه العبارات كانت كفيلة بأن تشرح صدره، انشراح من دخل الإسلام لتوه، أما أمين فقد تظاهر بانقباض ملامحه وقال مستنكرا : ـ أم إسلاااااااام ؟؟؟

وأين أنا ؟؟؟

فابتسمت كوثر وقالت : ـ أنت هنا... وأشارت إلى قلبها، ثم أضافت : ـ وهنا... وأشارت إلى عقلها، فابتسم أمين ابتسامة رضا يملؤها الغرور وقال : ـ أعلم ذلك...

فردت عليه بابتسامة عريضة وأنزلت إسلام واستأذنت إلى المطبخ وكأنها شعرت بنبضات قلب أمجد التي كانت تقول : ـ وأين أنا ؟؟؟

أتراني لا أزال على أعتاب قلبك كما كنت، أم أن الزمن استطاع أن يحجز لي بعضه ؟؟؟

لكن عقل أمجد أعطاه إشارة بضرورة استغلال الفرصة وفتح الموضوع الذي جاء من أجله، فتنحنح وقال : ـ أتذكر آخر موضوع تحدثنا به...

فرد أمين متظاهرا بجهله : ـ أي موضوع تقصد ؟؟؟

فقال أمجد بكل هدوء : ـ عن الفتاة التي أحببتها...

فقال أمين : ـ نعم تذكرت...

فأردف أمجد : ـ هي أمك...

ثم صمت قليلا وأضاف : ـ وأقسم بالله أنني دفنت حبها من اليوم الذي صارت فيه على ذمة أباك فك الله أسره...

فسكت أمين وبقي يتأمله لبرهة ثم قال : ـ سيماهم في وجوههم...

فابتسم أمجد وقال باستغلالية : ـ إذن هل تقبلني زوجا لأمك...

ثم أردف : ـ أعلم أن الوقت غير مناسب لكنني اغتنمت فرصة وجودك في أرض الوطن وخصوصا أنني لا أعلم متى تغادر؟؟؟

فرد أمين بابتسامة أعرض وقال : ـ يشرفني نسبك إن هي قبلت...

ثم نهض وهو يقول : ـ سأوافيك بالجواب بعد قليل، وإلى ذلك الحين أتركك في ضيافة إسلام...

فابتسم أمجد وعقله وقلبه مشغولان بأم إسلام التي كانت هناك وكل حواسها هنا، إلى درجة أنها عندما دخل عليها أمين فزعت وكادت تسكب إبريق القهوة على نفسها وهذا ما جعل ابنها يقول : ـ أحدث هذا لأنك كنت شاردة أم أنها عين غريب قد أصابتك ؟؟؟

فتوردت كوثر خجلا فقطفها أمين مردفا : ـ إن كان شرودا فلا تقلقي فالكرة في ملعبك، وإن كانت عينا فيا أرض إحفظي ما عليك...

فقالت أمه مندهشة : ـ ماذا تقصد ؟؟؟

فرد عليها مراوغا : ـ قصدي واضح جدا، دعوت الرب أن يحفظك فقط...

فقاطعته متذمرة : ـ أميـــــــــــــن...

فأردف وراءها : ـ آميـــــــن يارب العالميـــــن...

فضربته على كتفه وأشاحت ببصرها عنه فقال أمين موضحا : ـ الدكتور أمجد سيصبح العم أمجد إن أنت وافقت طبعا...

فانتفضت مندهشة وقالت : ـ أوافق على ماذا يا أمين ؟؟؟ أتريد أن ترفع ضغطي ؟؟؟

فتقدم نحوها ثم وضع يديه على وجنتاها اللتان كانتا كجمرتين وقبل جبينها ببرود ثم قال : ـ حفظ الله عروستنا...

فقاطعته وهي تبعد يديه عنها بقوة ثم قالت متذمرة : ـ أنه الأمر لا أريد سماع أي شيء...

ولما شعر أمين أنه قد وتر أمه لحد كبير تقدم نحوها بسرعة وطوقها بذراعه معتذرا ثم أردف بنبرة جدية : ـ الدكتور أمجد جاء ليطلب يدك...

ثم قبل يدها وأضاف : ـ فهل توافقين يا أمي...

فاندهشت ولم تنبس بكلمة، فكرر سؤاله فقالت وهي تشيح بنظرها عنه : ـ الرأي رأيك يابني...

فقال أمين وقد عاد إلى هزله : ـ أنت قلتها إذن سأخبره بالرد على الفور...

وحمل صينية القهوة وعاد إلى غرفة الضيوف وهو يتمتم في الرواق، وقبل أن يدخل التفت مباغتا أمه فوجدها تمشي خلفه على أطراف أصابعها، فابتسم ودلف الغرفة وتركها حائرة بين أن تطير في السماء أو أن تحط على الأرض.

قدم أمين القهوة لأمجد الذي كان قلبه يغلي كغليان القهوة في الركوة، ولكن غليانه لم يشفع له عند أمين الذي أعجبته اللعبة وآثر أن يلعبها مع أمجد هو الآخر، لكن بطريقة أخرى فالتزم الصمت وترك ضيفه يحتسي القهوة وكأنه يحترق بنار هو حطبها وأمين يتأمله تارة ويرتشف القهوة تارة ويداعب إسلام إذا ما غلبه الضحك تارة أخرى.

تجرع أمجد آخر رشفة وابتلع جمرة خيبته ووقف يهم بالانصراف بوجه مكفهر وقد أحرجه الموقف وإن كان السكوت علامة الرضا فسكوت أمين بالنسبة له لم يكن إلا تعبيرا عن الرفض، فقال أمين : ـ لما العجلة دعنا نحتسي فنجانا آخرا من القهوة...

فقال أمجد باقتضاب : ـ لا شكرا...

فأثار شفقة أمين فوقف واتجه نحوه بخطوات سبقتها يده مصافحة، فصافحه أمجد وقال بصوت تخنقه الخيبة : ـ شكرا على حسن الضيافة...

فقال أمين : ـ العفو عمي أمجد...

لكن أمجد من تأثره بالموقف لم ينتبه للفظة التي سبقت اسمه، فأردف أمين موضحا : ـ مبروك عمي أمجد...

فلمعت عينا أمجد وابتسم ابتسامة مسحت كل شحوب وجهه وتنفس الصعداء ثم قال : ـ حرام عليك يابني، كدت أن تجلطني...

وحضنه بشدة حتى آلم عضلاته المفتولة، فسعل أمين ثم قال متظاهرا بالاختناق : ـ أنت تخنقني...

فاقتحمت كوثر الغرفة، فأفلته أمجد وهو يبتسم معتذرا، فضحك أمين وهو ينظر لأمه ثم قال : ـ لو لبست ثوب الشرطة لكان خيرا لك كان سيليق بمهمة الترقب والترصد أكثر...

وانفجر ضاحكا هو وأمجد، فاحتنقت أوردة كوثر بمزيج من الخجل والغضب وجرعة زائدة من الحب، واستدارت منسحبة من الموقف.

وما إن خرجت حتى طلب أمين من أمجد الجلوس بنبرة جادة، فامتثل أمجد وجلس وكأنه خائف من أن يسحب قبوله، فسكب أمين فنجانا ثانيا من القهوة لنفسه، ثم سأل عمه أمجد فيما كان يريد فنجانا آخرا، فأومأ برأسه علامة الإيجاب، فقال أمين وهو يضع السكر في القهوة : ـ قبل كل شيء يجب أن نتفق على بعض الأمور الهامة...

فرد أمجد بكل ثقة : ـ نعم بالتأكيد تفضل أنا أسمعك يا بني...

قدم أمين له القهوة ثم قال : ـ وما مصير إسلام ؟؟؟

فارتشف أمجد رشفة قهوة ثم أجاب : ـ إسلام ابني وهو أمانة في عنقي إلى يوم يدفنني...

فقال أمين : ـ أطال الله في عمرك عمي...

فابتسم أمجد والتفت إلى إسلام الذي كان منشغلا بقطعة الحلوى، وقال مداعبا : ـ أليس كذلك يا إسلام...

فنظر إليه إسلام نظرات مستحيل أن يخونها قلبه الحنون، ثم التفت إلى أمين من جديد وقال : ـ متى ستغادر أرض الوطن ؟؟؟

فأجابه وهو يمسح على ذقنه الأشقر : ـ ليس قبل أن أتم بعض الوثائق الخاصة بياسمين...

فقال أمجد مستفهما : ـ خير إن شاء الله ما بها ياسمين ؟؟؟ أهي مريضة ؟؟؟

فابتسم أمين وقال : ـ بإذن الله لن تمرض بعد مرضتها الأخيرة لأنني سأكون طبيبها الخاص...

فتعجب أمجد من رده المبهم وقال : ـ لم أفهم قصدك، إن لم تكن مريضة فلماذا ستكون طبيبها ؟؟؟

فابتسم وقال موضحا : ـ أنا وياسمين سنتزوج بإذن الله...

فقفز أمجد فرحا بهما، أو ربما أخرج نشوة فرحة زواجه بكوثر، واتجه نحوه وهو يقول : ـ هذا أسعد خبر سمعته اليوم...

فقال أمين مصححا : ـ تقصد بعد خبر زواجك...

فعانقه أمجد مهنئا ومباركا وقد بلغت سعادته ذروتها حتى فاضت وأغرقت أمين في فيضها.

****

اغتنم آدم تحسن حالة ياسمين وخرج في الصباح الباكر قبل أن تستفيق ياسمين وتوجه إلى المقبرة لأنه كان بحاجة للحديث إلى أمه وعقد صلح مع أخته التي أخطأت في حق نفسها أكثر مما أخطأت في حقهم، وقف على قبرها وهو يتذكر كيف وضعها بيديه داخله ولم يشك للحظة أنها هي التي اختارت هذا المكان الموحش على أن تعيش تحت كنفه، قرأ فاتحة الكتاب عليها و دعا الله لها كثيرا وظل يمسح على قبرها بحب وحنان وهو يحاول جاهدا حبس دموعه حتى لا تراها أمها، ثم اتجه نحو قبر أمه فسلم عليها وقرأ عليها سورة الفاتحة ثم جلس على ركبتيه وأخذ حفنة من تراب قبرها في يده، وكأنه يشد يدها بيده وأخذ يحدثها : ـ أخيرا سنفرح يا أمي، ولكن فرحتنا بدونكم ناقصة كنت أتمنى لو أننا اجتمعنا على الفرح مثلما اجتمعنا على الحزن، لكن الموت فرقنا ولم يبق إلا أنا وياسمين أحياء...

ثم أردف وكأنه قد لاحظ توجم وجهها وترنحها : ـ نعم محمد قد مات يا أمي...

وأضاف وكأنه لاحظ التفاتها بحثا عنه بين القبور : ـ هو ليس هنا وكأنه قد اختار البعد عنك حتى في قبره ليتركك مدفونة في البر ويدفن هو في البحر...

ثم التفت خلفه فرأى مساحة تكفي لقبر بجانبها فقال وهو يشير بيده : ـ وأقسم بالله لو كان مكانه في غير عرض البحر لأتيت به ووضعت قبره بجانب قبرك هنا في هذا المكان بالذات...

ثم وقف ونفض التراب عن يديه وعن ركبتيه وهو يحبس دمعه أن ينزل ثم رفع يديه وقرأ سورة الفاتحة على روحها الطاهرة من جديد ودعا لها بالرحمة وانصرف، لكنه بمجرد أن خطى بعض الخطوات حتى التفت إليها وكأنه تذكر أن يقول شيئا ثم قال : ـ لا تنسي، أحبك كثيـــــــرا...

ثم التفت إلى قبر رحاب الذي كان بعيدا بعض الشيء ثم قال : ـ وأنت أيضا حبيبتي...

ثم شد على يسار صدره وقال بخفوت : ـ وأحبك يا أخي...

وهرول بخطوات متسارعة وقد حرر دمعه المحبوس، لكنه بمجرد أن خرج من المقبرة تحول إلى جبل من الجليد يلمع ولا يدمع، وعاد إلى البيت قبل أن تستيقظ أخته ياسمين التي وإن كانت قمر قمر حياته فياسمين شمسها.

استيقظ أمين ولكن ضميره كان صاح وينتظر صاحبه أن يفيق وهو يذكره بأن لإسلام عليه حق ولأبيه عليه حق وإن حرمه منه فعليه ألا يحرمه ابنه الصغير لذا قرر أن يكف عنه الحرمان ويزوره رفقة أخيه إسلام، فطلب من آدم الذي لم يتردد للحظة بأن يحدد له موعدا مع والده وأخبره بأنه يريد أن يأخذ معه إسلام فرحب آدم بالفكرة وحدد له موعدا، لكن شيئا حل عليه ضيفا دون موعد وهو أباه الذي لم يخطر من قبل على باله أو قلبه وقد حاول أن يمحي وجوده منهما تماما، لكنه أمين فاجئه بضميره الحي.

انقضى الليل الأخير بالنسبة لأمجد وهو يودع سنوات الوحدة التي إن لم يقضها ساهرا لوحده قضاها ساهرا على راحة أمه قبل أن تموت.

ولما أشرقت الشمس، أشرقت أمنياته في الأفق فأشرق بأناقته وراح يتقدم نحوها بخطوات ثابتة وكله حمد وشكر، وكل خطوة تقلص الفجوة بينه وبين عائلته الجديدة التي هو متيقن أنها لن تكون إلا سعيدة.

تم عقد قران أمجد وكوثر، وآدم وأمين الشاهدين على ذلك، فباركا لهما وهما بالانصراف لكن أمين كان في مخططه ألا يتركهما إلا وإسلام في ذراعه، لكن أمه لم تنزله من ذراعها للحظة فطلب منها أن أن تعطيه إسلام لاصطحابه في نزهة، فارتبكت وخافت فطمئنها ألا تخاف وسيكون له الحافظ الأمين، فسلمته إياه وافترقوا وهي لا تزال توصيه به حتى ظن أنها ستتبعه، واتجه أمين وإسلام إلى السجن ليكحل عين أبيه برؤية عينه الثانية.

بعدما كان آدم مسجونا في زنزانة ماضيه الذي وإن تحرر منها فقيود الجريمة لم تكن لتحرره فقد تمكن موقف أمين من تحريره فاتجه إلى مستشفى الأمراض العقلية الذي لم يكن يعرف حتى مكانه وظل يسأل إلى أن وصل إليه، فسأل موظف الاستقبال أنه يريد زيارة أحدهم ولقنه الاسم لكن الموظف فاجئه بأنه لا يوجد أحد بهذا الاسم وهذا ما جعل آدم يلح عليه والموظف يبحث بين أسماء المرضى ولكنه لم يجده، مما استدعى تدخل موظف قديم في المصلحة وبعد أن أخذ كل المعلومات من آدم توجه إلى إحدى مصنفات في الأرشيف فوجده هناك ووجه آدم إليه، فتعجب الموظف الآخر من وجود هذا الاسم بين المرضى وكيف له أن لم يسمعه من قبل لا لشيء إلا لأنه لم يكن أحد يناديه ولا أحد يكلمه ولا أحد يجرؤ على التقدم نحوه ولا أحد يزوره إلا من زيارة واحدة بعد أيام من دخوله إلى المستشفى وكانت من أحد يريد أن يأخذ ثأر أخيه منه ولكنه لما رأى حالته تركه للأيام تثأر منه كيفما تشاء.

مر شهرين ونصف بسرعة الأرنب أو أسرع بكثير، أما على العرسان فمرت بسرعة السلحفاة أو أبطأ بكثير لأن هاته الأخيرة تؤمن بأنه ليس المهم متى تصل بل الأهم أن تصل

وحسب، وأن تمشي بخطوات بطيئة خيرا من أن تلعن المسافات، لكن أمين كان يلعن حظه العاثر مع مواد الحفظ التي كانت أكبر معضلة يواجهها في حياته العملية لكنه اليوم يواجهها في حياته العاطفية بعد أن طلبت ياسمين أن تكون سورة يوسف مهرها لحاجة في نفسها، فكان هذا المهر أصعب على أمين من لبن العصفور.

كانت ياسمين ياسمينا بكل معانيه وهي تلبس فستانا أبيضا اختاره لها أمين وأحضره معه منذ يومين وكان على قدر من الجمال والبساطة بقدر حبه لياسمين البسيطة، وقد طلب منها ألا تضع الكثير من الزينة وأن تكتفي بإسدال شعرها البني المائل للأشقر الطويل كالسنابل الصفراء ووضع طوق من الياسمين عليه، وطلبت منه هي الأخرى ألا يتعدى على حدود شواطئ بحرها بشفرة حلاقة قاصدة لحيته، فسحرت ياسمين بجمالها الباهر الجميع على غرار قمر التي كانت قمرا في بهائه وحسنه ولو أنها كانت على قدر مقبول من الجمال لكن جمال روحها طغى فاكتمل البدر، وقد لبست فستانا فائق الجمال وتسريحة شعر بسيطة وتجملت بألوان هادئة، وزفتا ياسمين وقمر إلى عريسيهما اللذين كان أحدهما لياسمين غصنا والآخر للقمر سماء في حفل راق.

دخل أمين الغرفة فوجد ياسمين كما تخيل أن يراها وأجمل، فانحنى ورفع الغطاء الذي لم يستطع أن يغطي وجهها الملائكي وهمس : ـ ما شاء الله على ياسمينة قلبي وروحي...

فابتسمت وازدادت توردا واحمرارا فلثم جبينها ثم وضع يده على رأسها وتمتم بكلام لم تسمعه، وما إن أنهى جلس على ركبتيه ومسك كلتا يديها وقبلهما في حركة لم تتوقعها، فقبلت يديه هي الأخرى ومن ثمة احتضنتهما، فقال لها أمين : ـ أنت من الله دعوة مستجابة...

فردت عليه وهي لا تزال تحضن يديه : ـ إن الله مجيب الدعوات...

فأردف أمين : ـ ونعم بالله...

ثم شرد أمين فسألته : ـ مابك ؟؟؟

فرد عليها مطمئنا : ـ تذكرت شيئا فقط...

فقالت ياسمين بتذمر : ـ وما هذا الشيء المهم ؟؟؟

فغارت بسمة ياسمين وقد بصمت الغيرة عليها ليس بأصبع واحد وإنما بالعشرة، فابتسم أمين وقد لاحظ تغير ملامحها ثم قال : ـ تذكرين يوم قبلتني وأنا صغير ؟؟؟

فاحتقنت الدماء في وجهها وخفضت رأسها وهمست : ـ نعم...

فقال أمين : ـ لكنني لا أتذكر...

****

مرت سنتين ونصف وكانا آدم وقمر قد رزقا بتوأم أسماهما أبوهما بعد إذن أمهما طبعا على اسم الراحلتين مريم ورحاب وهو يتوعدهما أن يجعل كل حياتهما سعادة، وها هو اليوم يوفي بعهده منذ سنة ونصف، وقد جعل بيت العم منصور بيته الذي كان هدية زفافهما وقد ترك وصيته مع أخيه والد قمر ليكون حاضرا في كل زاوية من زوايا البيت والقلب.

أما بالنسبة لكوثر وأمجد فقد تقاعدا عن خدمة ميدان الطب وتفرغا لابنهما إسلام وكأنهما يبنيان معلما من المعالم الإسلامية، بالإضافة إلى تفرغهما لدار الأيتام التي كان آدم الذي لم يزرها يوما منذ فارقها كداره أكبر مموليها.

أما أمين وياسمين فقد عاشا أجمل أيام حياتهما ولم يترك أمين مكانا في غربته إلا واستعمره متفاخرا بجمال وطنه ومشبعا بوطنيته وليس له غير ياسمين وطنا، ورزقا بمولود فأسمته ياسمين يوسف ولما سألها زوجها لماذا هذا الاسم بالتحديد أجابته :

صبرت كصبر سيدنا يعقوب على ابنه يوسف...

فرزقت بخل يقتدي بعفة سيدنا يوسف...

وكان مهري منه سورة يوسف...

فرزقت منه بطفل فأسميته يوسف...

لتغدو حياتي بجمال سيدنا يوسف...

فالصلاة والسلام على سيدنا يوسف...

فكانت فرحتهما فرحتان، فرحة بإثمار حبهما وفرحة بتخرج أمين من أكبر الجامعات، وبعد شهرين من فرحتهما قرر أمين أن يحمل أكبر كنوزه في صندوق قلبه الكبير والعودة إلى وطنه الأم.

وحتى عند إقلاع الطائرة وياسمين لم تقلع عن خوفها على ابنها يوسف، فلما لا حظ أمين اضطرابها وخوفها الشديد على ابنهما حمله عنها وقال ممازحا : ـ مذ أتى ابني إلى الحياة لم تعد تهتم زوجتي إلا بابني...

فاقتربت منه وهمست في أذنه : ـ لو رزقت منك بعشرة أطفال فستظل بينهم الأكثر دلال...

****

وهكذا بدأ الكل حياة جديدة أو بالأحرى من لم يدفن نفسه حيا وتشبث بالحياة رغم عثراتها التي يحتمل الوقوع فيها لكن يجب التحمل والتمسك بالأمل الذي يظل باسطا يده لمن يراها بعينه أو بقلبه.

القلب الذي يهون عليه أن يكون تحت التراب مدفونا على أن يعيش بحب في طياته دفينا، فبعض القلوب في رحم الحياة ميتة منذ عصور، لأنها تحمل في أحشائها حبا دفينا حكم عليها بالنفي إلى أرض الموت أين يستحيل عليها إلى ضفة الحياة العبور، فتصبح هاته الأخيرة مقبرتها و العذاب مصيرها و لو كانت تسكن أفخم القصور، فالحب لم يخلق ليدفن في القبور و لو كانت منتعشة بأزكى العطور المنبعثة من باقات الزهور التي وضعها المحبون عليها وخلدهم من الألم مفطور صائم عن البوح إلا من لغة العيون التي لن يقرأها غيره و لو اجتمع مع من يحب على مائدة فطور، فليس الكل يفقه لغة العيون لذلك سيعاني وجعا يكاد

يحرق ثنايا الصدور ولن يترجمه ولو كتب آلاف السطور ويبقى وحده المذنب في جعل حياته ليلا لا يعقبه نهار وفصلا واحدا لا أربعة فصول.

فالحياة فصول لا يهم لا عددها ولا تعاقبها ولا فترة كل فصل منها، فقد يثلج شتاؤها الصدور من الألم، و قد يلفح صيفها القلوب بشمس الشوق والحنين وكل ما هو حزين، ولربما يعلن الخريف قدومه في غير موعده ليقطع رؤوس سنابل استسلمت لمنجله ويحصد زهور أرواح لفت حول نحرها حبل المشنقة فانتحرت، وفي الأخير ينثر رفاتها كهشيم تذروه الرياح في كل مكان أو يكون مآلها الدفن مقبرة النسيان وتنسى كأنها لم تكن يوما إنسانا، وقد تعطر ذكراها الذاكرة و الوجدان لكن لا الزهور الميتة تزهر، ولا الأوراق اليابسة تخضر، ولا الحلم يتحقق لمن روحه أزهق، أما من تمسك بالحياة فمن حقه أن يحلم ولو كان يتألم، فإن كان الألم نارا فالحلم نور وسيضيء بوهجه كل مظلم وسيطفئ نار الألم وسينثر رمادها بين زهور الأمل التي قد تذبل لكنها لا ولن تموت ما دام صاحبها يسقيها كل يوم حتى تزهر معلنة حلول فصل الربيع وكذا بداية حياة سعيدة يعجز عن وصفها اللسان والقلم.

****

تمت بحمد الله وشكره وعونه وتوفيقه

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع